

وداعا أيها السلاح

ارنست همنغواي

وداعاً أيها السلاح

ترجمة: رفعت ناسيم
مراجعة: أحمد زكي عبد الحليم

دار القلم
بيروت - لبنان

في اواخر الصيف من ذلك العام . كنا نقيم في احدى القرى القائمة على التلال المطلة عبر النهر ، والسهل الذي يليه ، نحو الجبال .

وفي قاع النهر من ناحية الضفة ،كان الحصى براقا لامعـا . والمياه تنسـاب سريعة متدفقة ، تبدو للعين وهي تتماوج في شعاب الارض الخضراء ، زرقاء بلون السماء .

كانت فرق الجنود تمر تباعا على مقربة من البيت ، منحدرة نحو نهاية الطريق ، وكان الغبار الذي تثيره وهي تضـرب الارض باقدامها المتلاحقة ، يعفر اوراق الشجر . . بل وجذوعها القاتمة الالوان .

اما السهل فقد كان وافر المحصول ، غنيا بغراسه ومزروعاته ؛ فهناك العديد من بساتين الفاكهة وحدائق الازهار الموسمية . وعند اطراف السهل كان الجبل العملاق ينتصب اجرد قاحلا ، وعلى سفوحه الصخريـة القاتمة كانت تدور معارك ضارية . ويحتدم القتال ليل نهار .

في الليل ، كنا نستيقظ على صوت المتفجرات ودوي القنابـل ، ونتأمل بريق المدافع .

وكم من ليلة قضيناها ونحن نراقب زحف الفرق ، وهـي تمر من تحت نوافذ البيت . وامامها المدافع الضخمة تسحبها الالات الجرارة .

كانت الحركة دائما اثناء الليل . وصناديـق الذخيرة تتدفق على ظهور البغال ، وشاحنات رمادية اللون تقل الجنود ، واخريات منها عبئت بالعتاد ، تسير بطيئة في الطريق المزدحم .

. . .

في الخريف ، عندما نزل المطر ، تساقطت اوراق الكستنـاء في الغابة القائمة شمالا ، وبدت الاغصان عارية والجذوع قاتمة الالوان ، وكذلك عريت شجيرات الكرمة المنتشرة في كل مكان هي الاخرى من كل مظاهر الخضرة . وبدا الريف في سائر جنباتـه على هـذه الصورة العابسة : فالهواء رطـب والطبيعة ساكنة والكون واجم .

الضباب منتشر فوق صفحة النهر ، وفي اعالـي الجبال تتزاحم قطـع الغيوم متزاحمة متلاحمـة . وعبر الطريـق المارة بالقريـة ، يتوالى رتـل الشاحنات ، قاذفة برشاش المياه الموحلة في كل جانب . والجنـود في زحفهم المتواصل ، ثيابهم ملطخة ، ورؤوسهم مبللة وفي صدر كل منهم برزت حافظتا الخرطوش الجلديتان حتى بدا كل جندي زود بهما ، كأنه امراة حبلى فـي شهرها السادس .

بينما سيارة « جيب » رمادية اللـون ، تنهـب الارض في الفترة بعـد الفترة ، وقد جلس في داخلها الى جوار السائق احد كبار الضباط ، وفي الخلف ضباطه المرافقون .

كانت هذه السيارات الصغيرة ، تقذف برشاش المياه الموحلة اكثر من غيرها ، وكنا نعرف حين تتميز احداها بسرعة فائقة ، انهـا تقل الملك الذي خرج من مقره في « الاودين » ليطلع بنفسه على مجرى الاحداث ، التي كانت في الواقع تسير من سيء الى أسوأ .

وفي مطلع الشتاء هطل مطر غزير ، وحملت مع المياه المنسابة في زحفها جراثيم الكوليرا . فأرعبت النفوس واقضت المضاجع ، ولكنهم استطاعـوا القضاء عليها ، بعد ان ازهقت من ارواح الجنود سبعة آلاف فقط ! كانوا جميعا في فرحة الشباب ونضرة الصبا .

في السنة التالية تبدلت الحال ، لقد احرز جنودنا انتصارات تيمة . واستطاعوا الاستيلاء على الجبل المحاذي للنهر وجوانب التلال المقاربة ، حيث تنمو غابة السنديان . وفي آب من السنة ذاتها عبرنا النهر ، وانتقلنا الى بيت جديد في كوريزيا فيحديقته المسورة نافورة ماء متحركة ، وسط اشجار كثيفة الظل .

كان القتال الآن قد انتقل الى سفوح الجبال المجاورة ، على مسافة ميل تقريبا ، وكانت المدينة التي اتخذناها مقرا تبدو جميلة وادعة ، وكذلك البيت الذي سكناه ، كان مريحا للغاية ، تنساب خلفه أمواج نهر متعرج ، وتحيطه من الجهة الاخرى عرائش الكرم ذات الالوان الزمردية المفرحة .

والظاهر ان جنودنا ، نجحوا في انتزاع المدينة من ايدي العدو دون ان يكلفوا ابناءها خسائر فادحة في ممتلكاتهم ، ولعل اعداءنا النمساويين قد غادروها ، وفي نفوسهم امل العودة اليها ذات يوم ، بعد انتهاء الحرب ، لذلك رفقوا بعمرانها من أن تلتهمه النيران وبأبنائها من ان تخطفهم شظايا القنابل .

في داخل المدينة ، كان الناس يتابعون حياتهم المعتادة وقد استأنفت المستشفيات والمقاهي والمطاعم نشاطها المعهود ، حتى بطاريات المدافع ، على جوانب الطرقات كانت هي ايضا على استعداد للعمل .

وفي ناحية من المدينة بيتان للدعارة أحدهما لافراد الجند ، والآخر خاص بالضباط .. كان كل منهما دائم الحركة .

ومع طلائع الخريف ، عادت الليالي الباردة ، وكان القتال لا يزال يجري في شعاب الجبال ، وراء المدينة . اما الجسر الحديدي فقد تلوى بشظايا القنابل .. غير أن وجود فتيات جميلات كان يخفف من حدة هذه العوامل القاسية . وقد صار بمقدورنا ان نشاهد الملك حين يمر بسيارته ، بجسده النحيل الطويل ، ولحيته الشائبة .

هذه المظاهر والعوامل بالاضافة الى ما اصاب المنازل ، وتراكم الطين والحجارة في الحدائق والشوارع العامة ، قد جعل من خريف هذا العام فصلا مخالفا لقرينه في العام المنصرم .. يوم كنا في الريف : حتى الفصول في سنين

الحرب تتغير . .والحرب نفسها تتغير ووسائلها كذلك .

. . .

في الصيف ، يوم حللنا المدينة : كانت اشجار غابة السنديان المنتشرة على سفح الجبل ، خضراء مورقة . كانـت ندية زاهيـة ، تنتشي لتهاديهـا النفس ، وتغفو العين بالنسائم العليلة التي تسري بين اوراقهـا ، وها هي الآن .. بقايا جذوع ، وحطام اغصـان وجذور متيبسة ، منبوشـة محترقة .

والارض التي كانت لاسابيع خلت اما لنبتات برية حية تضحك مع اشراقة الطبيعة ، وتسبح جمال الحياة الخيرة . اتيتها فاذا بهـا منبوشة محترقة ، فيا لهول ما حل بها ! لقد تجلببـت بالسواد سواء منها اديمهـا الاخضـر ، واغصانها الغضة الطرية .

وتطلعت الى الافق ، فاذا سحابة تسير مسرعـة باتجاهي نحو قمـم الجبال والشمس تاخذ في الاصفرار ، تريد الغروب .. وبعد ثوان اصبح كل شيء رماديا باهتا ، واحتجبت السماء عن ناظري ، وفجـأة انتشر الضبـاب وعزلني عن كل شيء ، فلم اشعر الا والثلج يتساقط علي .

انهمر الثلج بالرغم من الريح ، واكتست الارض العارية بثـوب الشتاء الناصع البياض ، وبرزت جراميز الاشجار . كان الثلج يغمر كل شيء ، حتى هياكل المدافع الضخمة ، وكانت الاتلام الطويلة في بساط الثلج الابيض ، اكثر ما يلفت النظر وهي ذاهبة في اتجاهها خلف خنادق الجنود !

شاهدت تساقط الثلـوج مرة اخرى ، في غير هذا المكان ، في قلـب المدينة ، كنت اجلس مع ضابط من اصدقائي ، اطل من نافذة بيت الدعارة ، وفجاة غمر الثلج كل شيء وادركت ، انا وصديقي الضابط ان كل شيء قد انتهى بالنسبة للسنة الحالية ، وان حدة الحرب ستخف قليلا .

وبينما نحن ساهمان في تأمل ما تفرضـه حبات الثلج الصغيرة هذه على الانسان سيد المخلوقات ، اذ ابصر صديقي الضـابط كاهن فرقتنا يخطو فوق الثلج ، ونبدا متيقظا . فاراد ان يستلفت انتباهه لوجودنا هنا ، في هذا المكان بالذات ، فمد عنقه خارج النافـذة ، حتى لمحه القس واتجـه بعينيه نحونا وابتسم . فاشار اليه صديقي ان يدخل ويشاركنا ما نحـن به ، ولكنه هـز رأسه وتابع مسيره .

وفي المساء ذاته ، بعد تناول وجبة « المعكرونة » المعتادة ، التي كان كل منا يلتهمها بنفس الشهية ، شرع القائد في دعاباته الساخرة ، مصوبا سهام لسانه الى القس الطيب القلب .

كان القس شابا ، شديد الحياء ، وكان يرتدي بزة عسكرية ، كلباسنا نحن رجال الفرقة الطبية ، يزينها فوق جيب سترته اليسرى صليب من المخمل الاحمر القاني .

طفق القائد يتحدث برطانة ايطالية ، الامر الذي جعلني ارتاب في صحة ما افهمه في حديثه ، في حين كنت حريصا جداً على فهم كل شيء ، وعلى ان لا تفوتني كلمة واحدة .

— ان كاهن اليوم صديق للفتيات . قال القائد متطلعا الي ، والى القس، الذي ابتسم وعلت الحمرة وجهه ،ثم هز رأسه علامة الرضى . وكان القائد كثيرا ما يداعبه بمثل هذه اللذعات . . وهكذا اردف :

— اليس كذلك ؟. ثم اشاح بوجهه عنه ، وغمز بعينه واردف من جديد:

— لقد رأيته اليوم بصحبة سرب من الفاتنات .

— لا ، صاح الكاهن سريعا بينما بـدا السرور على وجـوه الضبـاط الحاضرين .

— اتقول لا ؟ كاهن وبدون فتيات ! الكاهن ابدا لا يكون بدون فتيات .

ثم راح يشرح وجهة نظره هذه الي ، محملقا في وجهي ، دون ان تغفـل عينه عن مراقبة القس .

— كل ليلة لا بد ان يكون كاهن مقابل خمس نساء .

وما اتم عبارته هذه حتى انفجر جميع من في القاعة ضاحكين .

— هل فهمتم ؟ كاهن واحد مقابل خمسة . ثم اوما برأسه وتهته مسرورا .

وهنا تدخل الماجور في الحوار ،مؤيدا موقف القائد .

— ان قداسـة البابا يميل الى ان يربح النمساويون الحرب . . لانه يحب الامبراطور فرنسوا جوزيف . . وهذا بالضبط سر النقود الكثيرة بين ايديهم . انا رجل صريح . . ولا اعترف بالدين ولا برجاله .

— يظهر انك قرأت « الخنزير الاسود » علق النقيب ثم تابع :

— ان لم تكن قد قرأته فساهديك نسخة منه . لقد كان مضمونه اقوى ما هز ايماني بالدين وعقيدتي بـ . . فقاطعه القس غاضبا : انـه كتاب قذر شائن . انك لا تحبه من صميم قلبك .

— بلى ! انه قيم جدا ، يكفي انه ينبئك عن حقيقة الكهنة ولا شك انك ستعجب به وتقر آراءه .

وجه النقيب عبارته الاخيرة الـي ، بينما نظـرت انا في وجـه القس وابتسمت فرد علي بابتسامة مماثلة ، لمحتها على ضوء التنديل الخافـت ثم

اتبعها بقوله :
لا تقراه ، انه كتاب قذر !
ولكن النقيب اردف :
ـ ساجلبه لك على كل حال .
فعلق الملازم بصوت جهوري :
ـ كل رجال الفكر من الناس ملحدون .
وفي هذه اللحظة ، دخل الغرفة احد المجندين فاستطعت عند انفتاح الباب ان ارى استمرار سقوط الثلج بغزارة . فاغتنمت الفرصة ، محاولا ان اغير مجرى الحديث :
ـ لن تكون هناك هجمات هذه الايام ، فالثلوج تتراكم في كل مكان .
طبيعي ، بامكانك انتهاز الوقت والذهاب في مأذونيتك السنوية ، اذهب الى روما ، نابولي ، صقلية .
فقاطعه النقيب :
ـ عليك ايضا ان تزور امالفي ، وساحملك بطاقة توصية لعائلتي هناك، حيث ستجد عندهم ما يلذ لك ويطربك تماما كأحد ابنائهم .
ـ عليك ان تزور بالرمو .
ـ ينبغي ايضا ان تذهب الى كابري .
ـ اريدك ان ترى ابروزي وتزور عائلتي فيها . قال الكاهن ذلك ، ولكن اللفتنانت أسرع في الرد عليه :
ـ أراه يتحدث عن ابروزي ، انها اكثر ثلوجا من هنا هذه الأيام . انك لست قلقا بشأن مشاهدة القرى والقرويين . اذهب الى مراكز الثقافة ، الى المدن الكبرى .
ـ لا ، الافضل بالنسبة اليه ان يتبع الفاتنات . . . ساعطيك عناوين اماكنهن في نابولي ، صبايا رائعات ، وبصحبة امهاتهن ايضا .
قال اللفتنانت ذلك ونظر الى الكاهن ثم أردف صائحا : كل ليلة كهنة خمسة مقابل فتاة واحدة !
وانفجر الجميع ضاحكين ، بينما تابع اللفتنانت :
ـ ابدأ مأذونيتك حالا .
ـ ليتني استطيع مرافقتك لاطلعك على ما اعرفه من اسرار . فقال النقيب :
ـ عندما تعود اجلب لنا « فونوغرافا » .
ـ واسطوانات أوبرا رائعة .

ـــ وكاروسو .

ـــ لا ، لا نريده ، انه يزعق .

ـــ الا تتمنى ان لو كان باستطاعتك ان تزعق مثله .

وهنا قطع الكاهن على المحمسين في طلب الهدايا فرحة ابداء رغباتهم بقوله :

ـــ انصحك بالذهاب لابروزي . . فهناك صيد كثير واناس طيبون ، انك ستحبهم ، وتلقى منهم عطفا وكرما . . وبالرغم من انها منطقة باردة ، فالسماء هناك صافية دائما ، الهواء ليس رطبا ، وبالطبع ستحل ضيفا على عائلتي . . وتتعرف الى والدي الصياد الشهير .

وكان الكابتن اراد ان يختم الجلسة بلذعة اخرى من لذعاته فلم يكد القس ينهي عبارته حتى بادر قائلا :

ـــ هلم بنا ، الى صبايا الحانة ، قبل ان تغلق الابواب . فودعت الكاهن ونهضت .

. . .

عندما عدت الى الجبهة بعد انقضاء فترة المأذونية ، كنا لا نزال نقيم في كوريزيا ، البلدة الوادعة .

وفي طريقي اليها لاحظت ان عددا من المدافع الجديدة ، قد ركز في نقاط [illegible]مة وفي شتى الاتجاهات .

بيع قد ولى جزؤه الاصغر ، فاخضرت ال[illegible]

[illegible]

أسفل السرير ، ركزت حقيبتي الجلدية الكبيرة ، والى جانبها حذائي الشتوي .

كان الليوتنان رونالدي مستلقيـا على السريـر الاخر ، وحالما سمـع خطواتي عند مدخل الغرفة نهض واعتدل فوق سريره :

ـ مرحبا ؟ كيف كانت ايامك ؟

ـ فاخرة تماما .

ومد يده الي ، فصافحته بحرارة ، ولكنه ضمنـي الى صدره في عناق طويل واضعا يده حول عنقي ، متبعا ذلك بقبلة حارة ثم قال :

ـ يظهر ان جسدك قد اتسخ كثيرا ، ينبغي ان تستحم الان . اين كانت رحلتك ؟ ماذا فعلت ؟ اخبرني بكل شيء حالا !

ـ زرت كل مكان . . ميلانو ، فلورنس ، روما ، فيلا سان كوفاني ، مسينا ، تورمنيـا .

ـ اراك تتكلم كما لو كان امامك جدول اسماء .

ـ هل قمت باية مغامرة مدهشة ؟

ـ نعم .

ـ اين كان ذلك ؟

ـ في ميلانو ، وفرنزي ، وروما ، ونابولي .

ـ كفى ! ايتها كانت الاروع في نظرك .

ـ تلك التي في ميلانو .

ـ هل هي كذلك لانها الاولى ؟ اين قابلتها ؟ في البار ؟ ومن ثم اين ذهبتما كيف كنت تشعر ؟ بما احسست ؟ اخبرني بكل شيء ؟ بكل شيء ! حالا ! هل استمررتما طول الليل ؟

ـ نعم . .

ـ على كل حال ، اصبح هذا لااهمية له . . فعندنا اليوم فتيات جميلات ، فتيات حديثات العهد ، لم تعرف الجبهة مثيلات لهن من قبل .

ـ حسنا . .

ـ الا تصدقني ! سنذهب معا هذا المساء ، وساريك بأم عينيك . . وفي البلدة ايضا سرب من البريطانيات الحسان . . ولا اكتمك ، اني اليوم في حب جارف مع احداهن الانسة باركلي . . وساصطحبك لزيارتها ، من المحتمل ان اتزوج منها .

ـ حسنا ، ولا بد لي من الاستحمام اولا ثم تقديم التقرير . من في الخدمة الآن ، من رجال الفرقة ؟

ـ منذ غادرتنا وليس عندنا عمل نقوم به .. اللهم الا بعض حالات مرض اليرقان والتهاب الرئة . على اني سمعتهم يتحدثون عن هجوم جديد في الاسبوع القادم . هل تعتقد ان من الصواب زواجي بالانسة باركلي ؟ بعد الحرب طبعا .

ـ طبعا .. قلت ذلك ، وسكبت الدلو المملوء ماء

ـ هذه الليلة ستخبرني كل شيء ! والان سأعود الى النوم كي استيقظ نشيطا نضرا استعدادا للقاء الانسة باركلي .

نزعت معطفي وقميصي وتحممت بالماء البارد . وبينما انا منهمك بتدليك جسدي ، رحت اجيل النظر في الغرفة من حولي : في الامتعة المختلفة ، في رنالدي وهو نائم مطمئن وعيناه مغمضتان ، وشعره اشعث مبعثر : كان وسيم الطلعة ، له نفس عمري . وقد قدم من امالفي ، ورغب في ان يعمل نفس عملي ممرضا في الجيش وسرعان ما نشأت بيننا صداقة متينة . وفيما كنت اتأمل وجهه الهادىء فتح عينيه وسألني :

ـ هل معك نقود ؟ ـ نعم !

ـ اقرضني خمسين ليرا فقط .

نشفت يدي ، واخرجت حافظة نقودي من داخل معطفي المعلق على الجدار . تناول رنالدي الدراهم ، دون ان ينهض من سريره ، ثم دسها في جيب سرواله ، وابتسم قائلا :

ـ انك صديقي الاعز الطيب .. وكذلك فانت ملجأي عند ضيقي المادي .

ـ ليأخذك الشيطان الى الجحيم ، ايها الابله !

. . .

في امسية ذلك اليوم ، اثناء الطعام ، جلست الى جوار القس كانت علامات اليأس بادية على محياه ، وعندما علم بانني لم اذهب الى ابروزي تأثر كثيرا وظهر عليه الاسى .

كان قد كتب لوالده ينبئه بقدومي ، واستعد القوم لاستقبالي وقد بادلته نفس الشعور بالمرارة الذي انتابه ، بالاضافة الى انني لم استطع تبيان السبب الجلي الذي من اجله لم الب دعوته البريئة . فتذرعت بالقول انني كنت راغبا في الذهاب الى هناك ، غير ان ملابسات الحوادث التي واجهتني ، واختلال البرنامج الذي وضعته لايام عطلتي وحدوث ما لم اكن اتوقعه ، كل ذلك جعلني عاجزا عن تلبية دعوته ، واخيرا ظهر عليه انه اقتنع بمزاعمي ، وقد تم كل شيء على الشكل الذي اردته اثناء دفاعي المختلق ، كنت اسرف في احتساء الشراب ، ومع ذلك فقد اوضحت له وانا مخمور وجهة نظري في ان كثيرا من

الاشياء التي تنوي تنفيذها ، لا تتم وقد لا تتم ابدا .

وبينما كنا في هذا الحديث ، كان الحاضرون في جدل آخر . والحقيقة اني كنت راغبا في زيارة ابروزي ، ولكني لم اذهب الى اي من الاماكن التي اشتد فيها البرد وتجمد الماء ، ولاسيما مناطق الريف حيث الارض يكسوها الثلج ، وحيث الفلاحون السذج يخلعون قبعاتهم عند رؤيتك ويدعونك بلقب اللورد ، وحيث ايضا يوجد الصيد الكثير .

لم اذهب الى اي من تلك الاماكن ، ولكني يممت وجهي شطر المقاهي حيث تعقد سحب الدخان ، شطر الليالي الصاخبة ، شطر الغرف الدافئة ، هناك حيث تذوب في وسط الدوامة ، ويدور بك راسك ، ويزيغ بصرك، وتشعر كان كل شيء حولك يطن ويدوي ، وتتحسس الجدار ، تريد ان تتكيء بجسدك عليه ، تريد ان يهدأ روعك .

هناك ، شطر ليالي السرير الوثير ، والنبيذ المعتق ، وحيث يدرك المرء ان كل ما يتمناه ويحلم به ، طوع بنانه ، وفي مقدوره .

هناك حيث تفاجأ بمشاهد . حيث ترى في الصباح وانت تفتح عينيك ، جسدا غريبا الى جانبك ، قد نسيت ليلته معك . وتحس في ظلام الغرفة بأن الدنيا كلها زائفة ، وبأنها كذلك مثيرة ، وانه ينبغي عليك التظاهر بعدم الاكتراث بكل ما حدث ، وتجاهل متع كل الساعات الفائتة .

وتمضي عليك دقائق مزعجة ، وعلى حين غرة ، تجد نفسك مساقا الى الاهتمام من جديد ، فاللهفة الى التمدد ثانية والاغفاءة ايضا ، ومن ثم الى يقظة اخرى الى تأمل عميق بكل ما حدث ، الى مواجهة كل شيء على حقيقته ، مهما كان صريحا .. مؤلما .. حادا . واحيانا الى خوض مساومة عنيفة حول الثمن .

وفي رغبة وشوق ، تنطلق الى الخارج ، الى هواء الحرية النقي ، وفي نفسك طمانينة ، وفي جسدك نشوة ، وكلك قناعة بأن كأسك قد فرغت ، وان حظك قد استوفي ، ولكنك سرعان ما تعاود الكرة .. ليلة اخرى ، وفراش آخر ، وكأس مترعة .

واستطردت في حديثي ، محاولا ان ابلغ القمة في رسم لوحة الليالي الزاهية ، جاهدا في ان ادعم رايي بافضلية الليل على النهار وفي سحرة وطمانينته ، ولم اكن في كل ما مضى من حياتي ، قد فشلت في اثبات ذلك كما فشلت الآن ، بعد هذه المقدمات المسهبة .

ولكني قلت لجليسي ، لو اتفق لك ان عشت تلك الليالي التي عشتها ، ولو لمرة واحدة لاقتنعت فورا بوجهة نظري .

وعلى كل حال فان جليسي الكاهن لم يستشعر التعقل والحكمة في كل ما ذهبت اليه ، انما استطعت أن اتبين من تقاسيم وجهه ، انه ادرك صدق نيتي فيزيارة ابروزي .. وانه بالرغم من خيبتي في الذهاب .. ما زلنا صديقين نلتقي في كثير من الآراء ، رغم ما بيننا من فروق . كان هو يعرف الكثير مما لا اعرف . الكثير ، ولو عرفته لكنت على استعداد دائما لنسيانه .

وعندما انتهيت من حديثي ، كان وقت الطعام قد مضى ، ولكن الآخرين ما زالوا في جدالهم الصاخب ، وفجأة نظر الكابتن نحونا وصاح :

ـ الكاهن ليس مسرورا .. الكاهن لن يكون مسرورا بدون فتيات !

ـ لا انني مسرور .

ـ انك لا تقول الحقيقة .. انك تريد لو يربح النمساويون الحرب .

قال الكابتن ذلك وصمت ، وحذا حذوه جميع الحاضرين منتظرين صدى الاتهام في نفس الكاهن .

ولكن الكاهن اكتفى بهز راسه قائلا :

ـ لا ، اذا كان هناك قتال ، فانا اعتقد انه من واجبنا الهجوم .

ـ واجبنا ! اذا سوف نهاجم .

فاطرق الكاهن راسه ، وهناك قال اللفتنانت :

ـ دع القس وشانه .. كل شيء يسير على ما يرام .

فوافق القائد على كلامه واردف :

ـ ليس بمقدوره عمل شيء ما .

ونهض الجميع .. وغادرنا غرفة الطعام .

استيقظت هذا الصباح على صوت المدافع يدوي في الحديقة القريبة . كانت الشمس مرسلة اشعتها الدافئــة عبر النوافذ ، فنهضت من سريري واتكأت على حديد الفتحة المقابلة متطلعا الى الخارج . كانت الارض المفروشة بالحصى مبللة ، والعشب على جوانبها رطبا ترصعه قطرات الندى ، وفجاة دوى انفجار قنبلة ، ثم ثانية ، واندفع عبر الفتحة هواء ساخن كالعاصفة العاتية . هز حديد النافذة ، واختلــج في اطراف قميصي . لم استطع رؤية المدافع ، ولكن كان من الواضح انها تقذف نيرانها من فوقنا مباشرة ولم يكن لنا عزاء الا انها ليست من النوع الكبير ، الكبير جدا !

وبينما كنت اسرح نظري في الحديقة . سمعت سيارة شحن تهدر فوق الطريق ، فارتديت ملابسي وهرولت هابطا السلم ، فتناولت فنجان قهوة من على منضدة في المطبخ وخرجت قاصدا مستودع السيارات .

تحت سقيفة المستودع اصطفت عشر سيارات ، جنبا الى جنب مكدسة بالاحمال حتى اعلاها . بينما وقفت تجاهها سيـــارة اسعاف رمادية اللون ، مصنوعة على شكل عربات الحمولة المتحركة ، وفي وسط الساحة كان العمال الفنيون منهمكين في اصلاح سيارة اسعاف ثانية اما الثلاث الاخريات فكانت في مراكز الحرس عند منعطفات الجبال . وخطر لي ان استوضح الامر من احد العمال ، فسألته :

ــ هل اتفق لهم ان رموا تلك البطارية بقنابلهم ؟

ــ لا يا حضرة الليوتنان . . انها منيعة ، تحميها تلك التلة الصغيرة التي امامها .

ــ وكيف تسير الامور الآن ؟

ــ ليست رديئة جدا ، هذه السيارة ليست على ما يرام ، ولكن بوسع الاخريات ان تتحرك ، ثم توقف عن العمل والتفت الي :

ــ هل كنت في مأذونيتك ؟

ــ نعم . فمسح يديه بقميصه واصر على اسنانه .

ــ لقد نعمت بساعات حافلة اذا !

ــ نعم حافلة ! ولكن اين موضع الخلل في هذه السيارة ؟

ــ لم تعد صالحة للاستعمال . . آلة بعــد آلة تتعطل وتنقطع عــن

الحركة .

ـ واية آلة هذه المرة ؟

ـ المحركات !

تركت الفنيين يتابعون عملهم ، واتجهت الى تحت السقيفة اتفحص السيارات المصطفة . كانت كلها حديثة التنظيف مع ان بعضها يعلوه شيء قليل من غبار الطرق . تطلعت الى عجلاتها بامعان ، باحثا عن اية اصابة خفية فيها فلم اجد لقد كانت جميعها بحالة جيدة ، وكان واضحا ان تفقدي اياها وعدمه سواء ، ولكن غروري صور لي ، ان حالة السيارات ونقل الجرحى من مراكز الاسعاف الامامية الى المراكز الخلفية ، ومن ثم توزيعهم كل الى المستشفى المقرر له . . ان كل ذلك منوط بي شخصيا والى حد كبير ، والواقع ان شخصي لم يكن له تأثير ما في اي من هذه الامور .

وعند عودتي من جولة التفتيش تلك ، سألت رئيس الفنيين :

ـ هل هناك اية آلات اخرى يمكن أن تعوقنا اثناء العمليات ؟

ـ لا ، حضرة الليوتنان .

ـ اين خزان البنزين ؟

ـ ما زال في مكانه السابق .

ـ حسنا ، قلت ذلك ورجعت الى المركز ، وهناك احتسيت فنجانا آخر من القهوة ، ومن النافذة رحت اتأمل الصباح الربيعي الفاتن . وكان هناك بداية احساس قريب بجفاف النهار القادم وحرارة شمسه الساطعة .

في ذلك اليوم زرت معظم المراكز الصحية في الجبل ، وقفلت راجعا الى غرفتي في البلدة ، بعد ان اتضح لي ان معظم الامور سارت بشكل افضل خلال الايام القليلة التي قضيتها بعيدا عن الجبهة . كما تناهى الى سمعي ان هجوما عاما سيبدأ في القريب العاجل .

كانت الفرقة التي نعمل في خدمتها ، ستنطلق في هجومها عند منابع النهر ، وطلب الى اللفتنانت تفقد جميع المراكز الطبية خلال العمليات الحربية . وكان مقررا ان ينطلق جنودنا عبر النهر فوق الجسر الضيق ، ومن ثم ينتشرون على جوانب التلال . وقد جعلت محطات السيارات اقرب ما تكون الى ضفة النهر ، وغطيت بحيث يصعب تمييزها . . وكان جليا انها ستستخدم من قبل جنود المشاة ، اما نحن رجال الفرقة الطبية فكان مفروضا علينا الاعتماد على انفسنا فقط .

لما بلغت البيت ، كنت مغبر الوجه ، معفر الثياب ، فصعدت الى غرفتي لاستحم ، وعلى السرير رأيت رينالدي مستلقيا ، وفي يده نسخة من كتاب

« هوج » في القواعد الانجليزية . كان مرتديا ثيابه ، وشعره مصفف بعناية ظاهرة ، وفي قدميه يلتمع حذاؤه الاسود .

ــ فرصة نادرة . صاح عندما لمحني .. سترافقني لزيارة الانسة باركلي .

ــ لا ..

ــ بلى ستأتي وتساعدني في التأثير عليها .

ــ حسنا ، انتظر ريثما افرغ من تهيئة نفسي .

ــ غسل فقط ، وهلم كما انت .

ورايت ان اساير رغبته فقبلت . سرحت شعري وانطلقت بصحبته قاصدين مقرها .

كانت الحرارة ما زالت مرتفعة ولكن الشمس قاربت الغروب ، والجو يبشر بامسية ممتعة .

كان المستشفى البريطاني عبارة عن بناية فخمة ، انشاهـا الالمان قبيل الحرب . عند اقترابنا منه ، لمحنا الانسة باركلي في الحديقة ، وبصحبتها ممرضة اخرى ، ومن خلال الاشجار ، ظهرتا لنا بملابس التمريض الرسمية ، فاتجهنا راسا اليهما ، وحياهما رينالدي بحرارة ، بينما مددت يدي بشكل اعتيادي ظاهر .

ــ كيف حالك ؟ بادرتني الانسة باركلي .

ــ انت لست ايطاليا ؟ اليس كذلك ؟

ــ لا ، ابدا ..

كان رينالدي يتحدث مع الممرضة الاخرى ، وكانا في هذه الاثناء يضحكان بينما تابعت الانسة باركلي :

ــ انه لامر غريب جدا ان يكون المرء في عداد الجيش الايطالي !

ــ الواقع اني لست جنديا ، انما اعمل في فرقة الاسعاف .

ــ ومع ذلك فهذا ايضا امر غريب شاذ ! كيف اقدمت على ذلك ؟

ــ لا اعرف ، قد لا يجد المرء تبريرا لكل شيء يحدث معه .

ــ آه ، احقا ما تقول ؟ كنت دائما من القائلين بوجود مسببات لكل ما يحدث ، لقد نشأت على هذا الاعتقاد .

ــ ذلك جميل للغاية .

ــ هل سنستمر في الحديث على هذه الوتيرة ؟

ــ لا ، كما ترغبين .

ــ عندك فرصة ؟ اليس كذلك ؟

ـــ ما هذه العصا ؟

كانت الانسة باركلي ذات قامة طويلة جدا ، وكانت ترتدي مــا ظننته للوهلة الاولى بزة العمل الرسمية ، اما شعرها فكان اشقر جذابا ، بينما تميل بشرتها الى السمرة الخفيفة ، وفي وجهها تشرق عينان صغيرتان . وقد تخيلت انها جميلة جدا ، وانها في الواقع لفاتنة .

كانت تحمل في يدها عصا مغلفة بالجلد ، ولما سألتها عنها قالت :

ـــ انها ذكرى شاب قتل في مجزرة السوم الماضية .

ـــ انني جدا متأسف لذلك .

ـــ لقد كان شابا لطيفا ، كان ينوي الزواج مني ولكنه قتل على ضفاف السوم .

ـــ آه ، لقد كانت معركة رهيبة !

ـــ هل حضرتها ؟

ـــ لا ، لقد حدثوني عنها ، لم يقع مثيل لها ابدا .. وبعد دفنه بعثوا الي بالعصا ، كانت تلك والدته التي ارسلتها .

ـــ هل طالت فترة خطوبتك ؟

ـــ ثماني سنوات ، لقد نشأنا معا .

ـــ ولماذا لم تتزوجينه اذا ؟

ـــ لست ادري ! كنت غبية ، لقد اضعت الفرصة ، كان بامكاني ان أتدبر الامر على اي حال ، ولكني اعتقدت انه من الخير له ان لا ينسحب .

ـــ هل حدث لك ان احببت يوما ؟

ـــ عرفت ما تقصدين .

ـــ لا ..

وجلسنا على احد المقاعد واخذت انظر اليها ثم قلت :

ـــ انك تملكين شعرا جذابا .

ـــ هل احببته ؟ ـــ جدا ..

ـــ كنت سأقصه من آخره يوم مقتله .

ـــ لا ، عن آخره .

ـــ نعم ، كنت اريد ان اعمل شيئا ما من اجله في سبيل ذكراه .. لم اعد ابالي بكل ما املك ، وقد كان بامكانه ان ينعم بها .. جميعها . كان بامكانه ان يمتلك ما يريد ساعة يشاء . كان يجب ان اتزوجه ، ان افعل اي شيء آخر ولكن آه ، الآن ادركت فوات الفرصة .

لم احاول مقاطعة حديثها ، بل تركتها تهيم في ذكرياتها الساذجة .

ـ لم اكن اعرف ما يجب فعله . كنت اعتقد ان تخلفه سيسيء اليه ، وانه لا يستطيع المقاومة ، وهكذا كانت النتيجة . لقد قضى اخيرا وفاتتني الفرصة !

ـ لم اسمع عبارتك الاخيرة .

ـ آه نعم ، تلك كانت النتيجة .

ونظرنا الى رينالدي ، كان ما زال في حديثه مع الممرضة الاخرى . فسألت جليستي :

ـ ما اسم الزميلة ؟

ـ فيركوسن ، هلين فوركوسن ، صديقك طبيب اليس كذلك !

ـ نعم وانسان طيب أيضا .

ـ حقا ، وانه من النادر ان يلتقي المرء باناس طيبين في هذا الجزء القريب من الجبهة .. اليس كذلك ؟

ـ تماما .

ـ انها جبهة مفزعة ، ولكنها مسلية في آن واحد . هل ستقوم بهجوم عاجل .

ـ نعم .

ـ اذا ستتراكم الاعمال غدا . بينما هي نادرة هذه الايام !

ـ هل مضى عليك زمن طويل في هذه المهنة ؟

ـ منذ بلغت الخامسة عشرة ، في ذلك الوقت سافر هو الى الجبهة وراودتني فكرة تافهة ، ان اكون ممرضة في المستشفى التي سيحملونه اليها يوما ، جريحا كما تخيلته ، والاربطة حول راسه ، صورة خيالية كما ترى .

ـ ولكنك الآن في الصورة الحقيقية !

ـ حقا ، ان الناس لا يستطيعون تصور ما هي عليه الحالة في فرنسا ، ولو ادركوا ذلك ، لما رغب واحد في الحياة هنا . آه لم يكن جريحا ، بل مزقته القنابل اربا اربا .

ومرة ثانية تركتها تسترسل في ذكرياتها .

ـ هل تعتقد ان الحرب ستستمر طويلا ؟

ـ لا ..

ـ وما الذي يمكن ان يضع حدا لويلاتها ؟

ـ لا بد ان تنهار الجبهة في مكان ما .

ـ لا بد ان ان تنهار هنا ! في هذا الجزء ! في فرنسا ! فانهم لن يستطيعوا المضي في الحرب . واحداث امثال مجازر السوم ، دون انهيار مريع .

ـ لن تنهار الجبهة هنا !
ـ الا تعتقد ذلك ؟
ـ لا ، فقد تأهبوا جيدا في الصيف الماضي .
ـ ومع ذلك ، يمكن أن ينهزموا ، كل انسان يمكن ان ينهزم .
ـ والالمان ايضا ؟
ـ لا ، لا اعتقد ذلك .
ثم سرنا باتجاه رينالدي والانسة فيركوسن ، وسمعته بالانجليزية :
ـ انت تحبين ايطاليا ؟
ـ جدا . فهز راسه قائلا انه لم يفهم جوابها .
وعندئذ ترجمت له عبارتها ، فهز راسه ثانية وأردف :
ـ هذا ليس حسنا منك ، وانجلترا الا تحبينها ؟
ـ ليس كثيرا ، فانا اسكتلندية ، هل فهمت ؟
فنظر رينالدي الي يريد سماع الترجمة .
ـ انها اسكتلندية ، ولذلك تحب بلدها اكثر من انجلترا .
ـ ولكن اسكتلندا هي انجلترا !
وعندما ترجمت ذلك للآنسة فيركوسن قالت :
ـ ليس صحيحا أبدا ، نحن لا نحب الانجليز .
ـ لا تحبون الانجليز ؟ لا تحبين الانسة باركلي ؟
ـ الامر يختلف ! ومع ذلك فهي اسكتلندية من جهة امها ، يجب أن لا تفسر الالفاظ بحرفيتها .
بعد فترة قصيرة ، ودعنا الفتاتين وانصرفنا ، وفي طريقنا الى البيت ، قال رينالدي :
ـ الانسة باركلي تؤثرك علي ، ذلك أمر واضح على أن الاسكتلندية الصغيرة ناعمة جدا .
ـ جدا ! الم تلاحظ ذلك ، هل احببتها ؟
ـ لا ..

في المساء التالي ، ذهبت لزيارة الانسة باركلي ، لم تكن هذه المرة في حديقة المستشفى ، ولذلك اقتربت من باب البناية الجانبي ، حيث تقف سيارات الاسعاف . وهناك قابلت رئيسة المرضات التي اجابتني :

ــ ان الانسة باركلي في العمل الان ، المعارك بدات ، الا تعرف ؟

ــ اعرف ذلك .

ــ هل انت الاميركي المتطوع في الجيش الايطالي ؟

ــ نعم .

ــ ما الذي دفعك الى ذلك ؟ لماذا لم تلتحق بجيشنا ؟

ــ لست ادري ولكني مستعد للالتحاق الان !

ــ لا اعتقد انه بامكانك ان تفعل . ولكن اخبرني لماذا تطوعت في الجيش الايطالي ؟

ــ لقد كنت في ايطاليا ، كما انني اجيد الايطالية .

ــ ها انني اتعلمها هذه الايام ، انها لغة عذبة ناعمة .

ــ يقول البعض انه يمكن الالمام بها خلال اسبوعين فقط !

ــ لا ، انا لم استطع ذلك ، مضى علي شهر وانا ادرسها جيدا . يمكنك القدوم الساعة السابعة لرؤية الانسة باركلي . اذا كنت ترغب في ذلك فعندها تكون قد فرغت من عملها ، ولكن انتبه ، لا تصطحب معك احدا من الايطاليين .

ــ حتى ولا من اجل البزات الجميلات .

ــ عمي مساء .

ــ الى اللقاء ايها الليوتنان ، قالتها بالايطالية .

ــ الى اللقاء .

حييتها وانصرفت . كان من العسير ان تحيي اجنبيا بلغة الايطالي ، دون ان تضيق بذلك ؛ كان التحية بالايطالية لا تصلح للتصدير .

●

كان النهار حارا ، وصعدت نحو منابع النهر ، عند رأس الجسر في بلافا: النقطة التي كان مقررا انطلاق الهجوم منها . لم يكــن ممكنا ان يتم ذلك في

العام الفائت ، لوجود طريق واحدة وضيقة ، توصل الجسر المصنــوع من القوارب وقد كانت في معظم الاوقات ، تحت رحمة قنابل العدو ، الامر الذي جعل استخدامها محفوفا بالمخاطر .

سرت بمحاذاة الطريق المذكورة باتجاه النهر ، تاركا السيارة في المركز الطبي عند سفح التلة ، ثم عبرت جسر القوارب الذي كان محميا بكتف الجبل ، ورحت انتقل بين خنادق الجنود ، المحفورة في اطـــلال قرية مدمرة . كانوا جميعا قابعين في خنادقهم وقد وزعت هنا وهناك صواريخ النجدة ، معــدة للانطلاق عند الحاجة وعند انقطاع اسلاك الهــاتف .

كان كل شيء ساكنا حارا ، وتطلعت الى ما وراء الاسلاك الشائكة ، الى خطوط النمساويين ، فلم المح احدا ، ولم يقع بصري على مخلوق ما .

لم يطل مكوثي بين الخنادق، اذ قفلت راجعا بعد ان شاركني احد الضباط الذين اعرفهم كاسا من الشراب المنعش ، ادرت بعدها ظهري الى بقاع الموت والانتحار الاختياريين ، وعندما قطعت الجسر ، سلكت طريقا واسعة تصعد متعرجة في الجبل . واتضح لي ان موعد الهجوم يتوقف على انتهاء العمل في الطريق المذكورة ، ولذلك كان كل شيء يجري بسرعة واندفاع شديدين ، وفي طرف الطريق الآخر ، وجدت مكانا لسيارات الاسعاف يمكن ان تلجأ اليه في انتظار وصول الجرحى محمولين على اكتاف المرضين المتطوعين ، من ضفة النهر الاخرى ، عبر جسر القوارب .

كان بودي قيادة السيارة فوق الطريق الجديدة ، ولكنها لم تكن قد انتهت بعد ، ولذلك درجت على الطريق الضيقة قاصدا البلدة .

وقبل مدخل المدينة بمســافة قصيرة ، اشــار الي اثنان من البوليس الحربي الايطالي بالتوقف : كانت قد انفجرت قنبلة على بعد امتار قليلة من النقطــة التي انا فيها ، وحينما صمت محرك السيارة ، انفجرت قنبلتان ثانيتان سبقهما عاصف من الهواء اللافح ، تبعه وميض يخطف الابصار . واخيرا سحابة من الدخان الابيض الكثيف .

وبعد دقائق اشــار الشرطيان بالتحرك ، فقدت السيارة ، متجنبا حفر الطريق الظاهرة ، واحســست ان انفي يعبق برائحة البارود الممزوجة برائحة الارض وفتات الصوان المتناثرة ، واخيرا وصلت الى مقري .

لم اكد انتهــي من تناول الغــداء ، حتى نهضــت قاصدا المستشفــى البريطــاني :

كان في الحقيقة بناء فخما ، تكتنفه من كل الجهات اشجار بديعــة ، حسنة التنسيق .

وعلى مقعد بين تلك الاشجار ، رايت الآنسة باركلي ، تجلس وبصحبتها الآنسة فيركوسن . وحالما تأكـدا من شخص القادم نحوهمـا ، بدا عليهما السرور كمن ينتظر قدوم شخص عزيز .

لم يمض على وصولي بضع دقائق حتى نهضت الآنسة فيركوسن ، مدعية بلباقة انها مضطرة الى تركنـا .

وقدمت مقدمة قصيرة قالت :

ـ ساترككما وحدكما ايها الصديقان ، فبدوني تستطيعان قطع شوط لا بأس به .

ـ لا تذهبي يا هلين ، اجابتها باركلي .

ـ لا ، اني افضل ذلك ، عندي بعض الرسائل لا بد من الرد عليها هذا المسـاء .

وعندئذ رايت ان اتدخل ، فقلت لهـا :

ـ الى اللقاء اذا .

ـ الى اللقاء يا سيدي هنري .

ـ لا تكتبي اي شيء يمكن أن يضايق مراقب البريد .

ـ اطمئني لذلك ، لن اكتب الا عن جمال المكان الذي نعيش فيه ، وعن شجاعة الايطاليين ايضا .

ـ ذاك موضوع ستبدعين فيه .

ـ حقا ، سوف يكون رائعا .

ـ عمي مساء يا كاترين .

ـ ولكني اريد رؤيتك قليلا .

وعندما ابتعدت الآنسة فيركوسن بادرت جليستي :

ـ ارايت كم هي مهذبة ، وذكية طبعا .

ـ انها لطيفة جدا ، انها ممرضة .

ـ وانت ، السـت ممرضة ؟

ـ لا ، انا من فرقة .V. A. D الفرقة التـي تقوم باشق الاعمال ، ورغم ذلك لا يثق بها احد .

ـ ولم لا ؟

ـ انهم لا يفعلون ذلك يوم لا يكونون بحاجة لجهودنا ، ولكن عند تراكم الاعمال يتبارون في منحنا ثقتهم .

ـ ماذا تقصدين بذلك ؟

ـ الممرضة كالطبيب ويحتاج المرء الى وقت طويل ليصبح في عداد الفرقة .

ـ ها ، لقد فهمت .

ـ الايطاليون لا يقرون وجود النساء على مقربة من الجبهة ولذلك فنحن هنا تحت رقابة شديدة ، ولا نستطيع الخروج .

ـ لا بأس فانا استطيع القدوم !

ـ لسنا كالسجينات على كل حال !

ـ دعينا من حرب الجبهة .

ـ اظن ذلك صعبا للغاية .

ـ لنهرب مهما كان الثمن .

ـ حسنـــا .

وتطلع كل منا في عيني الآخر ، وتبادلنا النظرات في الظلام ، وفي الظلام تخيلتها جميلة جدا ، فاخذت يدها بين يدي وتركتني افعل ذلك ، وعنـــدئذ طوقتها بذراعي ، ولكنها صاحت : ــ لا ..

الا انني لم اتراجع قائلا : ولم لا ؟

ـ لا .

ـ بلى ارجوك .

وملت نحوها اريد انتزاع قبلة من وجنتيها ولكن وميضا لاسعا اوقفني. لقد صفعت وجهي بقوة ، فلطمت يدها عيني وانفي ، فسالت دموعي من وقع الصدمة .

ـ آسفة ، شعرت ان لي دالة كبيرة عليك .

ـ انك على صواب .

ـ انني متأسفة للغاية ، لم استطع التحرر من واجبات مهنة التمريض، لم اقصد ايذاءك ، ولكني فعلت أليس كذلك ؟

كانت تنظر الي في الظلمة ، كنت متوتر الاعصاب هائجا ، ولكني واثق من السيطرة على تصرفاتي ، مقدرا كل ما وقع ، وما سيقع ، تماما كلاعـــب الشطرنج الماهر ، ولذلك اجبتها :

ـ لقد فعلت ما يمليه الصواب ، لست مغتاظا ابدا !

ـ انك رجل طيب القلب .

ـ كما ستعرفين فيما بعد ، عشت حياة مرحة جدا ، ولم يتفق لي ابدا ان تحدثت مع انجليزي ، وانت بالاضافة الى كل هذا جميلة جدا .

ـ ليس من داع لهذه التبريرات ، كل ما اريد قوله اني متأسفة جدا ، لقد شططنا في الحديث بعيدا .

ـ اجل ، لقد ابتعدنا عن الحرب .

وانفجرت ضاحكة ، كانت المرة الاولى التي اسمع فيها ضحكتها ، وتاملت وجهها ..

ــ انك جذاب خفيف الروح .

ــ لا ، لست كذلك .

ــ بلى ، نادرا ما يوجد امثالك ، سأكون سعيدة اذا ما سمحت بتقبيلك .

فحملقت في عينيها ، واحطتها بذراعي تماما كما فعلت في المرة الاولى، ثم قبلتها ، ولكنها كانت قبلة هائلة . وحاولت ان التهم شفتيها ، ولكنها كانت قد احكمت التحامهما ، فلم اتراجع ولكن بثورة اعنف ، وفجأة اهتزت بين يدي ، اهتز جسدها وخفق قلبها حتى سمعت ضرباته . وانفرجت شفتاها ثم استرخت ملقية بعنقها على ذراعي ، واخذت تشهق في بكاء حار مكبوت :

ــ يا عزيزي آه .. ستكون مخلصا لي هل تكون ؟

فقلت في نفسي : يا للجحيم ! وداعبت شعرها باصابع يدي الاخرى ، ثم ربت على كتفيها مواسيا ولكنها استمرت تبكي :

ــ هل تكون كذلك ؟ قل لي ؟ الن تكون ؟

ورفعت بصرها نحوي :

ــ لان حياتنا معا ستكون فريدة رائعة .

ومرت دقائق اخرى ، نهضنا بعدها وسرت انا بجانبها قاصدين مدخل المستشفى ، وعندما اختفت في جوفه عدت وحيدا الى غرفتي .

كان رينالدي مستلقيا في سريره ، فلم اكد اضع قدمي على عتبة الغرفة حتى فاجأني :

ــ وهكذا قطعت شوطا طويلا معها !

ــ انها مجرد صداقة بريئة .

ــ انت كالكلب في الايام الحارة .

ــ لم افهم مقصدك .

فاوضح لي رايه ، ولكني اجبته فورا :

ــ اما انت فكالكلب الذي ..

ــ يكفي ! بعد قليل سيشتم احدنا الآخر ، وقهقه قائلا :

ــ عم مساء ، قلت له :

ــ عم مساء ايها الكلب الصغير .

القيت بوسادتي الصغيرة على مصباحه ، وانطرحت على السرير نائما .. ولكنه التقط القنديل واعاده مكانه وتابع القراءة .

بقيت يومين بعيدا عن البلدة في جولة على المراكز الطبية ، وعند عودتي في اليوم الثاني كانت الشمس قد غابت منذ وقت بعيد ، فلم استطع رؤية الآنسة باركلي حتى المساء التالي .

لم تكن في الحديقة ، فاضطررت لانتظارها في قاعة المستشفى حتى تفرغ من عملها ، وفي القاعة كانت هنالك « تماثيل نصفية » لجسم الانسان مصنوعة من الرخام ، موزعة بشكل يجذب الانتباه واكثر ما لفت نظري فيها هو تشابهها حتى لتكاد تكون في مجموعها صورة واحدة لتمثال واحد .

ان فن النحت في رايي ما زال عملا تقليديا ، عملا جامدا لا ابداع فيه . على خلاف فن التعدين المتطور ، فبامكان المرء ان يجد في تماثيل البرونز شيئا جديدا معبرا ، بينما تلك الرخامية اقرب ما تكون الى شواهد مقبرة مترفة ، مع ان هناك في الدنيا مقبرة واحدة رائعة ، تلك الكائنة في مدينة بيزا .

ظللت جالسا على الكرسي منتظرا ، وقبعتي في يدي .

كان من المفروض علينا ونحن في كوريزيا ، ارتداء الخوذ الفولاذية . وكان هذا شيئا ثقيلا ، في بلد لم يهجره الا قليل من مواطنيه المدنيين . وكنا كذلك مجبرين دائما ، على حمل مسدسات من النوع الانكليزي الصغير ، ولقد حاولت مرارا النجاح في استعمال مسدسي . ولكني كنت دائما احصد الخيبة وفي نفسي كل احاسيس الهزء من فكرة صيروتي يوما ما ، محاربا ناجحا .

وبينما كنت اتامل تماثيل الرخام امامي ، كان احد الضباط الانكليز يحدجني بنظرات شذراء من مقعد تجاهي ، ولم استطع فهم هذه النظرات المستنكرة لضيافتي في ماوى الجرحى .

واخيرا اطل وجه كاترين باركلي ، وهي تهبط السلم الى القاعة ، فوقفت استعدادا لتحيتها . كانت تبدو جذابة فاتنة ، وهي تسير مهرولة نحوي . بينما قامتها الطويلة لم تكن لتظهر على حقيقتها :

ـ عم مساء يا حضرة القائد .

ـ كيف حالك ؟

ـ هل نجلس هنا ام تفضل الخروج الى الحديقة ؟

ـ دعينا نخرج ، فهواء الحديقة منعش جدا .

وسرت خلفها وهي تقطع ممر الحصى نحو الحديقة . كان الضابط

يراقبنا باهتمام ظاهر ، وعندما ضمتنا اول شجرة تحت اغصانهـا بادرتنـي كاترين :

ــ اين كنت طيلة اليومين الماضيين ؟

ــ في جولة بين المراكز الامامية .

ــ الم يكن بمقدورك اعلامي بذلك ولو بمذكرة صغيرة ؟

ــ حسبت اني ساعود سريعا .

ــ على كل حال كان ينبغي ان تعلمني بذلك يا عزيزي .

ولكني بدلا من الرد عليها ، اخذت يديها وقبلتهما بشغف ولهفة .

ــ اليس هناك مكان يمكننا الانزواء فيه ؟

ــ لا ، سنبقى ضمن الحديقة فقط ، لقد طالت غيبتك كثيرا .

ــ ولكني الآن حاضر هنا .

فنظرت الي ثم قالت :

ــ ولكنك تحبني . اليس كذلك ؟

ــ (وكذبت عليها) نعم ، اني احبك (ولم اكن قد تفوهت بهذه العبارة امامها قبلا) .

ــ وتدعوني كاترين ؟ كاترين هكذا ؟

ــ نعم ، كاترين .

وسرنا في احد الممرات ثم وقفنا تحت شجرة متشعبة الاغصان ، فشدت على يدي هامسة :

ــ قل قد عدت لكاترين في ظلام الليل .

ــ قد عدت لكاترين في ظلام الليل .

ــ آه يا عزيزي ، لقد عدت الي ، الم تعد ؟

ــ نعـم .

ــ اني احبك كثيرا ، لقد كانت غيبتك مؤلمة مريرة ، لن تغيب بعد اليوم .

ــ لا سوف اعود اليك دائما .

ــ آه اني احبك كثيرا .. ارجوك للمرة الثانية ، ضع يدك في نفس المكـان .

واخذتها بين يدي ، كانت في متناولهما قريبة ، قريبـة جدا . وحولت وجهها الى وجهي ، كي اتأمل خلجات ثناياه ، ونحن في غمرة النشوة ، واغمضت عينيها ، نقبلتكلتا العينين المغمضتين وخيل الي انها سكرى ، في غيبـوبة طويلة . كان ذلك كل ما احلم به واتمناه ، ولم اعد ابالي بما يمكن أن تقودني اليه عواطفي المجنونة ، فهذا على كل حال افضل الف مرة ، من الذهاب الى بيت الدعارة ، الخاص بالضباط امثالي ، حيث تضمرك بانمات اللذة بقبلهن

الزائفـــة .

كنت اعرف اني اكذب على الآنسـة باركلي واخدعها ، واني لم اكن احبها ابدا . وحتى لم يكن هناك اي امل في الوقوع بحبها .. كل ما قمت به ومـــا يمكن ان اقوم به ، ليس الا تمثيلية زائفة .

ــ ليتنا نستطيع الاختلاء في مكان ما .

قلت ذلك وانا واثق ان الرجل في معركة الجنس لا يستطيع الانتظار طويلا . ولكنها اجابتني :

ــ ليس هناك المكان الذي تريده ، يمكننا الجلوس لفترة اخرى .

جلسنا على المقعد الحجري ، وما زلت قابضا على يدها ، ولكنها لــم تدعني الف جسدها بذراعي .

ــ انت تعب كثيرا .

ــ لا .

فاتجهت بنظرها الى الارض المعشوشبة ثم قالت :

ــ لعبة قذرة ، تلك التي تمثلها !

ــ اي لعبة تقصدين ؟

ــ انتظاهر بالغباء ؟

ــ ابدا لست اقصد ذلك .

ــ انت شاب جذاب ، انك تقوم بدورك تماما كما يجب .. ولكنها لعبة قذرة .

ــ هل تتعاطين قراءة افكار الناس دائما .

ــ لا ، ليس دائما ، ولكني افعل ذلك معك! لست بحاجة لادعاء محبتي . واظنك نلت حظك هذه الليلة .. هل بقي شيء تريد التحدث عنه ؟

ــ ولكني احبك يا كاترين .

ــ ارجوك دعنا ان نكون صادقين ، عندما لا نكون مضطرين الى الكذب يكفيني الليلة هذا الفصل الجميل من تمثيليتك .. اظنك لا ترتاب في اني لست مجنونة ؟ وانني لن اذهب بعيدا . انما هي افتراضها بعض الساعات .

فضغطت على يدها :

ــ كاترين حبيبتي .

ــ كاترين ، اني اسمع لها رنينا مضحكا .

ــ لم تفه بها كعادتك ، ومع ذلك فانت شاب جذاب .. انت شـــاب طيب ايضا .

ــ ذلك ما قاله الكاهن عني .

ـ بلى انك طيب جدا ، وسوف تحضر وتراني .

ـ طبعــا .

ـ ولست بحاجة للقول انك تحبني ، فلقد انتهى دور هذه العبارة .

ثم وقفت ومدت لي يدها ، ودون ان اتمكن من التلفظ بشيء عاجلتني بالتحيــة .

اردت ان اقبلها ولكنها رفضت قائلة :

ـ انني متعبة جدا .

ـ اذن قبليني انت .

ـ انني مرهقة جدا جدا يا عزيزي .

ـ قبليني .

ـ اتريدها قبلة طويلة ؟

ـ نعم ، وقبلنا بعضنا بعضا ، ولكنها انتفضت فجاة وصاحت :

ـ لا ، عم مساء ، ارجوك يا عزيزي .

ومشينا نحو الباب ، وشاهدتها تدخل وتهبط السلم ، كنت أرغب في مشاهدتها حتى آخر خطواتها ، حتى تغيب آخر طية من ثوبها ، ولكني لــم استطع ، فاتخذت طريقي شطر البيت .

. . .

كانت ليلة حارة ، وكانت سفوح الجبال تتلألأ بأضواء النيران فرحــت اتأمل وميض القنابل المتساقطة فوق قرية سانت جبريل .

وامام قصر روسا وقفت قليلا . كانت مصاريع النوافذ مغلقة ، ولكن ضجيج السامرين يصل الى الطريق . وتعالى صوت غناء ، ولكن استأنفت سيري نحو البيت ، وعندما وصلت الى الغرفة وبدات في نزع ثيابي دخــل رينالدي ، وما إن شاهدني حتى ابتدرني قائلا :

ـ ها . . يظهر ان الامور ليست على ما يرام !

ـ من اين قادم انت ؟

ـ من قصر روسا ، كانت سهرة ممتعة جدا ايها الطفل ، لقد غنينــا جميعنا ، ولكن من اين انت قادم ؟

ـ من زيارة المستشفى البريطاني .

ـ شكرا لله ، لم اتورط في علاقتي مع الانجليزية .

كنت عائدا في المساء التالي من اول مركز طبي في الجبل ، وعند المخيم، حيث يحشر الجرحى والمرضى استعدادا لتوزيعهم على المستشفيات ، اوقفت السيارة . كنت طول الطريق اقودها بنفسي ، فلما بلغنا المخيم بعثت السائق بأوراق الجرحى ليسلمها الى المسؤولين .

كان النهار حارا جدا ، والسماء زرقاء صافية والطريق قد ابيض اديمها بتراكم الغبار .

بقيت جالسا في مقعد السيارة الامامي ، واضعا راسي بين يدي ، دون ان تكون هناك اية فكرة ، ولو عابرة تشغل ذهني ، ومر في اثناء ذلك فصيل من الجنود ، فأخذت اتأمل خطواتهم وهم يتقدمون : كان العرق يتصبب من جباههم ، والاعياء باديا على وجوههم ، بعضهم يرتدي القبعة الفولاذية ، بينما البعض الآخر علقها خلف ظهره . اما القبعات ذاتها فكانت في معظمها كبيرة واسعة ، يغيب في داخلها راس الجندي الى ما دون اذنيه .. ووراء الفصيل سار بعض الجنود الذين ضلوا وجهة سيرهم ، كانوا كذلك مغبري الوجوه ، ملوثي الثياب ، يقطر العرق من جباههم، ويتجلى الاعياء في وجوههم، بعد ان قطعوا شوطا بعيدا عن النقطة التى كنا نقف فيها .. مر جندي آخر يحاول اللحاق بهم ، وهو يعرج في مشيته المجهدة ، وعندما صار بمحاذاة السيارة ، توقف عن الحركة ، وانطرح ارضا ، فنزلت من العربة ، واتجهت صوبه :

— ما شأنك ؟

نظر الي ، ثم نهض قائلا :

— سأتابع السير .

— ولكن ماذا حل بك ؟

— انها هذه الحرب الـ ..

— وساقك ، ماذا بها ؟

— ليست ساقي ، انما هو فتق .

— لماذا لم تنتقل بالسيارة اذا ؟ لماذا لم تذهب الى المستشفى ؟

— لم يسمحوا لي بذلك ، قال الليوتنان اني نزعت الحزام عمدا .

ــ دعني اتحسس موضعه .
ــ انه عميق جدا .
ــ في اي جانب ؟
ــ هنا .
ــ ها ، لقد احسست به ، قلت ذلك وسعلت .
ــ اخشى ان يستفحل امره ، فهو الآن ضعفه في الصباح .
ــ انتظر قليلا ، حالما استلم اوراق هؤلاء الجرحى ، ساحملك معي واسلمك الى ضابط الاسعاف في فرقتكم .
ــ سيقول اني فعلتها متعمدا .
ــ لن يستطيعوا اجراء شيء ضدك ، انه ليس جرحا وانت مصاب به قبلا اليس كذلك ؟
ــ ولكني فقدت الحزام ، والليوتنان يعتقد اني القيت به .
ــ على كل حال سيرسلونك الى المستشفى .
ــ الا يمكن البقاء معك ايها الليوتنان ؟
ــ لا ، لست احمل اوراقا باسمك .
لم اكد اتم عبارتي ، حتى وصل السائق يحمل اوراق الجرحى ، فصاح من بعيد :
ــ اربعة لمستشفى رقم ١٠٥ ، اثنان لمستشفى ١٣٢ .
كان المستشفيان وراء النهر ، فقلت للسائق :
ــ اصعد وخذ مكانك ، وسر بنا عاجلا ، ثم مددت يدي الى الجندي المطروح وساعدته على الصعود والجلوس الى جانبي ، وما ان استقر في جلسته حتى ابتدرني مستوضحا :
ــ هل تتكلم الانجليزية ؟
ــ طبعا .
ــ ما رايك بهذه الحرب الفاتكة ؟
ــ آه هذا ما اقوله دائما !
ــ هل كنت في الولايات المتحدة ؟
ــ طبعا في بتسبرغ ، لقد عرفت انك اميركي .
ــ اليست « ايطاليتي » على ما يرام اذا ؟
ــ عرفت انك اميركي دما ولحما .
وعندئذ التفت السائق نحوه ، ودمدم في الايطالية : « اميركي آخر » . بينما تابع الجندي بلهجة اخرى :

ــ ايها الليوتنان ارجوك ، هل ستلحقني بالفصيل ؟ ــ نعم ،
ــ لان الطبيب المسؤول يعرف اني مصاب بالفتق .. والآن بعد أن نزعت الحزام الملعون ستكون العاقبة وخيمة . ــ فهمت .
ــ الا يمكن الذهاب الى اي مكان آخر ؟
ــ لو كنا قريبين من الجبهة لاخذتك الى اول مركز طبي ، ولكن هنا في المؤخرة ، لا استطيع ذلك دون اوراق رسمية .
ــ اذا رجعت الى الفصيل سيعالجون الامر بعملية جراحية ، وعندئذ سابقى في الجبهة دائما .

كان يتكلم هلعا ، كان كل مشاعره الانسانية تشارك في تضرعها الي ، كل جارحة منه كانت تجار طالبة الخلاص وتلعن الحرب . رحت افكر في المسالة من جميع وجوهها .. ماذا يمكن ان افعل من اجله ! ماذا لو اصطحبته الى .. ولكنه قطع علي تفكيري :

ــ هل ترضى انت بالبقاء في الجبهة ؟
ــ لا ..
ــ يا يسوع ! اليست هذه الحرب قذرة !
ــ اصغ الي ، الق بنفسك من السيارة ، بحيث يصاب راسك باصابة ظاهرة ، ثم انتظرني هنا ريثما اعود .

وبالفعل ، اوقفت السيارة وساعدته على الهبوط ارضا ، وبعد ان استقر في وضعه قال :

ــ سانتظر هنا ايها الليوتنان ، اليس كذلك ؟

تابعنا الطريق ، وتجاوزنا الفصيل الزاحف مسافة ميل تقريبا ، ثم عبرنا النهر فوق جسر القوارب ، الى السهل الممتد على الضفة الاخرى ، وهناك درجنا مسرعين ، واوصلنا الجرحى الى المستشفيين المعنيين .

وعند العودة ، جلست الى المقود ، وقدت السيارة الفارغة مسرعا ، لانقذ جريح بتسبرغ ، فمررت بعربة اسعاف تجرها الخيل واقفة بجانب الطريق ، وامامها رجلان يحاولان رفع الجريح المذكور ووضعه داخلها ، كانوا قد رجعوا من اجله ، وعندما رآني هز راسه مستغيثا . كانت خوذته الفولاذية ملقاة بعيدا ، وجبهته المعفرة تنزف دما يندي خصلات شعره المتدلية فوق عينيه ، وعلى انفه وجدت آثار الرضة جلية واضحة بينما امتزج التراب بلباسه المدمى وشعره الاشعث .

راح يتطلع الي ، مطرقا راسه بين الفينة والاخرى ، محدقا في عيني ، لكن بخشية وابتهال ، ولما لم تبدر مني اية بادرة تنم عما انوي ان افعله من

اجله ، رفع صوته بتؤدة .

ــ ايها الليوتنان ، انظر كم يبلغ جرحي هذا .. انهم لم يفعلوا شيئا من اجلي أيها الليوتنان ، فقط رجعوا لياخذوني .

وعندما بلغت البيت عائدا من الجبهة ، كانت الساعة الخامسة مساء، فجلست اعد التقرير امام النافذة قبل ان انزع ثيابي .

كان قد مضى وقت طويل منذ ارسلت آخر رسالة الى عائلتي في امريكا، وكنت أعلم ضرورة كتابة بضعة سطور . ولكني تركت الايام تمضي لاني لم اجد ما يستحق الكتابة ، فاكتفيت بارسال بطاقتين من بطاقات الجيش البريدية ، شارحا ما يتعلق بصحتي .

انهم في امريكا كانوا يطربون كثيرا ولا شك ، عند استلام تلك البطاقات المزخرفة ، انها لا تحمل اليهم سوى جمال الارض التي ارسلت منها ، وهي بالنسبة لهم امر غريب غامض تماما ، كهذا الجزء من الجبهة ، فكل ما فيه غريب غامض ، ومع ذلك فالحرب هنا اقل فظاعة اذا ما قيست بحروب الالمان في المناطق الاخرى . ان الجيش الالماني الذي نتبادل واياه ارواحنا ، كان قد انشىء ليكون جيشا مريعا مرعبا ، جيشا يقدم الانتصارات تامة باهرة لرجل كنابليون . وكم تمنيت لو كان على راسنا رجل كنابليون . ولكننا بدلا من ذلك كان يقودنا الجنرال كادرونا ، الرجل السمين المترف ، وفكتور عمانوئيل الملك الانيق ذو العنق الطويلة واللحية المدللة .

وفي الجهة المقابلة كانوا قد وضعوا في القيادة العامة دوق اوستار ، السيد الذي اكثر ما يليق به ان يكون ملكا ، ذا تاج كبير .

كنت ما ازال جالسا أمام النافذة انهيا لكتابة تقريري ، ولكن توارد الافكار ابعدني عن غايتي ، وخطر لي وانا أتامل الايام الطويلة الماضية التي قضيتها في الجبهة ، ان لو التحقت بالجيش البريطاني ، لكان ذلك افضل بكثير ليس لان فيه ضمانا من الموت ، فاحتمال انقضاء اجلي امر طبيعي ، ان لم يكن داخل سيارة الاسعاف ، ففي اي مكان آخر في الجبهة . والحق اني لم اكن راغبا في وداع الحياة ، في هذه الحرب على الاقل ، وليس لي فيها ناقة ولا جمل ورغم عدم شعوري بخطرها الا كما يشعر المرء بخطر الحرب ، فقد دعوت الله مرارا ان يضع حدا لفظائعها . على كل حال هناك امل في انتهائها عشية الصيف القادم . لربما انهار الالمان ، كعادتهم في كثير من الحروب ، فعندها يتفتح كل ما في صدري ، يتفتح ليرى النور ، ليطل على الحياة .

ان مجموعة كبيرة من الاماني قد اختزنتها في نفسي ، الى ما بعد الحرب .. كنت اريد الذهاب الى المانيا ، ولكن في السلم طبعا .

اريد ان ازور الغابة السوداء في النمسا .
وان انهادى في شوارع فيينا .
وان اتسلق جبال الهارتيس .. اين هي جبال الهارتيس الآن ؟
انها تتبادل القنابل مع جبال الكربات ! لا ! لا اريد الذهاب الى هناك ابدا ، رغم انها سفوح رائعة .. وكذلك كنت اعتزم زيارة اسبانيا .. آه لو لم تكن هذه الحرب ، لكنا جنينا كثيرا من المتع .

كانت الشمس تميل نحو الغروب والطقس يبرد شيئا فشيئا ، واعتزمت ان اتناول عشائي واذهب فورا الى الآنسة باركلي . ايتها هنا الان . بل ليتنا معا في ميلان . لكنت اصطحبتها الى حانة كوفا ، ثم سرت برفقتها في شارع مانزوني الكبير ، في الامسيات الدافئة ، وبعدها ثانية الى الحانة ، ومن ثم الى باركلي .. لربما قبلت ذلك .. ولربما ادعت اني فتاها ، قتيل السوم .. آه لو تقبل الآنسة باركلي . وعندها ندخل الفندق معا من الباب الامامي ويرحب بنا الحاجب رافعا قبعته . واقف انا امام مكتب الاستعلامات ، اطلب غرفة واحدة ، وتنتظر هي قرب المصعد ، وبعدها نقف كلانا في داخله ويرتفع بنا ، ويجتاز طابقا ، طابقين ، ثلاثة ، اربعة واخيرا طابقنا ، ويفتح الصبي الباب ، ويقف منتظرا ، وتخطو كاترين واخطو خلفها ، ونسير في الرواق ، واضع المفتاح في باب الغرفة ، ويرتجف قلبي ، وافتح الباب ، وندخل وامسك بسماعة التلفون ، واطلب ارسال قارورة وسكي ، ثم نسمع وقع أقدام الخادم ، ويقرع الباب ، فآمره بوضعها خارجا لاننا عاريان لم نستطع ارتداء شيء من شدة الحرارة ، ونفتح النوافذ ، ونشاهد السنونو يرفرف فوق السطوح ، ونشرب الويسكي والباب مقفل والجو حار ، وليس الا غطاء واحد على السرير ، والليلة بطولها ونحن نعانق بعضنا بعضا ، في ليلة دافئة ، في غرفة واحدة ، في ميلان ، هكذا ينبغي ان يكون ، سأتناول عشائي مسرعا واذهب الى عند كاترين باركلي .

في القاعة بعد العشاء ، ثار جدل عنيف حول التهمة الموجهة الى رئيس اساقفة ارلندا ، وتفرع الحديث وتشعب الى ان انتهى بمهارة حماسية حول من يستطيع احتساء اكبر كمية من الخمر ، وحاول اللفتنانت ان يجعلني طرفا في المباراة ، ولكني تذرعت بموعد سابق .

ــ انه مرتبط حتما ، واثق من ذلك ، انا اعرف كل شيء .
وعندما استأذنت وخرجت ، تبعني ، فوقفنا قليلا قرب المدخل .
ــ من الافضل ان لا تزورها وانت مخمور .

ـ لست مخمورا .

ـ على كل حال ، لا بأس بمضغ قليل من حبوب القهوة .

ـ دعك من هذه الترهات .

ـ عندي بعضهـــا .

وبعد قليل ، عاد وقد ملأ قبضته منها .

ـ امضغها وسر برعاية الله .

لا ! برعاية يسوع !

ـ سأرافقك في بعض الطريق .

ـ كن مطمئنا ، فأنا على ما يرام . ولكنه تظاهر بالغباء ورافقني ، وعند المفترق المؤدي الى المستشفى البريطاني ودعني مبتسما فقلت له : لماذا لا ترافقني حتى النهـــاية !

ـ لا ! افضل المغامرات من نوع اخف .

ـ اشكرك من اجل القهوة الطازجة ، وهرولت نحو المستشفى ، وعندما بلغت منتصف الطريق ، التفت خلفي فرايت رينالدي ما زال واقفا يراقبني ، بينما في اول الطريق امامي .. كان هيكل انسـان يتجه نحوي ، انه يقصدني .. من تراه يكون ؟ لا ، ليست كاترين باركلي .. انها الآنسة فيركوسن ، فابتدرتها محييا ـ مرحبـــا .

ـ كلفتني كاترين ان اخبرك بانها لا تستطيع مقابلتك هذا المساء .

ـ ماذا ؟ آسف جدا .. ارجو ان لا يكون قد اصابها سوء ؟

ـ ليست على ما يرام .

ـ اكون شـاكرا اذا تفضلت بابلاغها كم انا متألم لذلك .

ـ حسنا كما تريد .

ـ شكرا . لكن ، هل تعتقدين انه من الممكن رؤيتها غدا ؟

ـ ربما ، شكرا كثيرا .

وخرجت من البوابة .. في الحال تملكني شعور غريب ، شعور بالوحدة والفراغ .. لم يكن بي حافز قوي لرؤيتها .. ولم اكن اشعـــر بالقلق الزائد للقدوم ، ولكني الآن عندما لم ارهـــا .. اشعر كأن شيئا عزيزا افتقــدته ، خسرته ، وسيمضي وقت طويل .. حتى اراها ثانية .

٨

قضي الامر ، وامرت بالانطلاق مع اربع سيارات اسعاف كبيرة الى اعالي النهر : فالهجوم سيبدأ الليلة . ورغم ان احدا لم يكن يلم بالتفاصيل ، الا ان معظم الحاضرين في قاعة الطعام ذلك المساء ، كانوا يتحدثون وكأنهم خبيرون في الحرب وفي استراتيجية القتال ، وجغرافية المنطقة .

ركبت في السيارة الاولى ، وعندما حاذينا المستشفى البريطاني ، امرت السائق بالوقوف ، فتوقفت السيارات الثلاث خلفه ، ولكني اشرت على سواقيها بمتابعة السير ، وبالانتظار ، اذ لم نلحق بهم ، عند مفترق كورمنس، ثم عبرت حديقة المستشفى مسرعا ، واتجهت فور وصولي الى مكتب المديرة:

ــ اين الآنسة باركلي ؟

ــ في عملها .

ــ هل استطيع رؤيتها مدة دقيقتين فقط ؟

فارسلت حاجبا يدعوها ، وبعد لحظات رجع برفقتها ، وعندما اصبحت على مدى السمع مني بادرتها بصوت مسموع :

ــ اوقفت السيارة وجئت لارى فيما اذا كنت احسن حالا من الامس ؟!

ــ شعرت بتحسن هذا الصباح ، واظن ان شدة الحرارة كانت سبب وعكة الامس .

ــ حسنا ، اني مضطر للانصراف !

ــ انا كذلك ، استأذنت لدقيقتين فقط .

وتراجعت بضع خطوات ، ولكني وجدت نفسي اقول لها مكررا .

ــ اذن تشعرين بتحسن هذا اليوم !

ــ نعم يا عزيزي .. هل انت آت هذا المساء ؟

ــ لا ، انني ذاهب للاشتراك في العرض ، في بلافا .

ــ عرض ؟!

ــ لا أعتقد انه غير ذلك .

ــ وستعود الليلة ؟

ــ غدا ..

فحركت يدها حول عنقها ، كأنها تريد فك شيء معقود ، ثم وضعته في

يدي .

ــ انها صورة القديس انطونيو .. تعال غدا مساء .

ــ انت لست كاثوليكية ..! اليس كذلك ؟

ــ لا .. ولكنهم يقولون ان صورته نافعة جدا .

ــ اذن ساحرص عليه من اجلك .. وداعا .

ــ لا .. ليس وداعا !

ــ كما تريدين .

ــ كن حذرا .. احرص على نفسك ..! لا تستطيع تقبيلي هنـا .. لا تستطيـع .

ــ كما تريدين .. والان .. وداعا .

لم اكد اقترب من مدخل القاعة حتى التفت خلفي ، فرايتها ما زالت تنظر الي من اسفل السلم ، وعندما لمحت وجهي لوحت بيدها ، فقبلت يدي ولوحتها باسما ، اما هي فتابعت حركتها حتى اصبحت خارج القاعة .

صعدت الى السيارة وطلبت من السائق الاقلاع فـورا ، كي نلحـق بالقافلة المتقدمة .

كان القديس انطونيو محفوظا في غلاف معدني صغير ، ففتحت الغلاف وانتزعت القديس بيدي ، اريد ان اتأمله .. ولكن السائق انتبه الى حركتي فسالني : القديس انطونيو !؟

ــ نعـم ..

ــ اني احمل مثله ايضا . ورفع يده اليمنى عن مقود السيارة ، وفك احد ازرار قميصه الداخلي ، وسحب صورة القديس انطونيوس من الجيب الصغير

ــ انظـر !

اعدت صورة القديس الى غلافه الصغير بعد ان حللت منه سلسلتـه الذهبية ووضعتها في جيبي ..

ــ لن تعلقـه ؟!

ــ لا ..

ــ الافضل ان تدليه من عنقك .. حتى تنال بركته .

ــ حسنا .

وبالفعل ربطته بسلسلته البراقة ، وعلقته حول عنقي ، فتدلى القديس فوق بذلتي الرسمية ، فحللت زر قميصي وخبأته داخلا وبينما السيارة تهتز كنت احس به يرتطم على صدري ، واخيرا نسيت كل شيء بصدده ولم اتذكره الا عندما اصابتني القنبلة ، اذ فتشت عنه فلم اجد له اثرا .. لعل احدهم نال

قصب السبق في انتزاعه مني .. وما كنت ارجو الا ان اهنئه — اهنيء القديس طبعا — بخلاصه من البقاء معي طيلة ايام مرضي .. لقد نجح اخيرا في التخلص من مفعول بركتـــي .

لما وصلنا الجسر ، بدت لنا هياكل السيارات المتقدمة ، تنهب الارض نهبا ، وتملأ الفضاء أمامنا بما تثيره من غبار ولكننا لحقنا بها وتجاوزناها الى منعطف ، تصعد الطريق بعده بين التلال . وكلما اوغلنا في الصعود ، بدت لنا سفوح الجبال الشمالية البعيدة ، وقد كللت الثلوج قممها . وبعد ان بلغنا نهاية الطريق ، كان علينا أن ننحدر ثانية ، فوق سفوح التلة المقابلة لنصل الى ذلك الجزء من ضفة النهر ، حيث معسكر وحداتنا المهيئة للهجوم .

كانت الطريق المذكورة ، وهي تنحدر بشكل مخيف ، اقرب الى أن تكون عمودية ، تزدحم فوقها حركة النقل الى حد كبير : شاحنات الجنود ، وعربات الذخيرة ، وجرارات المدفعية الضخمة ، وسيارات قافلة ، واخرى تعطلت بها محركاتها .. ومع ذلك فقد استطعنا بلوغ الضفة والشمس لما تغرب بعد . الا ان طلائع الظلام كانت تطل منذرة بالسكينة الشاملة .



على محاذاة النهر في هذا الجزء ، حيث المجرى ينخفض كثيرا عما هو في بقية الاجزاء ، كان الجنود منتشرين في خنادق حديثة الحفر . وكانت الشمس مولية وراء الجبال الشاهقة ، وعلى وهج الشفق الارجواني ، استطعت تمييز مناطيد الاستكشاف الالمانية ، كأنها نقاط سود وسط بقعة السماء المحمرة .

اوقفنا السيارات في المكان المعد لها ونزلنا نتفحص مراكزنا ، لقد جعلوا من حفر الافران وبعض الخنادق العميقة مراكز للاسعافات الاولية . وهناك التقيت بثلاثة اطباء من اركان الفرقة ، افهمني رئيسهم انه فور بدء العمليات ، وحال امتلاء سياراتنا بالجرحى ، علينا ان نحملهم عبر الطريق ذاتها الى مراكز طبية اخرى ، حيث ينقلون بعدها الى المستشفيات في المؤخرة ، وبعد ان رجا لنا الطبيب الرئيس توفيقا في مهمتنا ، قال ان القضية تحتاج الى كثير من التيقظ والوعي ، خصوصا ان الطريق تقع ضمن مرمى مدافع الالمان .

كان الرئيس رجلا صغير الحجم ، ذا شاربين كثيفين مفتولين ، وعينين يشع منهما المكر وحدة الذكاء ، اتفق له ان اشترك في الحرب الليبية ، وجرح اثناءها مرتين ، وقد وعدني اذا ما سارت الامور على وجهها الافضل ، ان يرشحني لتقلد وسام رفيع ، فشكرته على عاطفته النبيلة تجاهي قائلا ان كل ما اتمناه هو النجاح الكامل فيما نحن قادمون عليه ، ثم سألته عن المأوى المخصص للجوء سائقي عربات الاسعاف ، فأرسل معي من دلني عليه ، وقد وجدته مأوى صالحا ، بالنسبة لطبيعة المنطقة التي نحن فيها ، كما ان السواقين سروا في البقاء داخله . فتركتهم يتابعون ثرثرتهم وعدت الى مقر الرئيس استوضحه عما يجب فعله ، ولكنه دعاني الى تناول كأس من الشراب برفقة الطبيبين الاخرين ، وبينما نحتسي خمر الخطوط الامامية ، علمت ان المدافع ستفتح فوهتها فور اشتداد الظلام . واطلعني الرئيس على تفاصيل مهمتي ، وعندها استأذنته بالعودة الى رجالي الاربعة لاطلع كلا منهم على ما يترتب عليه .

وعندما دخلت الملجأ ، اتجهت عيون السواقين جميعهم الي ، يريدون معرفة ما احمل لهم من انباء فارتأيت بتفاصيل المهمة العسيرة الخطره

اليونانية الفاخرة ، ومن ثم اخبرتهم بتفاصيل المهمة العسيرة الخطرة الموكولة الينـــا .

ــ ولكن لماذا لم نطلع على المركز الذي سنحمل الجرحى اليه ؟

ــ انه تماما خلف المنعطف الاخير ، عند اسفل التلة .

ــ يا لفظاعة ! الطريق ستكون مزدحمة للغاية .

ــ ونيران الجحيم ستشتعل الان فورا ؟

ــ ربما .. من الممكن ..

ــ ولكن ماذا عن الطعام ايها الليوتنان ؟! الا يحق لنا تنــاول شيء بعد هذه المسيرة الشاقة ؟!

ــ سأذهب لارى حالا .

ــ هل نذهب معك ؟!

ــ الافضل ان تبقوا هنا .

قصدت خندق الرئيس اسأله عن قضية الطعام ، فأخبرنــي ان مطبخ الميدان المتحرك سيصل قريبا ، وانه بأمكان السواقين تناول وجبتهم عندئذ . وان هم لم يستطيعوا صبرا ، فهو على استعداد لان يؤمن لهم ما بأمكانه من الطعــام .

وعندما نقلت للرجال كلام الرئيس قال مانيرا :

ــ لا باس ، على ان يصل المطبخ قبل اندلاع النار .

اما الثلاثة الاخرون فلم ينبسوا ببنت شفة والظاهر ان الجواب لم يرق لهم ، فرايت من الصواب ان اجاريهم فجلست بينهــم واتكأت بظهــري على الحائط خلفــي .

ــ من اعدوا للهجــوم . سأل كافوزي .

ــ فرقة بيرسكليري .

ــ كلهم من البيرسكليري .

ــ اعتقد ذلــك .

ــ ولكن يظهر ان عدد الجنود غير كاف للقيام بهجوم حقيقي !

ــ قد يكون ذلك لتغطية مكان انطلاق الهجوم الحقيقي .

ــ هل يعرف الجنود انهم سيكونون البادئين بالقتال .

ــ طبعا لا ، والا لرفضوا تنفيذ الاوامر بالهجوم . قــال ذلك مانيرا ، بينما اجابه باسيني :

ــ لا سينفذون الاوامر .. هؤلاء ، البير سكليري جهلة اغبياء ،

وعندها رايت ان اتدخل ، فقلت بصوت الواثق :

ـ انهم شجعان ومنظمون جيدا .

ـ وهم ايضا ، على ما ينبغي من ضخامة الجثة .. وصغر الـ ..

ـ وطول القامـة .

فانفجر الجميع ضاحكين .

ـ ليتك شاهدتهم ايها الليوتنان ، عندما رفضوا الهجوم وبداوا يطلقون النار على كل عاشر رجـل .

ـ ها ، احقا ما تقول ؟

ـ تلك حادثة معروفة .. صفـوا الرجال وانتقـوا كل عاشر رجـل ، واطلقوا عليه النار ..

ـ لو ان كل واحد يرفض البدء بالقتال لانتهت الحرب .

ـ ولكن الامر ليس كذلك مع الكرانتيري ، فمعظمهم ابناء اسر غنية .

ـ بعض ضباطهم نزلوا الى المعركة دون جنودهم .

ـ ولكن بعض الفرق حاربت في الايام الاولى .

ـ لقد رايت بام عيني ضابطين منهم ، يقتلهما الليوتنان عندمـا رفضا الانصياع للاوامـر .

ـ احدهما كان من بلدتـي ، قال باسينـي .. كـان شابا انيقـا ذا قامة طويلة ، يقضي معظم اوقاته بصحبة الفتيات في روما .. دائما مع الفتيات .. والان ، لقد وضعوا حرسـا دائما امام بيتـه ، وجردوا والده من الحقوق المدنية ، حتى من حق الانتخاب .. وعائلته الان لا قانون يحميها ، اي انسـان يستطيع الاعتداء عليها .. واغتصـاب ممتلكاتها .

ـ لو لم يفعلوا ذلك مع عائلته ، لما ذهب جندي الى الحرب .

ـ بلى ! ان جنود فرقة الـ V . D . يذهبون !

ـ يجب ان لا ندعنا نتحدث هكذا ايها الليوتنان . قال باسينـي ذلك . مبتسمـا .

ـ انا اعرف كيف تتحدثون ، ولكـن طالمـا انكم تقـودون السيارات وتسلكـون ..

فقاطعني مانيرا مردفا :

ـ .. ولا تدعون الضباط الاخرين يسمعون حديثكم .

وعندها رايت من الواجـب التحدث بصراحة فقلت موجهـا الحديـث لهـم جميعـا :

ـ انني اؤمن بضرورة انهاء الحرب ، ولكني اعتقد انها لن تنتهي بمجرد توقف احد الجانبين عن البدء بالقتال .. بل على العكس انهـا ستزداد سوءا

اذا ما توقفنا نحن عن المبادرة .

ـ لا يمكن ان تصبح اسوا مما هي عليه الان .. وليس هنالك اسوا من الحرب على كل حال ..

اجابني باسيني ، ولكن بلهجة مهذبة . فقلت له :

ـ الهزيمة اسوا .

ـ لا اظن ذلك .. ماذا تعني الهزيمة ؟!

ـ .. ان نعود الى بيوتنا .

ـ ولكن العدو يتبعك الى هذه البيوت يسلبك ويعتدي على عرضك .

ـ لا ، لا يستطيع فعل ذلك مع كل انسان ، ليدافع كل منا عن بيته ، وليمنع اخوانه من الخروج مطلقا ..

ـ حسنا ، ولكن الحكومة تعدمك او تجبرك على التجند ثانية ، لا في قيادة سيارات الاسعاف فحسب ، بل في صفوف المشاه ايضا .

ـ لن يستطيعوا اعدام كل الناس .

وايده مانيرا قائلا :

ـ الامة المتمردة ، لا يصلح منها مجند واحد ، منذ المعركة الاولى ويفر الجميع .

ـ يظهر انك لم تذق طعم الهزيمة ، ولذلك تظنها امرا بسيطا .

ـ ايها الليوتنان ، قال باسيني ، ونحن نقدر لك كثيرا السماح لنا بالخوض في هذا الحديث ، ولكن ارجوك الاصغاء قليلا : ليس هنالك اسوا من الحرب ، ونحن داخل سيارات الاسعاف ، لا نستطيع ، ولو جزئيا ، لمس مساوئها ، ولكن الذي يحدث ، ان الناس عندما يواجهون فظائعها ، يكونون قد فقدوا القدرة على ايقافها ، كان نوعا من الخبل يغشى عقولهم ، ويشل تفكيرهم ، وبعضهم لا يتاح له المجال للوثوق من بلاياها . بينما البعض الاخر ، يقومون عليها بدافع الخوف من ضباطهم ، وبأمثال هؤلاء تستمر الحرب .

ـ اعرف انها فظيعة سيئة ، ولكن يجب ان تستمر حتى النهاية .

ـ لن تنتهي .. لا يوجد نهاية للحرب !

ـ بلى ! يوجد .

فهز باسيني راسه ثم اردف :

ـ الحرب لا تكسب بالنصر .. ماذا لو استولينا على مدينة سان جبريل .. وكذلك على كارسو ثم مونفالكون وبعدها تريستا توقو .. الام سنصل بعدئذ ؟.. هل ترى كل تلك الجبال البعيدة المتتالية ؟ هل تظن انه بامكاننا الاستيلاء عليها جميعا !. ابدا .. لن يتم ذلك .. الا في حالة استسلام

الالمان .. لا بد ان يستسلم احد الفريقين .. لماذا لا نستسلم نحن ؟!

واذا ارادوا الانحدار واللحاق بنا في يطاليا ، سيرتدون خائبين ... سيعودون الى بلادهم ، الى مدنهم وقراهم .. الى منازلهم ، الى اهليهم واولادهم .. ولكن بدلا من هذا .. الحرب يجب ان تستمر !

ــ انك محدث بارع .

ــ نحن نقرا .. نفكر .. نحن لسنا فلاحين اميين .. ومع ذلك فالفلاحون انفسهم عندهم من المعرفة ما يجعلهم يمقتون الحرب ويبغضونها .. كل انسان يبغض الحرب .

فتابع مانيرا :

ــ هناك فئة من الناس التي تسيطر على البلاد ، الفئة الحمقاء التي لا تفكر ابدا ولاتستطيع ادراك النتائج .. انها سبب هذه الحرب .

ــ لا ! انها لا تجني الارباح من الحرب . اجابه باسيني ..

ــ معظمهم لا يجنون شيئا.فقط لانهم اغبياء يشعلون الحروب دون سبب .. الا لحماقتهم .. على كل حال ، كفى لقد تحدثنا طويلا امام حضرة الليوتنان .

ــ ولكنه راغب في ذلك ، لعله اطمان لسماع هذه الحقائق .

ــ يا حضرة الليوتنان ! اما حان لنا ان ناكل ؟!. صاح كافوري

ــ ساذهب لارى ماذا تم بهذا الشان .

وعندما خرجت تبعني كورديني قائلا :

ــ هل هناك اي شيء استطيع مساعدتك به ؟.

كان اهداهم واقلهم ثرثرة فاجبته :

ــ تعال معي لنرى ما نستطيع عمله .

وفي الخارج ، كان الظلام دامسا ، واشعة الاضواء الكاشفة تتماوج فوق قمم الجبل ، وعلى سفوحها . عبرنا الساحة وبلغنا مركز الاسعاف الرئيسي ، وقد حجب مدخله بكومة من اغصان الشجر الخضراء ، بينما ينير داخله ضوء خافت . كان الطبيب الرئيس يمسك بسماعة التلفون مصغيا ، وعندما لمحني نهض قائلا :

ــ لقد انطلقوا الان ، سنضع الامور في نصابها هذه المرة .

فجاة ، وبعد ثوان من السكون الشامل شق هداة الليل هدير القنابل ، واهتز كل شيء حولنا .

ــ سافوي ؟! صاح القائد ولكنني لم امهله طويلا فبادرته :

ــ ماذا عن الحساء ؟ والظاهر انه لم يسمعني فكررت السؤال فاجاب:

ـــ لم يصل المطبخ بعـــد .

وسمع زئير قذيفة تقترب ، ثم دوى انفجارها قريبا جدا ، وتبعـــه دوي اخر ، ومع ذلك اردفـــت :

ـــ ماذا عندكم للاكـــل ؟

ـــ قليل من المعكرونة .

ـــ اعطني كل ما تستطيع .

فاشـــار الى احد الخدم ، الذي عاد بعد لحظات يحمل طبقا من المعكرونة الباردة ، ناولته لكورديني .

ـــ هل عندكم قليل من الجبن ؟

فاشـــار القائد ثانية ولكن بغضب ظاهر الى الخادم ، فذهب واحضر بيده قطعة صغيرة من الجبن الابيض .

ـــ شكرا جزيلا ايها الرئيس .

ـــ من الافضل ان تقربنا .

ثم تطلع نحو المدخل وصاح :

ـــ ادخلاه ! ماذا تنتظران؟ . . هل تريداننا ان نخرج ونحمله الى هنا ؟ . .

وفي الحال تقدم رجلان على كتفيهما جريح يسيل دما ، ووضعـــاه على الطاولة الخشبية في الوسـط .

ـــ انزعا ثيابه . امر الرئيس . ثم غادرا المكان الى مركزكما حالا .

وعندئذ قلت لكورديني :

ـــ هلم بنـــا .

ـــ من الافضل ان تقربنا قليلا .

ـــ ولكنهم يلحون في طلب الطعام ايها الرئيس .

ـــ افعل ما تريد .

امسكت بيد كديورني وركضنا معا ، وعند منتصف الساحـــة دوت من فوق راسينا قذيفة ما لبثت ان انفجرت بعيداً . . وتبعتهـــا اخرى انفجـــرت بالقرب منا ، عند طرف الساحة المقابل ، فتمددنا كلانا على الارض ، ووسـط الوميض والدوي سمعنا ازيز الشظايا وقرقعة القرميد المتساقط ، ثـــم نهض كورديني واتجه وثبا نحو الملجا ، فتبعته راكضا وقطعة الجبن في يدي . قـــد بدل غبار القرميد المتطاير لونها . وعندما دخلنا الملجـــا ، كان السـواقـــون الثلاثة يدخنون بانتظارنا . .

ـــ مرحبا بالمتطوعين الجريئين !

ـــ هل حل شيء بالسيارات ؟! .

ـ ارجو ان لا تكون قد ذعرت ايها الليوتنان !!

ـ كم انت خبيث يا باسيني .

اخرجت سكيني وازلت طبقة الغبار الاحمر عن الجبنة ، بينما ناولني كورديني طبق المعكرونة الباردة .

ـ هلموا .

ـ لا ! انتظروا ، سنبدا سوية .

ـ بلا ملاعق ؟!

ـ ماذا ؟! ـ لياخذك الشيطان .

قسمت الجبن قطعا صغيرة ووزعتها فوق طبق المعكرونة وصحت بهم :

ـ اجلسوا حولي ..

ثم غطست بيدي في الطبق ، ناشلا مقدارا من خيوط المعكرونة بين اصابعي ، ولكن معظمها انفلت من قبضتي فصاح مانيرا :

ـ ارفعها عاليا ، عاليا ايها الليوتنان .

رفعتها على مدى امتداد ذراعي ثم ادنيتها من فمي ملتهما اطرافها . ومن ثم امعنت في ادخال بقاياها في فمي وقبل ان ابدا بمضغها الحقتها بقطعة من الجبن وبعدها بجرعة خمر .

وعندما شاهد الرجال الطريقة ، انهمكوا في الاكل ، ذقونهم فوق الطبق ، ورؤوسهم تستلقي الى الوراء بين الفينة والاخرى ليحكموا التهام خيوط المعكرونة ، وبينما نحن كذلك بدا القصف يهز الارض حولنا هزا عنيفا .

ـ انها من عيار ٤٢٠ صاح كوفري .

ـ لا يوجد مدافع من هذا العيار في الجبال . اجبته .

ـ الالمان يملكون مدافع سكودا الكبيرة ، رايت حفر قنابلها بعيني .

ـ انها من عيار ٣٠٥ .

وعاودنا انهما كنا في الطبق ، ولكن موجة هواء لافح هبت علينا تلاها زعيق كهدير القطار ثم انفجار هز الارض مرة اخرى . وصاح باسيني :

ـ ليس هذا بالملجا الامين .!

ـ قذيفة هاون ضخمة ! ـ نعم .

والتهمت قطعت الجبن الباقية ، وهممت بحمل قارورة الخمرة ، ولكن موجة اشد من الهواء اللافح جعلني اغمض عيني .. ولم اكد اسقط القارورة من يدي حتى علا الهدير : تشاه ، تشاه ، تشاه ، تشاه .. وابرق وميض خاطف ، تبعه في الحال انفجار مخيف .. بدا لي في اوله ابيض ولكنه ما لبث ان تحول الى الحمرة القانية واستمر كذلك في دوامة هائلة ، وانا في وسطه

لا اقوى على الحراك .. حاولت ان اتنفس فلم افلـح وشعرت انـي فقدت امكان التحسس باجـزاء جسدي ، وان بعض جوارحـي خرجت عن نطـاق حواسي .. يظهر اني انازع سكرات الموت .. لا ! من الخطأ ان افكر بانـي اموت .. ها ! انني ابصر ما حولي ؟ الارض ممزقة . وهذا لوح خشبي ، امام راسي .. وبينما الدوامة تمضي . سمعت انـين بكاء . ان احدهـم ينادي : حاولت ان اتحرك فلم استطع .. من ذلك الذي يبكي ؟

.. المدافع . الخنادق ، ازيز الرصاص ، دوي القنابـل .. واضـواء الصواريخ تشق ظلمة السماء .. والوميض اللامع يخطف الابصار . كل ذلك شعرت به في لحظة واحدة .. ثم سمعت بالقرب مني صوتا ينادي :

« اماه ، آه يا امي » فجمعت قواي ، وشددت على نفسي وحاولـت ان التفت لارى مصدر الصوت ..واخيرا عرفته .. انه باسيني ، وعندما لمسته بيدي ارتفع عويله ، كانت ساقاه مهشمتين قد انقذفتا بعيدا .. واستطعـت بين النور والظلمة ، وان اتاكد انهما مبتورتان من تحت الركبة ، وقد انكمشت احداهما وتكومت فوق بعضها ، بينمـا الاخرى ما زالت عالقـة الى جسده بخيوط دامية من الجلد وبرقعة طويلة من سرواله . كان يعض ذراعه ويصيح : اه امي ، اه امي ، امي اه ، امي اميتيني . اه يا ماريا الطيبة اقتليني اوقفي هذا الالم .. يا الله اوقفه اه اه اه اه .. اوقفوه ..

ثم يغيب .. وما يلبث ان يعاود مولولا :

آه يا امي امي امي .. ويصمت عاضا ذراعيه .

ـ ايها الحمالون ! صرخت ضاغطا على يدي ، محاولا ان اقترب منـه لاضع فوق ساقه رباطا يوقف النزيف .. ولكني لم استطع حراكـا .. على اني افلحت في الزحف الى الخلف متكئا عى احد مرفقي الى ان اصبحت محاذيا له .. فالفيته هادئا لا يحرك ساكنا . شددت بطرف قميصي محاولا نزع قطعة منه ، ولما لم استطع ، مزقت نهاية القماش باسناني ودفعـت راسي عاليا ، وانا ممسك بها كيما تشق طوليا ، ولكني فجاة تذكرت جوربي .. ان احداهما مبللة .. ولكنها تكفي .. فباسيني يملك الان ساقا واحدة .

وبينما انا ادفع صدري ناهضا ، ادركت ان لا حاجة لي بها .. لقد انتهى كل شيء .. كان باسيني قد لفظ انفاسه .. لقد مات باسيني ، مـات وبقي ثلاثة من رفاقـه .

وعاودت الكرة محاولا ان اعتدل في جلستي وبينمـا انا افعـل ذلـك، احسست ان ثقلا هائلا يتحرك داخل راسي ، ويطرقنـي في جفون عينـي ، وشعرت بساقي تسخنان وتبردان وحذائي يطفح بسائـل لزج دافىء : اذا

لقد أصبت ، مددت يدي الى أسفل نحو ساقي ، فلم أجد الركبة ، فانكمشت ونزلت بها الى اسفل فاحسست بالركبة عند قصبة رجلي ، أرجعت يدي وقد ملئت بالسائل الدافىء فجففتها بقميصي ، ورحت أدفع برأسي عاليا من جديد اريد ان اشاهد ساقي ، وساورني خوف شديد .

ــ يا الهي ، انقذني من هنا ، أين الثلاثة الاخرون ، اني واثق انه لا بد ان يكون هناك ثلاثة آخرون !. لقد كانوا اربعة ، رجالي ! مات باسيني ، فاين الثلاثة الباقون ، واخيرا احسست بيد تحملني من فوق ابطي .. بينما اخرى امسكت بأعلى ساقي .

ــ يوجد ثلاثة فقط ، الرابع قد مات .

ــ نعم ، اطمئن يا عزيزنا الليوتنان .. انا مانيرا .

.. لقد ذهبنا لنبحث عن حمالة ، فلم نجد .. كيف كانت يا عزيزنا الليوتنان ؟!

ــ أين كورديني وكافوري ؟!

ــ كورديني في مركز الاسعاف يضمد جراحه ، وكافوري ممسك بساقيك .. تمسك جيدا بعنقي .. هل اصابتك بليغة ؟

ــ في الساق .. كيف كورديني ؟

ــ لا بأس بحاله ، انها قذيفة هاون ضخمة .

ــ مات باسيني .

ــ نعم ، مات .

واهتزت الارض وسقطت قنبلة في القرب ، وهويت أرضا .

ــ آسف ايها الليوتنان ، تمسك جيدا بعنقي .

ــ واذا اسقطتماني ثانية ؟

ــ لقد فاجأتنا .

ــ الم تصابا بجراح ؟!

ــ كلانا جراحه بسيطة جدا .

ــ هل يستطيع كورديني قيادة السيارة ؟

ــ لا اعتقد ذلك ..

ومرة أخرى ، اهتزت الارض وهويت أنا أرضا ، فصحت بهم :

ــ يا ولدي الكلبة ..

ــ آسف ، لن نفلتك ثانية ، قال مانيرا متألما .

والحق انهما لم يدعاني اهوي بعد ذلك ، فلقد بلغا مركز التضميد ، ومدداني خارجا وهناك استطعت ان المح مئات المصابين ، ممددين حولي بينما

الحمالون يهرولون داخلين بالاجساد المترنحة ، وخارجين للاتيان بغيرها ، وكلما فعلوا ذلك ، ارتفع ستار المدخل ، وبدت هياكل الاطباء ، وقد شمروا عن سواعدهم الملوثة بالدم تماما كسواعد الجزارين ، اما الموتى ، فكانوا يكدسون اكواما في ناحية بعيدة . والظاهر ان الحمالات الموجودة ، لم تف بالمطلوب ، فكان الحمالون ينزلون الجرحى حالما يصلون ، ويرجعون من توهم ليأتوا بجثث اخرى .

ورغم عدد المصابين الكبير ، فلم يكن يسمع الا بعض الانين يرتفع من هنا وهناك .

بعد قليل اشتدت برودة الليل ، وهبت ريح اسقطت اوراق الاشجار المحيطة .. ثم جاء مانيرا ومعه ممرض شرع يضع اربطة حول ساقي قائلا ان كمية لا بأس بها من القاذورات قد امتزجت بلحمي المدمي .. وانهم لذلك سينقلوني الى الداخل حالما تسنح الفرصة ، ثم حياني عائدا الى عمله .

وقبل أن يغادرني مانيرا أخبرني ان كورديني لا يستطيع قيادةالسيارة، لان كتفه مهشم ورأسه يؤلمه ، وانه لم يكن قد شعر بحقيقة حاله ، الا الان ، حيث تيبس كتفه ، فأسند ظهره الى جدار القرميد ، في الناحية المقابلة ، بانتظار نقله ، وانصرف مانيرا ، قائلا انه وكافوري سيواصلان العمل على سيارتيهما في نقل الجرحى ، فأوصيته خيرا ورجوت لهما نجاحا وتوفيقا .

في هذه الاثناء كانت قد وصلت الى المكان ثلاث سيارات اسعاف بريطانية، في كل منها ممرضان انجليزيان، اتجه أحدهم نحوي يقوده كورديني الذي كان ممتقع اللون شاحبا وعندما بلغني انحنى فوقي ثم جلس القرفصاء وسألني :

ـ هل اصابتك بليغة ؟ ـ في الساقين ..

ـ ارجو ان لا تكون خطرة ؟ اتاخذ سيجارة ؟

ـ شكرا ..

ـ اخبروني انك فقدت سائقين !

ـ احدهما قتل ، والثاني هو ذاك الجريح الذي بعثك الي .

ـ كم أنت سيء الحظ ! . هل ترغب في أن نأخذ سيارتيك ؟؟

ـ هذا ما اريد ان اكلفك به ..

ـ سنحرص عليهما ، ونعيدهما الى المعسكر رقم ٢٠٦ ، أليس كذلك؟

ـ نعم .

ـ انه مكان جذاب ، كنت قد رأيتك قربه ، واخبروني انك امريكي .

ـ حسنـــا .

ـ وانا انجليـــزي !

ـ حقـــا ؟!

ـ نعم انجليزي ، هل ظننت اني ايطالي !

.. يوجد بعض الايطاليين في احدى فرقنا .

ثم نهض ، وبعد أن أشار بيده نحو كورديني قال :

ـ سانقلك أصر علي كثيرا لاراك .

وتقدم منه مربتا على كتفه ، فاحمر وجه كورديني خجلا ، أما الانكليزي فاستاذنه منصرفا ، ولكنه عاد بعد قليل ، ليقول انه رتب الامور كما اردت ، وانه سيصحب السيارتين معه ، ثم أطرق قليلا ورفع رأسه :

ـ ولكن يجب ان أفعل شيئا لانقاذك من هنا سأقابل المسؤولين ... الافضل ان نأخذك معنا .

واتجه صوب المركز ، ينقل خطواته حذرا بين اجساد الجرحى ، بينما اقترب كورديني من موضعي قائلا :

ـ ذهب ليحثهم على الاعتناء بك ايها الليوتنان الطيب !

ـ كيف أنت يا فرنكو ؟

ـ على ما يرام . قالها وجلس الى جانبي .

بعد لحظات لمحت ستار المدخل يرتفع ويخرج منه حمالان ووراءهما الانجليزي الطويل ، وهم يسيرون باتجاهي ، وعندما اقتربا ، خاطبهما بالايطالية .

ـ هنا .. هذا الجريح ، ولكني صحت به :

ـ أستطيع الانتظار .. هناك كثيرون جرحاهم تستدعي السرعة .. انني أشعر بتحسن وراحة الان .

ـ هلما .. هلما .. لاتكن بطلا محبا للدماء . والتفت الى الحمالين : احذرا .. انتبها جيدا .. ساقاه تؤلمـــانه كثيرا .. انه الليوتنان الاميركي سفير الرئيس ولسون . نقلني الحمالان الى غرفة التضميد ، كانت جميع المناضد مشغولة ، وفوقهـــا تجرى العمليات ، وعندمـــا لمحني الطبيب الرئيس لوح بكلابة قصيرة في يده .

ـ اصابة خفيفة ، بسيطة انشاء الله ؟

بينما اجاب الانكليزي بالايطالية :

ـ ما قد جلبته لكـــم ، الابن الوحيـــد للرئيس ولسون ، سأنتظر حتى تنتهوا منه ، ثم أنقله بأول عربة .

ثم انحنى فوقي مدمدما : ساذهب للبحث عن الليوتنان وأتمم معاملات اوراقك ·· كل شيء يسير على ما يرام ، ودفع بقامته الى الامام خارجا ·

ـ سأسرع بهذا الجريح ، قال احد الاطباء بينما رفعني اثنان فوق احدى المناضد ، التي كانت صلبة مائلة ، تفوح الروائح القوية من حولها ، روائح الادوية والدم الطازج · وفيما راح الممرض ينزع سروالي ، أخذ الطبيب يملي على الليوتنان عباراته القصيرة :

ـ جراح سطحية ، متشابكة ، في الساقين ·· وفي الركبة اليمنى ·· والقدم اليسرى ·· جرح عميق في الركبة اليسرى ·· انسلاخ في جلدة الرأس وضغطها بيده ·   ـ هل تؤلمك ؟

فأردف الطبيب :

ـ احتمال وجود كسر في الجمجمة ·· أصيب اثناء الخدمة · والتفت نحوي · هذا ما يجنبك المثول أمام المجلس العسكري بجرح نفسك تعمدا ·· هل تأخذ جرعة وسكي ؟

ـ كيف وقع لك هذا ؟ ماذا كنت تعمل ؟ تحاول الانتحار ؟·· ثم اشاح بوجهه عني ورفع صوته : سأنظف هنا ·· دمه يتجمد بشكل يلفت النظر ·

رفع الليوتنان نظره من الورقة وسأل ،

ـ ما سبب الاصابة ، فنظر الطبيب بدوره الي :   ـ كيف أصبت ؟

ـ قنبلة هاون ضخمة ·

فأردف ويداه تعملان في جراحي بشكل مؤلم جدا ·

ـ أواثق أنت من ذلك ؟

فأجبته بالايجاب وأنا أحاول الاحتفاظ بهدوئي شاعرا أن قلبي يكاد ينفرط الما ، والمقص يقطع من لحمي · ولكنه عاد يثرثر وكأنه اكتشف شيئا جديدا ··

ـ شظايا القنبلة ·· سابحث عنها الان ·

·· لا ·· ليست مستعجلة ، يكفي الـي صورتها ، وضغط بيده فوق ركبتي اليمنى : هل تؤلمك ؟ حسنا هذا لا شيء اذا ما قيس بما ستشعر به فيما بعد· اعطه كأسا من الكونياك، الالم لم يبدأ بعد، على كل حال ليس ما يخشى منه اذا لم يستفحل الامر ، ولكن كيف رأسك ؟

ـ يؤلمني كثيرا ··

ـ لا تعطه الشراب اذا، اذا كانت هنالك شظية فلن نكسب شيئا، كيف تشعر الان ؟

ـ يا الهي !· صحت وقد تصبب العرق من كل جسدي ·

ـ لا بد أن يكون هنالك شظية ، لن أضع رباطا حول الرأس ٠
وباشر في لف الاربطة بسرعة ولكن بمهارة ظاهرة ، وأخيرا صاح :
ـ حسنا ٠٠ أرجو لك حظا طيبا ٠ تحيا فرنسا !
فاجابه طبيب من المنضدة المقابلة : ليس فرنسيا ، انه أمريكي ٠
ـ ظننتكم تقولون انه فرنسي ، بالاضافة الى انه كلمني بالفرنسية ٠
ـ لا انه أمريكي أنا أعرفه قبلا وكنت أعتقد انه فرنسي ٠
عندما أصبحت خارج المركز محمولا على ناقلةخشبية والغطاء يمنع عني الرؤيا ، سمعت صوت الليوتنان يخاطبني بحنان : أيها الليوتنان ، اسمك، الاسم الاول ، اسم العائلة ، رتبتك ، مكان الولادة ، المدرسة التـي تخرجت منها ، الصف الذي أنهيته ، هل من مؤلفات ؟ نتاج آخر، اني متالم جدا لحالة راسك أيها الليوتنان ، آمل أن تتحسن عاجلا ، سأرسلك مع سيارة الاسعاف البريطانية فورا ٠
ـ لا ، انني مرتاح تماما ، شكرا ، شكرا ٠
ولكن الالم الثقيـل الذي كان الطبيب قـد اشار اليـه قد بدأ ، ثم جاء السائق الانكليزي ، وادخلني الحمالان في سيارتـه ٠ كانت هنالك حمالات أخرى ممدودة على العلاقات فوقي ، وقبل أن تقلع همس المرض الانجليزي الطويل في أذني ان لاضرورة للتخوف الشديد وان الاصابة ستتحسن سريعا ، ثم سمعته يصعد الى مقعده ، وشعرت بالسيارة تتحرك فمددت ساقي تاركا الالم يفعل ما يشاء ٠
وبينما العربة تصعد الطريق ، شعرت ان شيئا ما ينسكب علي كان في البدء بطيئا ، ثم ما لبث أن انصب كانه صنبور ماء فتح بملئه ٠ فناديت على السائق الذي اوقف السيارة متطلعا من الثقب الخلفي ٠
ـ ماذا تريد ؟
ـ الجريح على الحمالة فوقي ينزف دماء غزيرا ٠
ـ لسنابعيدين عن النهاية ، وتابع السير ، بينما استمر انصباب الدم علي٠ اردت أن أعرف مصدره بالضبط كي أتجنب تبلل جسدي، ولكن الظلمة الشاملة منعتني ، وأخيرا سمعت قرقعـة الحمالة فوقي ، فظننت ان الرجل يحاول الارتياح في ضجعته ولكن الصوت ما عتم أن انقطع وخف انسكاب الدم علي ٠
ـ كيف حاله الان نحن نشرف على النهاية ؟ صاح السائق من الثقب :
ـ لقد مات على ما اعتقد ٠

●

في غرفتي الواسعة ، في مستشفى الميدان ، أخبروني أن زائرا سيحضر ليراني في المساء ، كان النهار حارا ، والذباب يملأ الغرفة ، ولكن خادمي، المكلف بالسهر على راحتي ، كان قد صنع مذبة من اوراق مقصوصة يبعد بها الذباب عني ، الا في الساعات التي يغط بها نائما (وهي ليست قليلة) فكان الذباب يلهو بمداعبتي ، فلا اجد مفرا من تغطية يدي ووجهي والاستغراق في النوم .

وهذا ما فعلته ذلك النهار ، على اني حالما استيقظت شعرت بحرارة الجو قد ارتفعت جدا ، وبساقي قد احترقتا كثيرا ، فايقظت الخادم الذيسكب على الأربطة قليلا من المياه المعدنية ، الامر الذي رطب الفراش وجعل التمدد فوقه منعشا الى حد ما !

وبينما الخادم يفرك في جسمي المواطن التي أدله عليها ، والتي كانت تحكني بصورة غير محتملة ، دخل الغرفة طبيب وبرفقته رينالدي ، الذي ما أن لمحني حتى أسرع وانحنى فوق السرير يقبلني .

ـ كيف انت يا طفلي الصغير ؟ كيف تشعر ؟

.. احضرت لك هذه ، قارورة كونياك .

وجلس على الكرسي الذي جلبه الخادم ثم أردف :

ـ .. اخبار سارة .. سيقلدونك وساما ، الوسام البرونزي .

ـ ولماذا ؟ .

ـ لان اصابتك بليغة ، وقد علمت انك اذا برهنت لهم عن قيامك بأعمال جليلة سيقلدونك الفضي ، والا البرونزي ، اخبرني بالضبط ما الذي حدث هل قمت بعمل خارق للعادة ؟

ـ مطلقا ، أصابتني القنبلة اثناء تناول الطعام .

ـ كن رصينا !. لا بد ان تكون قد قمت بعمل ما قبل ذلك او بعده ، تذكر جيدا ..

ـ أبدا ..

ـ ألم تحمل احدا فوق ظهرك ؟. قال كورديني انك نقلت عدة جرحى

على ظهرك ٠٠ رغم ان الطبيب اكد أن ذلك من غير الممكن ٠

ـ لم أحمل أحدا ٠٠ فأنا لا أستطيع الحركة ٠٠

ـ على كل حال ٠٠ ذلك لن يؤثر ٠٠

٠٠٠ أعتقد ان بامكاننا الحصول على الوسام الفضي ٠٠ اسمع ! الـم ترفض أن تضمد جراحك قبل الاخرين ؟

ـ ولكن دون أي أضرار ٠٠

ـ لاباس ؟ انظر الى اصابتك كم هي بليغة ٠٠ أذكـر كيف كنت دائما تختار الذهاب الى الخطوط الامامية ٠٠ ومع هذا فالهجوم الاخير كان ناجحا ٠

ـ هل عبروا النهر ؟

ـ تقريبا ٠٠ وأسروا حوالي ألف جندي الم تقرأ التقرير الرسمي ؟ ٠

ـ لا ٠٠٠

ـ ساجلبه لك ، انه تقرير مفعم بالانتصارات والـ ٠٠

ـ كيف الحالة الان ؟

ـ على ما يرام ، الكل في غاية السرور ، والكل فخورون بك ، اخبرني بالضبط كيف وقع الحادث ، انـا واثـق انك ستحصـل على الفضي ، هلم اخبرني ٠ وصمت قليلا ثم أردف :

ـ ولربما حصلت على وسام بريطاني أيضا فهنالك ممرض انجليزي يعرف الحادثة سأقابله وأرى فيما اذا كان يمكن أن يرشحك ؟ لابد أن يكون بامكانه عمل شيء ، هل تتألم كثيرا ! ما رايك بكاس من الكونياك ؟ ها لو انك رأيت كيف قطعوا ثلاثة أمتار من أمعائي الرفيعة ! أول مرة أقع تحت رحمة المبضع ، على كل حال أشعر بتحسن اليوم، آه أيها الطفل المسكين، كيف تشعر الان؟ حقا انك شجاع ، لقد انسيتني انك جريح ٠

ثم فتح قارورة الكونياك وملأ كوبا :

ـ اشرب ، قرات أوراقك ، ليس هناك أية شظية ، اصفح عن ثرثرتي الكثيرة ، فأنا متاثر جـدا لحالك ، دونـك ، اشرب انـه مفيد جدا ، كلفتني خمسة عشر ليرا ، لابد أن تكون من النوع الجيد ، ماركة النجوم الثلاثة ٠

ـ بعد ان أغادرك ساذهب لمقابلة الانجليزي ٠٠ علنا نحصل على وسام آخر ٠

ـ القضية ليست سهلة كما تتصور ٠٠

ـ لا ٠٠ أنت متواضع كثيرا ٠٠ سأبعث بضابط الارتباط فهو يستطيع الاتصال بالانجليزي ٠٠

ـ هل رأيت الانسة باركلي ؟
ـ سأحضرها هنا ، سأذهب الان واحضرها هنا ٠
ـ لا ، لا تذهب الان ما هي اخبار كوريزيا ؟ كيف حال البنات فيها ؟
ـ منذ أسبوعين ولم يتبدلن ! ٠ لم أذهب الى هناك أبدا ٠٠ انهن لسن فتيات بل عجائز حرب شمطاوات !
ـ أظنها لن تؤذيك ٠
ـ ألم تذهب أبدا ؟ !
ـ فقط لأرى اذا كن قد تبدلن وجاء نوع جديد ٠٠ ومنذ لحتني أسرع الجميع يسالنني عنك٠٠ انه لامر شائن أن يبقوهن طيلة هذهالمدة الطويلة٠٠ حتى شعرن كانهن صديقاتنا ٠
ـ لربما غيرهن رفضن القدوم من الجبهة ٠
ـ طبعا رفضن ! عندهم فتيات كثيرات ٠
ـ ولكنها الدعاية السيئة ٠٠ يحتفظون بهن لمتعة جنود المؤخرة ، ونحن جيران الموت لا ٠٠
ـ يا رينالدي المسكين ! هكذا أصبحت وحيدا اذا ٠ لا بنات لا ممرضات ولا ٠٠
فملأ كوبا آخر وقربه مني ٠
ثم رفع كاسه متظاهرا بهدوء الاعصاب وصاح :
ـ نخب جراحك الباسلة ، نخب الوسام الفضي ، ولكن قل لي الا تشعر بالضيقوأنت مضطجع هكذا طيلة الوقت ؟
ـ احيانا ٠
ـ انا لا أعتقد أن بامكاني احتمال ذلك ٠
ـ أنت ولد احمق ! ٠
ـ آه ، كم تمنيت ان تكون معي في الغرفة !٠
٠٠ ليس هناك من يقرع الباب متأخرا هذه الايام ، عائدا من مغامرات الليل ، لا احد أستدين منه الدراهم ، لا أحد اهزأ منه !
ـ والكاهن ؟
ـ الكاهن ؟ لست أنا الذي اهزأ بالكاهن ، الكابتن هو الذي يفعل ذلك ، أما أنا فاحبه وأعتقد أنه اذا قدر لاحدنا مرافقة كـــاهن، فعليه أن لا يرضى بسواه وقد علمت انه سيزورك وانه يستعد استعدادا كبيرا لذلك ٠
ـ وانا أيضا احبه ٠

ـ أعرف ذلك ٠٠ واظنكما تنسجمان أحيانا في ذلك الشيء ٠ هل فهمت؟
ـ ابدا ٠٠ أيها الاحمق !
ـ بلى ٠٠ أحيانا ٠٠
ـ لا ! ليأخذك الشيطان !
ثم وقف مردفا :
ـ كم أحب اغاظتك يا صبي ٠٠ أنت وكاهنك وفتاتك الانجليزية ٠٠ وفي الحقيقة ، أنت مثلي من الناحية الجنسية ٠
ـ لا ، لست كذلك ٠
ـ بلى ، تماما ٠ أنت في حقيقتك ايطالي ٠٠ نار ودخان ولا شيء آخر ٠٠ فقط تتظاهر بالامريكية ٠٠ على كل نحن اخوان ويجب أن نحب بعضنا بعضا ٠
ـ اذا كن أمينا أثناء غيابي ٠
ـ أطمئن ، سابعثها اليك ، وبالطبع ستشعر براحة أكثر معها ٠٠ وستنتعش وتسر و ٠٠
ـ اذهب الى الجحيم أيها الاحمق ٠
ـ ومع ذلك سابعثها اليك ٠٠ الهتك المفضلة ، الباردة ، الالهة الانجليزية ٠٠ يا ويحتاه ماذا يمكن لرجل ان يفعل مع فتاة من هذا النوع ؟ ٠٠ سوى أن يعبدها ؟ لأي شيء آخر تصلح الانجليزية ؟ سوى ان يعبدها ؟! لاي شيء اخر تصلح الانجليزية ؟
ـ أنت حشرة بلسان قذر ٠٠
ـ ماذا ؟ ٠٠
ـ حشرة ٠٠
ـ وانت حشرة بوجه مقزز ٠٠
ـ وانت غبي أحمق ٠٠
وكأن الكلمة أثرت به فالحقتها :
ـ ٠٠ بلا ثقافة ، بلا خبرة ، ساذج ٠٠
ـ حسنا ٠٠ ولكني سأخبرك شيئا عن فتاتك الطيبة ، عن الهتك ، يوجد فرق واحد بسيط بين الزواج من صبية عذراء والزواج من امرأة ، وهذا الفرق ان الصبية تتألم ، ولن يستطيع احد معرفة فيما اذا كانت العذراء ترغب في هذا الالم ام تمقته ؟!
ـ ولكن لاحاجة بك الى الغضب ؟
ـ لست غاضبا ٠٠ انما أخبرتك ذلك رغبة في اصلاحك ٠٠ لاوفر عليك

مالك ووقتك وجهودك ٠

ـ اواثق انت ان ذلك هو الفرق الوحيد ؟

ـ تماما ! ولكن الملايين من الاغبياء أمثالك لا يعرفون شيئا من هذا ٠

ـ اشكرك اذا لهذه النصيحة ٠

ـ على كل حال لن نتشاءم ٠٠ فانا أحبك جيدا ، ولكن لا تكن أحمق ٠

ـ لا ! سأحاول ان أكون عاقلا ٠٠ مثلك !

ـ اذن هدىء من روعك ، أضحك ٠٠ هل تأخذ جرعـــة ؟٠ يجب ان انصرف ٠

ـ انك طفل كبير ، طيب القلب ٠

ـ والآن ، أرأيت كيف اننا متشابهان من الناحية الغريزية ، نحن اخوان في الجندية ، وداعا ٠

ـ أراك مضطربا ٠

ـ لا ! ٠ انما منفعل العاطفة ، الى اللقاء ، سازورك ثانية ، لن أقبلك اذا كنت لا ترغب ، سارسل الفتاة الانجليزية ، وداعا ، قارورة الكونياك تحت سريرك ٠٠

٠٠ أرجو لك تحسنا عاجلا ٠

كان الوقت مساء عندما حضر القس ، كنا قد تناولنا حساء العشاء ، وجمع الخدم الاطباق من على المناضد الصغيرة ‎٠٠‏ فاضطجعت في سريري ، أتطلع الى صفوف الاسرة ، ثم توجهت بنظري خلال النافذة ، حيث تبدو قمم الاشجار ، يداعب أغصانها نسيم المساء المنعش ، أما الذباب فقد بدأ يتجمع بقعا بقعا على قضبان السقف وعلى أعالي الجدران ـ ولم تكن الانوار لتضاء الا عند ادخال جريح أو اخراج آخر ، وأعادت ظلمة المساء المبكرة هذه الى نفسي ، ذكرى الايام البعيدة ، أيام طفولتي ، يوم كنا قد اعتدنا على تناول عشائنا باكرا ، حال غروب الشمس ، ثم يطفأ الضوء بعد أن نكون قد وضعنا في أسرتنا ‎٠‏ وبينما أنا أهيم في عذوبة تلك الذكريات اذ رأيت الكاهن يسير بين صفوف الاسرة وهو يتبع خادمي ‎٠٠‏ واخيرا توقف أمامي بحجمه الصغير ووجهه الاسمر الهادىء ونظراته المتأثرة ‎٠٠‏

ـ كيف أنت ؟ سألني واضعا بعض الرزم على يديه على الارض بجانب السرير ‎٠٠‏

ـ حسنا يا أبت ‎٠٠‏

فجلس على الكرسي الذي أحضر لرينالدي ، وتطلع بنظره بعيدا خارج النافذة ، وامارات الحزن العميق بادية على محياه ، بينما آثار التعب تنطق بها كل قسمات وجهه ‎٠‏

ـ لا استطيع المكوث طويلا !

ـ الوقت ما زال باكرا ‎٠‏ كيف حال الجماعة ؟

فابتسم مجيبا :

ـ ما زلت مهزلتهم الكبرى ‎٠‏ نشكر الله انهم جميعا بخير ‎٠‏ وأنت أرجو أن لا تكون متألما ‎٠‏

ـ أبدا ‎٠٠‏

ـ انني افتقدك دائما ، وخصوصا أثناء تناول الطعام ‎٠‏

ـ كم أتمنى لو أكون معكم ‎٠٠‏ كنت دائما أستطيب الحديث معكم ‎٠٠‏

ـ جلبت لك بعض الاشياء البسيطة ، ورفع الرزم · هذه(ناموسية)··
وهذه قارورة نبيذ ·· انك تحبه ؟ أليس كذلك ؟ وهذه صحف انجليزية !
ـ أرجوك ! اعطني اياها ··
فطفح وجهه سرورا وهو يناولني اياها ، فامسكت باحداها بحيث ينير ضوء النافذة نصفها الاعلى وقرأت عناوينها الكبيرة ثم سألته :
ـ كيف استطعت الحصول عليها ؟
ـ أرسلت في طلبها من بلدة مستري ، وسأحصل على غيرها ·
ـ أشكرك جدا لقدومك ، هل تأخذ كأس نبيذ ؟
ـ شكرا ، احتفظ بها لنفسك ، انها لك ·
ـ لا ، فقط كأسا ·
ـ كما تريد ، سأجلب لك أخرى في المرة القادمة ·· وبينما هو يعالج اخراج سدادتها ، انزلق جزء منها الى اسفل ، فظهر الارتباك على وجهه ولكنه قال :
ـ لا بأس ،لا بأس ··
ـ نخب صحتك يا ابتاه ··
ـ نخب شفائك التام يا بني ·
واخذ كل منا ينظر في وجه الاخر ، كنا فيما مضى نتحدث كصديقين ندين ولكن الامر يختلف الآن ·
ـ ما بك ؟ أراك مرهقا يا ابتاه ؟
ـ انني مرهق جدا ، ولكن دون سبب ما ·
ـ اخشى أن تكون حرارة الجو قد أرهقتك ·
ـ لا وانما هو الربيع ، أشعر خلاله بانحطاط قواي ·
ـ أو يكون نفورك من الحرب قد اضر بك ·
ـ أبدا ، مع اني قد أمقت الحرب والعنها دائما ·
ـ اما انا فاسر بها وأباركها ·
فهز رأسه وذهب بنظره بعيدا ثم أردف : لانك لا تدرك حقيقتها ، لا تعرف فظائعها،لا تقاسي ويلاتها ، سامحني،أعرف انك جريح ، وانك تتألم··
ـ لا ! اصابتي سطحية عابرة ·
ـ ومع انك مصاب ·· فانت لا تدرك حقيقتها ·
·· باستطاعتي ان أوضح لك قليلا ··
ـ قبل اصابتي ، كنا نتحدث عنها ، باسيني كان يتحدث عنها ··

فوضع الكوب من يده ، وبدا كأنه يفكر في أمر بعيد :
ـ بلى ٠٠ أنا أعرفهم لانني مثلهم ٠
ـ ومع ذلك فانت تختلف عنهم ؟ !
ـ ولكن الحقيقة اني مثلهم ٠
ـ كل الضباط الكبار لا يقاسون شيئا ٠
ـ بعضهم يقاسي ، والبعض حساس يقاسي اكثر منا ٠
ـ ولكنهم يختلفون عنا في معظم الاشياء ٠
ـ القضية لا تنحصر في الثقافة والمال فقط ، انها مسألة أخرى ، حتى لو ملك غيرهم الثقافة والمال ، فلن يرغبوا ان يصبحوا ضباطا، كباسيني مثلا ، وكذلك أنا لا يمكن أن أصبح ضابطا ٠
ـ ولكنك مثلي برتبة ضابط ؟
ـ لسنا في الحقيقة كذلك ، وأنت لست حتى ايطاليا ٠
ـ وما الفرق في ذلك ؟
ـ لا أستطيع تفسيره بسهولة ٠ هناك أناس يحبون اشعال الحروب، وعندنا منهم كثيرون ، بينما آخرون يمقتون ذلك ٠
ـ ولكن الفئة الاولى تدفعهم اليها ؟
ـ نعم ٠
ـ وأنا أؤيدها !
ـ أنت أجنبي ٠٠ رجل وطني متطوع ٠
ـ والذين لا يرغبون في الحرب ، ألا يقدرون على منعها ؟
وتطلع خارج النافذة ثانية ، بينما رحت أتأمل انفعالات وجهه ٠
ـ الم يكونوا يوما قادرين على منعها ؟
ـ ليسوا منظمين وعندما يصبحون كذلك يخدعهم زعماؤهم ويخونوهم ٠
ـ اذا لا أمل في الخلاص منها ؟
ـ لا ، ليست القضيـة يائسة ، ولكنـي أحيانـا أشعر باليأس ، رغـم محاولتي دائما في تقوية أملي ٠
ـ من المحتمل أن تنتهي الحرب على كل حال !
ـ يا الهي أرجو أن يكون الامر كذلك ٠
ـ وماذا ستفعل عندئذ ؟
ـ سأرجع الى أبروزي موطني ٠
وعم الفرح أسارير وجهه :

- اني احب تلك البلاد ، أحبها كثيرا ، كم ساكون سعيدا لو تقدر لي العودة الى هناك ، اعيش هناك وأحيا في عبادة الله وخدمته .

- وفي فرض احترامك على الناس !

- ليس هذا بالامر المهم، ففي بلادي تعتبر محبة الله من القضايا الاولية، لابدعة مصطنعة .

- فهمت مرادك .

- فهمت ! ولكنك لا تحب الله .

- مطلقا .

- مطلقا ؟

- في بعض الليالي فقط أخافه خوفا .

- ينبغي أن تحبه ، وهذا الذي قلته عن خوفك اياه في الليل ليس حبا ، انما هو عاطفة ورهبة . عندما تحب تندفع الى العمل ، الى التضحية ، الى الخدمة والطاعة .

- أنا لا أحب .

- لا بد ان تحبه يوما ، وعندها ستكون سعيدا .

- لقد كنت دائما سعيدا .

- ولكنها سعادة من نوع آخر ، لن تعرف لذتها ما لم تنلها .

- حسنا ، اذا ما نلتها يوما ساخبرك عن طعمها .

وظهر كأنه تضايق فهز رأسه قائلا :

- يجب أن اذهب الان ، لقد مكثت طويلا .

- لا ، لا تذهب ، ماذا عن حب النساء ؟

.. اذا ما احببت امرأة حبا حقيقيا ، أتكون اللذة كما تقول ؟

- لا افهم في هذا الموضوع ، فلم يحدث ان أحببت امرأة أبدا .

- والدتك ألم تحبها ؟

- طبعا ، ليس من شك اني أحببتها يوما .

- هل أحببت الله دوما ؟

- منذ أن كنت صبيا صغيرا .

- حسنا ، لا أدري بماذا أجيبك ، فأنت صبي لطيف .

- صبي ؟ ولكنك تدعوني « ابتاه » .

- من قبيل التأديب .

فابتسم .. سأنصرف الان ، هل تريدني من أجل أي شيء ؟

ـ للحديث فقط ٠
ـ ساحمل تحياتك الى الجماعة ٠
ـ أشكرك لهداياك اللطيفة الكثيرة ، تعال لزيارتي مرة اخرى ٠
ـ ان شاء الله ٠٠ الى اللقاء ٠٠

●

اشتدت ظلمة الغرفة ، ونهض الخادم من جانب السرير يشيع القس ٠

كنت اشعر نحوه بالحب ، وكنت أرجو له من كل قلبي ، عودة عاجلة الى ابروزي ٠

كانت ايامه مع فرقتنا يتخللها احراج شديد ، ومضايقات كثيرة ، ومع ذلك فقد كان يتقبلها كلها بصدر رحب ، وطيبة خاطر ٠

وتصورت كيف يمكن أن يكون حاله في بلده ، حيث والده الصياد الشهير يخرج الى الصيد كل صباح ويتناول طعامه في بيوت الفلاحين ، بينما يمنع الاجنبي من الصيد حتى يحضر شهادة تثبت انه لم يرتكب جرما مدى حياته ٠

وأخيرا قرروا ترحيلي ، فلقد سالني مدير المستشفى ، صباح اليوم التالي ، فيما اذا كنت أشعر بالقدرة على السفر ، ولما أجبته بالايجاب قال أن ذلك سيتم صباحا وان الرحلة ستكون افضل بكثير مما لو تاخرت قليلا لتوقع اشتداد الحرارة ٠

كان معظم أطباء المستشفى المذكور من الايطاليين ، تتحلى غالبيتهم بطيبة نفس خالصة ، ويستطيع المرء بعد أيام معدودات من التعرف بهم أن يوطد صداقته معهم ، ولذلك أبدى الجميع أسفهم وتاثرهم لفراقي، ولكنهم قالوا ان مستشفى ميلان ، الذي سأنقل اليه ، تتوفر فيه وسائل افضل ، خصوصا فيما يتعلق بجهاز اشعة اكس وبمتطلبات فترة النقاهة التي لا بد من قضائها بعد اجراء العملية الجراحية ، كما انهم في الوقت نفسه يرغبون بلهفة الى أن يشغر كل سرير في مستشفاهم استعدادا لاستقبال الجرحى الجدد الواردين من الجبهة مؤخرا ٠٠ بالاضافة الى رغبتي القوية في الانتقال الى ميلان ٠

* * *

في آخر ليلة لي بمستشفى الميدان ، زارني رينالدي بصحبة لفتنانت الفرقة وأخبراني أن الولايات المتحدة أعلنت الحرب على ألمانيا فقط ، دون النمسا ، وأنها لذلك انشأت مستشفى أمريكيا في ميلان ، سأعالج فيه ، كما سيعالج فيه معظم الرعايا الاميركيين الذين هم في خدمة الحربية ٠

كان يبدو على الرجلين شأن جميع الايطاليين ، فرح ظاهر لدخول الولايات المتحدة الحرب الى جانبهم ، ولذلك كانوا يظهرون كل اهتمام بكل ما هو أميركي حتى ولو كان من رجال الصليب الاحمر الاميركي ٠

وبعد ان ابتدأنا بالشرب سألني الاثنان فيما اذا كنت أعتقد أن الرئيس ولسون سيتبع خطوته تلك بخطوة مماثلة ضد النمسا ، فأجبتهما ان المسألة قضية أيام فقط ، رغم اني لم أكن أعرف في الحقيقة الاسباب التي من أجلها

دخلنا الحرب ضد المانيا ، ولكني رأيت انه بات منطقيا بعـد هذه الخطوة أن نحارب النمسا أيضا . اما فيما يتعلق بتركيا، فاجبتهما أن الامر مشكوك فيه، قائلا أن تركيا هي عصفورنا المدلل ، والظاهر انهما لم يتفهما روح النكتة التي قصدتها فاعتقدا أن جوابي يعني اننا سنحاربها هي أيضا، فزادت امارات الفرح على وجهيهما ، ولما جاء دور بلغاريا ، وكنت قد أكثرت من الشراب ، رفعت كأسي صائحا :

ـ طبعا ، وسنحارب اليابان كذلك .

ـ ولكنها حليفة انجلترا ، وهذا مما يثير الخداع الانجليزي ضدنا .

ـ نريد الاستيلاء على جزر الهاواي .

ـ وأين تقع جزر الهاواي هذه ، سأل اللفتنانت .

ـ في المحيط الهادي .

ـ ولماذا يريدها اليابانيون ؟

ـ في الحقيقة هم لا يطمعون بها انما يزعمون ذلك .

فعلق اللفتنانت :

ـهؤلاء اليابانيون شعب عجيب ، مغرمون جدا بالرقص والخمر ، تماما كالفرنسيين .

ـولذلك سننتزع سافوي ونيس من فرنسا وكذلك كورسيكا وساحل الادرياتيك .

قال ذلك رينالدي فأجابه اللفتنانت :

ـ ستستعيد ايطاليا أمجاد روما .

وعندها قلت :

ـ لا ، لاأحب روما ، انها حارة ومليئة بالبراغيث أثناء الليل .

فصاح اللفتنانت :

ـ لاتحب روما . روما ام الدنيا . كيـف تقول ذلك ؟ ليتنا جميعا في روما الان . بل ليتنا نذهب الليلة ولا نعود أبدا .

روما مدينة رائعة .

ـ طبعا ، أم الدنيا وأبوها .

فقال رينالدي :

ـ لا روما مؤنثة فلا يمكن ان تكون أبا .

فأجبته : ومن أب الدنيا اذن ؟ الروح القدس ؟

ـ لا تكفر ·
ـ انا لا اكفر ، انما أريد الاستفسار فقط ·
ـ لا · أنت مخمور ·
ـ صحيح ، ولكن من دعاني الى الشرب ·
ـ انا دعوتك الى الشرب ، لاني احبك ولان اميركا دخلت الحرب ·
ـ دخلتها حتى النهاية ، أجبته ·
وعندها سألني رينالدي :
ـ ستسافر صباحا ؟
ـ نعم · الى روما ؟
ـ لا ، الى ميلان ! الى القصر البلوري ·
ـ الى الكوفا ، الى كاميري ، الى بافي ·
ـ الى المتحف الفخم يا لك من صبي محظوظ ·
ـ ايطاليا العظمى ، ذات الامجاد ·
ـ لا تنسى الذهاب الى مقهى سكالا ·
ـ سأذهب الى هناك كل ليلة ·
ـ لن تستطيع ذلك ، لانه يكلفك كثيرا ·
ـ سأحصل على حوالات مالية من المصرف ·
ـ على ماذا ؟
ـ حوالات مالية لحساب جدي ·
ـ لماذا لا تكون غريبا لدى أميركا ؟
ـ مرحى للحوالات المالية ، قلت ذلك بصوت مرتفع ·
وعندئذ قال اللفتنانت :
ـ كفى ، يجب ان نخفض اصواتنا ، لقد نبهونا الى ذلك عدة مرات ،هل حقا ستسافر غدا صباحا !
فاجابه رينالدي :
ـ طبعا الى المستشفى الاميركي كما أخبرتك ·
فهز رأسه : نعم ، الى المستشفى الاميركي حيث الممرضات الجميلات لا رجال التمريض ذوي اللحى الكثة ، كما هو الحال هنا ·
ـ هلم ينبغي ان تذهب ، ولكن ··· ها عندي مفاجأة لك ·· الممرضة الانجليزية التي كنت تزورها كل يوم ، ستنقل الى المستشفى الاميركي في ميلان ، هي وزميلة لها ·

ـ رائع تماما ٠
ـ وكيف لا ، ستعيش في مدينة كبيرة ، وبجانبك الفتاة التي تحب ، لماذا لم أجرح بدوري ٠
ـ لربما جرحت قريبا ٠
ـ على كل حال ينبغي ان تذهب ، يكفينـــا شرابا وضجيجا ٠٠ حظا سعيدا يا فدريكو ٠
بينما اقترب رينالدي وقبلني ٠
ـ لا تتأخر كثيرا ، الى اللقاء ٠

• • •

في الصباح التالي غادرنا الميدان وبعد ثمان وأربعين ساعة من الرحلة الشاقة وصلنا الى ميلان ٠

وصلنا ميلان في الصباح ، ومن ساحة المحطة العامة ، نقلتني سيارة اسعاف الى المستشفى الاميركي ٠

كنت متلهفا لرؤية الاماكن التي نجتازها ، ولكن تمددي فوق المحفة ، حال بيني وبين رغبتي القوية ، في تأمل مناظر المدينة ، البعيدة عن أزيز الرصاص ، وهدير القنابل ، على ان رغبتي القوية تلك ، دفعتني في مرحلة الطريق الاخيرة ان أشرئب بعنقي وأتطلع من نافذة السيارة الخلفية :

كان المكان سوقا واسعا ، تقع في طرفه دكان خمور ، انحنت فوق أرضها صبية تكنس ما خلفته ليلة امس ، بينما انهمك فتيان آخرون في رش الماء على السوق ٠

شممت رائحة الصباح الباكر تفوح من أرجاء الطريق ، وأخيرا بلغنا المستشفى ففتح الرجلان باب السيارة وأنزلا المحفة أرضا، بينما اتجه السائق مسرعا الى الداخل ، ثم عاد ومعه رجل ذو شاربين ، قد خطهما الشيب ، وقبعة رسمية عرفت منها انه حاجب المدخل ، وراح الجميع يتشاورون بصوت منخفض ، ثم علا صياحهم واحتدم الجدل فيما بينهم ، هل يرتقون بي السلالم درجة درجة ؟ أم يستعملون المصعد ؟ لقد كانت المحفة أضخم من أن يسعها المصعد ، والظاهر انهم اتفقوا أخيرا على ان أتمسك بعنق أحد الرجال ، ويمسك الآخر بقدمي وهكذا ينقلاني داخل المصعد الى الطابق الرابع٠وبالفعل رفعتني الايدي القوية عن المحفة ورأيت أن أحذرهم ، لئلا تسكرهم سهولة الحل الذي ارتأوه ، فخاطبتهم متوددا :

ـ رويدا ، فلسنا على عجل ٠

ـ اطمئن ايها الليوتنان ، لا بأس عليك ٠

وازدحم المصعد بنا ، ووقف الرجلان في مقابل بعضهما ، وانا بينهما قد تكومت ساقاي والالم ينهشهما نهشا موجعا حادا لم استطع عليه صبرا ، فصحت بهما :

ـ مدا ساقي ٠٠ مداهما ٠
ـ لن نستطيع أيها الليوتنان ، فالمصعد ضيق جدا ٠

قال ذلك الرجل الذي أمسك بعنقه ، بينما يلف هو ذراعه حولي ، وينفث زفيره في وجهي ، مما جعلني اكتشف انه بات ليلته مخمورا ، مكثرا من الشراب ومن أكل الثوم ٠

ـ ترفق بالجريح ، صاح الرجل الاخر ، الممسك بقدمي ٠
ـ ابن الكلبة ، من لا يترفق به ؟

ـ قلت لك ترفق به ، كرر الرجل الاول وغلق الباب ، ثم ضغط باصبعه فوق زر الطابق الرابع ٠ تطلعت الى وجهه فاذا به يحاول الظهور بمظهر غير الخائف ، ولكن ما ان تحرك المصعد حتى بادرت شفتاه تردد اسم يسوع فانسحت بوجهي نحو الرجل ذي رائحة الثوم ، وسألته :
ـ الحمل ثقيل ، أليس كذلك ؟

ـ لا ، لا اطمئن ايها الليوتنان ٠ ومسح العرق المنصب على وجهه ، بينما ضغطت أسنانه فوق شفتيه كأنه يترقب حدثا ٠ ولكن المصعد توقف ، وحالا دفع الرجل حامل قدمي الباب ، وخطا خارجا ، يتبعه الاخر ، فوقفنا في اول رواق طويل ، على جانبيه ابواب ذات اقفال نحاسية ٠ فقرع الحمال الجرس المقابل ، ولكن احدا لم يفتح فاعاد القرع ، ولكن دون جدوى ٠ وبعد قليل اذا بالحاجب يكاد يفقد أنفاسه ، مهرولا نحونا ، والظاهر انه ارتقى السلم وثبا ٠

ـ أين هم ؟ ألا يوجد أحد ؟ ساله الرجل ذو رائحة الثوم ٠
ـ لا ادري انهم ينامون في الطابق الاسفل ٠
ـ ارسل لنا أحدهم اذا ٠

ولكنه بدلا من أن يفعل، راح يقرع الباب المقابل بعنف، ويدفعه بكلتا يديه ، حتى اذا ما انهزم المصراعان أمامه ، اسرع داخلا ، ثم عاد ، ووراءه ممرضة عجوز ، على عينيها نظارتان عتيقتان ، وقد ابيض النصف المتبقي من شعرها الاشعث ، وعندما اقتربت منا ، اندفع الحمالان يخاطبانها بالايطالية، وأمارات الغضب بادية على وجهيهما ، وفي تبرات صوتهما ، ولكنها أجابت بالانجليزية : لا افهم ما تقولانه ٠٠ لست ايطالية ، فبادرتهما :

ـ انا اتكلم الانجليزية ٠

ـ لا يوجد لدينا اية غرفة جاهزة ٠٠ ولم يخبرونا بقدوم اي مريض ٠٠

ثم أخذت تعبث بشعرها محاولة استراق النظر الي :

ـ لم نكن نتوقع قدوم احد هذا اليوم و ...

فقاطعها الحاجب غاضبا :

ـ أريهم أية غرفة جاهزة .

وعندئذ صحت بها :

ـ أية غرفة ! ثم التفت الى البواب وخاطبته بالايطالية :

ـ افتح اقرب غرفة شاغرة .

ـ جميع الغرف شاغرة .. فأنت المريض الاول .. وحمل قبعته بيده، متطلعا الى الممرضة العجوز ، كأنه ينتظر أوامرها .

ـ من أجل يسوع ، ضعوني في أية غرفة !

كان الالم قد بلغ الذروة ، حتى أنني لم أعد احس بساقي ، وشعرت كأن سنانا حادة تخترق عظامي .

والظاهر انهم لاحظوا ذلك ، فاسرع الحاجب ودخل احدى الغرف ، تتبعه الممرضة العجوز ، ثم عاد واشار بيده : اتبعوني .

فتبعه الحمالان وأنا بينهما ، وقبل أن نجتاز عتبة الغرفة ، عبقت في أنوفنا رائحة اثاثها الجديد .

سرير معدني واحد وخزانة خشبية لم يجف طلاؤها بعد .

ـ الاغطية جميعها موصد عليها داخل الخزانة .

ـ لن استطيع وضع غطاء فوقك ، صاحت العجوز ، فلم أجبها ، ولكني قلت للحاجب :

ـ يوجد نقود في جيبي ، هاتها لي .

فاحضرها ، بينما وقف الحمالان الى جانب السرير ، كل قبعته بيده ، يحاول تجفيف العرق المتصبب من وجهه : اعطهما خمسة لير ، وخذ خمسة أخرى لك ، ثم أخرج أوراقي من الجيب الاخر وسلمها للممرضة .

حياني الرجلان وانصرفا شاكرين ، وعندها قلت للعجوز :

ـ هذه الاوراق تصف مرضي ، والعلاجات التي استعملت قبلا .

فقربتها من عينيها ، وراحت تحدق بها .

ـ وماذا سافعل بها ؟ لا أحسن قراءة الايطالية . ولن أقوم بشيء دون أمر الطبيب .

قالت ذلك بصوت مرتفع داسة الاوراق في جيب ثوبها ثم اردفت :

ـ هل أنت اميركي ؟

- نعم ، وأرجوك وضع الاوراق هنا ، على هذه الطاولة ٠

كانت الغرفة رطبة ، ضعيفة الانارة ، وكنت استطيع ، وانا مستلق على ظهري ، رؤية أعلى المرآة تجاهي ، دون أن اتمكن من رؤية الأشياء التي تعكسها، كان الحاجب ما زال واقفا الىجانب السرير بوجهه الوسيم، ونظراته الرحيمة ، ولم اكن بحاجة اليه بعد ، فأمرته بالانصراف ، والتفت الى الممرضة :

- بامكانك ان تنصرفي ، ولكن ما اسمك ؟

- السيدة فروكر ٠

- حسنا ، اعتقد انني سأنام الان ٠

على انه لم تمض دقائق قليلة حتى أحسست بالعطش ووجدت شريط الجرس قريبا مني ، فمددت يدي وضغطته مرة ومرتين وثلاث مرات ، ولكن احدا لم يأت ، فأغمضت عيني واغرقت في النوم ٠

وعندما افقت كانت أشعة الشمس تملأ الغرفة ورأيت أن ساقي قد تمددتا ، دونما وعي مني ، باربطتهما القذرة ، غير ان عطشي الشديد لم يدع لي مجالا للتفكير بهما ، فضغط على الجرس مطولا ، وسرعان ما انفتح الباب، ودخلت ممرضة شابة على وجهها تبدو مسحة من الجمال ٠

- عمي صباحا ٠

- عم صباحا ، واقتربت من السرير ثم أردفت :

- لم يكن أحد منا يعرف ان مريضا سيحضر ٠ على كل حال مم تشكو ؟

- مصاب بساقي وبرأسي ٠

- ما اسمك ؟

- هنري ٠٠ فردريك هنري ٠

- سأقوم بغسل جسدك الان ، ولكن بالنسبة للضمادات لن نستطع عمل شيء ، حتى مجيء الطبيب ٠

- هل الانسة باركلي موجودة هنا ؟

- لا ، لا يوجد أحد بهذا الاسم عندنا ٠

- اذا من هذه السيدة التي أخذت بالصياح عند وصولنا ٠

- انها السيدة ووكر كانت في خدمتها الليلة ، ولم تكد تنصرف للنوم ، حتى ايقظتموها ٠

وبينما كنا نتحدث ، راحت تنزع ثيابي ، ثم جعلت تمرر خرقا مبللة بالماء ، على اعضاء جسدي العارية ، مما جعلني أشعر بانتعاش ونشاط اما هي

فتابعت عملها بتأن ورفق ، وعندما فرغت سألتني :

ـ اين أصبت بجراحك هذه ؟

ـ في ايزنزو ، شمال بلافا ·

ـ في أية ناحية ؟

ـ شمال كوريزيا ·

ولاحظت ان أيا من هذه الاماكن لا يعني شيئا لديها ·

ـ وهل تألمت كثيرا ؟

ـ لا ، ليس كثيرا ·

فوضعت ميزان الحرارة في فمي ·

ـ الايطاليون يضعونه تحت الابط ·

ـ لا تتكلم !

ثم سحبته وقرأته ·

ـ كم هي حرارتي ؟

ـ ليس مفروضا ان تعرفها ·

ـ ولكن اخبريني كم تكون ؟

ـ تقريبا طبيعية ·

ـ حقا ، فانا لا أشعر بالحمى ابدا ·

ـ بماذا ؟

ـ بشظايا قنابل الهاون ·

فهزت رأسها مبتسمة :

ـ لو ان هناك أية أشياء غريبة في جسمك لكنت تشعر بحرارة ·

ـ حسنا ، سوف نرى ما ستخرجون منها ·

وبعد قليل خرجت من الغرفة ، ثـم عادت برفقة الممرضـة العجوز ، فتعاونتا على ترتيب السرير ، وانا فوقه ، الامر الذي كان جديدا علي ، بل تقدما مدهشا ، حيث ممرضو مستشفى الميدان يتعاونون على انزالي من على السرير ثم ارجاعي فوقه كيما يستطيعون ترتيبه ·

ـ من المسؤل هنا ؟

ـ الآنسة فان كامبن ·

ـ كم ممرضة جميعكن ؟

ـ اثنتان فقط ·

ـ الن يزداد عددكن ؟

ـ علمنا ان البعض قادمات قريبا ٠
ـ ومتى سيصلن ؟
ـ اف ٠٠٠ كم انت كثير الاسئلة !
ـ لا نعرف !
ولما انتهينا من تنسيق السرير ، استلقيت على الغطاء النظيف ، ثم ذهبت السيدة ووكر واحضرت معطف بيجامة جديد ، فتعاونتا ثانية على الباسي اياه ٠
ـ كم انتما رحيمتان بي ! هل بالامكان تناول كوب من الماء ؟
لا اريد فطوري ، وانما اريد فتح النوافذ على مصراعيها ٠
وحالا تم ذلك ، واستطعت رؤية سطوح المنازل ومداخلها ، وتأمل السماء الزرقاء ، صافية تشوبها آثار غيوم عابرة ٠
ـ الا تعرفين متى ستصل الممرضات القادمات ؟
ـ لماذا ؟ الم ترق لك خدمتنا ؟ الم نعتن بك كما يجب ؟
ـ لا ، انكما نشيطتان تماما ٠
ـ هل ترغب في استعمال المروحة ؟
ـ ساجربها ٠٠٠ متى سيصل الطبيب ؟
ـ عندما يعود ، وسنحاول الاتصال به هاتفيا ٠
ـ اليس هناك طبيب آخر ؟
ـ انه طبيب المستشفى الخاص ٠
احضرت الانسة جكلد ، الممرضة قارورة ماء وكوبا نظيفا ، فشربت ملء ثلاثة أكواب ، واشرت عليهما أن ينهضاني ، ففعلتا ذلك ثم خرجتا ٠ اخذت اتطلع من خلال النوافذ ، اسرح طرفي خارجا ، ولما مللت ، عدت الى التمدد فالنوم ٠
عند الظهر ، تناولت غذاء خفيفا ، ثم حضرت رئيسة الممرضات ، الانسة فان كامبن لتراني ، ومنذ النظرة الاولى لم تقع من قلبي موقعا حسنا ، كانت صغيرة الحجم ، خبيثة النظرات ، تصلح لمركزها كرئيسة ، وسألتني عدة اسئلة ، تراءى لي من خلالها انها لم يرق لها وجودي في الحرب مع الايطاليين وخطر لي أن استفيد من وجودها فبادرتها :
ـ هل استطيع احتساء الخمر مع الطعام ؟
ـ فقط اذا سمح الطبيب بذلك ٠
ـ اذا لا استطيع تناولها حتى حين قدومه ؟ !
ـ طبعا لا تستطيع ٠

ـ وهل عملتم ليكون قدومه في اسرع وقت ؟

ـ اتصلنا به هاتفيا الى بحيرة كومو ؟ !

ثم أدارت ظهرها وخرجت ولم تمض هنيهة حتى فتحت الباب الانسة كاج : ـ

ـ لماذا كنت فظا مع الانسة كامين ؟

ـ لم اقصد أن اكون كذلك ·

ـ ولكنها قالت أنك تكلمت معها بكبرياء ، وكنت فظا ·

ـ لم أكن كذلك ولكن ما الفائدة من مستشفى بدون طبيب ؟ !

ـ انه آت ! اتصلوا به هاتفيا الى بحيرة كومو ·

ـ وماذا يفعل هناك ؟ · يسبح ؟ !

ـ لا ، عنده عيادة ، يعالج مرضى الناحية ·

ـ اذا لماذا لم يحضروا طبيبا اخر ·

ـ صه · صه ! كن هادئا وسوف ياتي الطبيب ··

استدعيت الحاجب ، واخبرته بالايطالية أن يجلب لي قارورة وسكي وقارورتي خمر ، وصحف المساء ، فعاد بعد قليل ، وقد لف القوارير الثلاث بالصحف ، فطلبت اليه نزع سداداتها ووضعها تحت السرير · ثم تركني وحيدا، فاحتسيت بعض الخمر ورحت اقرأ في الصحف: أخبار الجبهة وقائمة اسماء القتلى من الضباط والاوسمة التي تقلدوها ، بعد موتهم طبعا ، ثم مددت يدي الى أسفل ، وتناولت قارورة الوسكي ، ووضعتها فوق صدري واخذت احتسي جرعةجرعة، وبينما انا أفعل ذلك كنتأتامل الظلام يزحفعلى المدينة ، والسنونو يتنقل بين السطوح ، ثم دخلت الانسة كاج وبيدها قدح به بيضة ، فانزلت قارورة الوسكي نحو جانب السرير الاخر ·

ـ لقد سكبت لك الانسة كامين بعض الجعة هنا ·· فلا تكن فظا معها بعد اليوم·· انها ليست بالصبية، وللمستشفى مسؤولية كبيرة مرتبطة بها· وكما ترى أن السيدة ووكر عجوز لا تستطيع مساعدتها في شيء ·

ـ حقا ان الانسة كامين صبية طيبة · اشكريها باسمي كثيرا ·

ـ سأؤخر عشاءك ·

ـ كما تريدين ، فلست جائعا ·

وعندما احضرت طبق العشاء ، التهمته على عجل واستلقيت نائما ، وقبل أن تغمض عيني ، لاحظت كثرة اضواء الاستكشاف تجوب أجواء المدينة، ثم غفوت في نوم ثقيل ، لم استيقظ منه الا وطلائع الفجر تشق طريقها ، والعرق يتصبب من جميع اجزاء جسدي فعدت الى النوم ثانية ·

كانت الغرفة مشرقة ، واشعة الشمس تنير كل جوانبها عندما افقت ظانا اني ما زلت في الجبهة ، وأحسست بساقي تؤلماني ، والاربطة القذرة ما زالت حولها لم تبدل منذ يومين ، دفعت جسدي لاعلى ، حتى بلغت شريط الجرس ، فقرعته ، وبعد قليل سمعت وقع أقدام تقترب ، ثم دخلت الانسة كاج وقد ظهرت على حقيقتها في ضوء الشمس ، اكبر واقل جمالا مما بدت لي للوهلة الاولى ٠

ـ عم صباحا ٠ هل قضيت ليلة مريحة ؟

ـ نعم ! اشكرك كثيرا ، هل يمكن استدعاء حلاق ؟

ـ جئت ليلا لاتفقدك ، فوجدتك نائما وهذه في سريرك ، وفتحت الخزانة مخرجة قارورة الوسكي ، التي كانت فارغة تقريبا ٠

ـ وهذه القارورة الثانية ، وجدتها تحت السرير ، لماذا لم تسالني احضار كاس لك ٠

ـ خشيت أن تمنعيني من احتسائها !

ـ لا ! كنت شاركتك في بعضها ٠

ـ أنت فتاة طيبة !

ـ ليس من حقك ان تشرب وحيدا ، ينبغي ان لا تفعل ذلك ثانية ٠

ـ كما تشائين ٠٠

ـ صديقتك باركلي قد وصلت ٠

ـ أحقا تقولين ؟

ـ نعم ، ولكني لم احببها ٠

ـ سوف تحبينها ، انها فتاة رائعة للغاية ٠

فهزت رأسها : ـ أنا واثقة انها رائعة ٠٠ هل تستطيع التحرك الى ذلك الجانب ، سأنظف جسدك استعدادا للفطور ؟

ـ وهل سيحضر الحلاق ؟٠٠

أرسلت الحاجب في طلبه ، وغادرت الغرفة ثم رجعت تؤكد انه قـــد ذهب ليستدعيه ٠

وتابعت عملها في غسل اجزاء جسمي بالماء الدافىء والصابون ٠ وبعد أن فرغت ، جاء الحلاق ٠

كان في حوالي الخمسين من عمره ، ذا شاربين مفتولين ، وما ان اقترب مني ، حتى بدأ عمله فورا ، بوجه عبوس متجهم ، دون ان ينبس ببنت شفة، حتى ولا بالتحية ، فابتدرته سائلا :

ـ ما شأنك ؟ أليس لديك أخبار جديدة ؟

ـ أخبار ماذا ؟

ـ أخبار عن أي شيء ٠٠ عما يجري في المدينة ٠

ـ نحن في زمن حرب ٠٠ والعدو آذانه منبثة في كل مكان ٠

فادرت رأسي ونظرت اليه بطرف عيني ، ولكنه ابتدرني صائحا :

ـ أخفض رأسك فلن تسمع مني شيئا ٠

ـ ولكن ما شأنك هكذا ؟

ـ انني ايطالي ! هل فهمت ؟ ٠٠

ـ ومن المستحيل ان اتصل بالعدو ٠٠

فتركته وشأنه ، لعله مجنون ، وفي هذه الحالة ، من الافضل الانتهاء منه بأسرع وقت ممكن ٠ وفعلا بقيت معتصما بالصمت ، ساكتا ، على أنه اتفق ان استرقت اليه النظر خلسة ، فحدجني ، صارا على أسنانه :

ـ اياك ! فالموسى حادة كما يجب ٠

وعندما انتهى نقدته أجره ، مضيفا نصف ليرة زيادة ولكنه أعاده قائلا :

ـ لست بحاجة اليك ٠٠ لقد اخبرتك أني ايطالي ٠

ـ حسنا اخرج من هنا اذا ٠٠

فلف موساه بقطعة الجريدة ، وانصرف ٠

قرعت الجرس ، وطلبت الى الانسة كاج استدعاء الحاجب ، ولما حضر ، سالته ، وهو لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الضحك :

ـ هل هذا الحلاق مجنون ؟

ـ لا أيها السنيور، لم يفهم ما قلته له جيدا واعتقد انك ضابط نمساوي ٠٠ ها ها ها ها ٠٠ انها مصادفة مضحكة ٠٠ حركة منك قال لي وسوف ٠٠ ومرر يده حول عنقه ٠٠ ها ها ها ، وحاول ان يكف عـن الضحك ٠٠ عندما أخبرته انك اميركي ولست نمساوي ٠٠ ها ها ها ٠

ـ ها ها ها ... أخرج من هنا .

ـ لا لا .. ياسنيور انه يخاف النمساويين كثيرا .. ها ها ها ها .

ـ ها ها ها ، قهقهت صائحا ... كم كان جميلا أن يقص عنقي .

فخرج ، ولكن صدى قهقهاته كانت تتجاوب على مدى الرواق ، وفجأة سمعت وقع اقدام تتسارع ودخلت الغرفة ممرضة ، أقبلت رأسا الى السرير .. الانسة باركلي ، .

ـ مرحبا يا حبيبي ، قالت ذلك وكلها روعة وفتوة وجمال ، حتى خيل الي أني لم أرها بمثل هذا الحسن قبلا ، وأني لم تقع عيني على أنضر أو أجمل منها حتى الان .

ـ مرحبا ، ومنذ لمحتها خفق قلبي حبا لها ، وانقلب كل شيء في نفسي رأسا على عقب .

أما هي فتطلعت نحو الباب ، ولما لم تر احدا ، انحنت فوقي تقبلني ، فادنيتها مني ولففتها بذراعي ورحت أقبلها ، أقبلها في كل مكان من جسدها ، وأنا اسمع خفقات قلبها .

ـ يا لسعادتي ! أليس قدومك الى هنا امرا رائعا مدهشا ؟

ـ لم تكن المسألة صعبة ، ولكني أخشى ان تكون الصعوبة في البقاء .

ـ لقد أتيت لتبقي .. آه .. انك مدهشة كدت ان أصبح مجنونا وأنا بعيد عنك .

وكأني لم أصدق عيني ، في انها كانت الى جانبي ، فضغطت على جسدها ، شادا اياها نحو قلبي .

ـ لا ! .. صحتك لاتسمح بذلك .

ـ بلى ! اقتربي .

ـ لا ، قواك تمنعك من ذلك .

ـ بلى استطيع .. ارجوك ، اقتربي .

ـ هل تحبني ؟

ـ نعم أحبك ، أكاد أجن من أجلك ، اقتربي أرجوك .

ـ أتسمع كيف يخفق قلبانا ؟

ـ ليس الان دور قلبينا ، بل دورك ، أرجوك أكاد أجن من أجلك .

ـ هل تحبني حقا ؟

ـ يكفي كلاما من هذا القبيل ، تعالي ، ارجوك يا كاترين .

ـ حسنا ، ولكن لدقيقة واحدة فقط .
ـ كما تشائين .. اغلقي الباب .
ـ اه .. لا نقدر .. يجب أن لا نفعل .
ـ تعالي .. كفى موعظة .. ارجوك تعالي .

ومضت ساعة ، جلست بعدها على الكرسي بجانبي ، وقد فتحت باب الغرفة ، أما أنا فكانت أعصابي قد استرخت ، وفارقتني لواعج شهوتي المضطرمة .

ـ والان هل وثقت من حبي لك ؟

ـ آه كم انت رائعة يا كاترين .. بلى .. لقد اتيت لتبقي هنا ، ولن يستطيعوا ابعادك عني .. انني موله بك .

ـ ولكن علينا ان نكون حذرين للغاية ، لقد كان عملنا الان مخاطرة حمقاء .. لا نستطيع فعلها مرة ثانية . ـ نستطيع .. في الليل .
ـ ولكن علينا ان نكون يقظين جدا ، لا سيما أمام الناس .
ـ سأكون كذلك .
ـ نعم سوف نكون .. انت مدهش .. هل تحبني حقا ؟
ـ لا تسأليني ذلك مرة اخرى ، فأنت لا تعرفين أثر ذلك في نفسي .
ـ واذا سأكون انا حريصة ايضا ، فلست أريد ايذاءك ابدا .. ينبغي ان أنصرف الان .

ـ تعالي بعد قليل . ـ سآتي عندما استطيع ذلك .. وداعا ..
ـ وداعا ايتها الحلوة .

خرجت والله يعلم أني لم أكن أريد لقلبي الوقوع بحبها ، لم أكن أريد الوقوع في حب أحد مطلقا ، ولكن الله يعلم ايضا اني قد وقعت ، وأني اضطجع الان على هذا السرير، في غرفة المستشفى ، في ميلان ، وكل الافكار تضطرب في رأسي ، افكار الحائر الوله .

واخيرا دخلت الانسة كاج :
ـ الدكتور قادم الآن ، لقد اتصل بنا من بحيرة كومو .
ـ ومتى سيصل هنا ؟
ـ بعد الظهر .

كان الطبيب رجلا هادئا نحيفا قد اثرت الحرب في أعصابه ومع ذلك فلم يسبب لي اي الم ، وهو يخرج بعض الشظايا المعدنية من فوق ركبتي ، ولكنه بعد محاولات عديدة ، فشل في معرفة ما يمكن ان يكون قد استقر عميقا في ساقي ، قائلا انه لا بد من الاستعانة بجهاز أشعة اكس . ولذلك حملت الى مستشفى ما كواري ، وقام طبيب ابرز ما يتصف به ، خفة الروح ، وحب المرح ، بعملية الكشف ، وقد تم ذلك بطريقة استطعت معها رؤية بعض الشظايا الكبيرة في جسدي ، ثم صوروني في كل المواضع ، ورجاني بعد ذلك اعطاءه المعلومات الاخرى : اسمي ، فرقتي ، رتبتي ، المدرسة التي تعلمت فيها والدرجات التي حصلت عليها ، الى آخر ما في هذه القائمة الطويلة من الاسئلة ، وعندما انتهى من تدوين كل ذلك قال ان الشظايا أضحت في حالة رديئة ، ضارة ، وأن هؤلاء النمساويين ابناء الملكية ... وسألني - كم قتلت منهم ؟

والحقيقة اني لم أكن قد قتلت حتى ولا جنديا واحدا . ولكني اردت ان اشفي غليله فأجبته :

- كثيرا .. كثيرا جدا .

على انه بدلا من ان يهنئني ، التفت الى الانسة كاج ، وكانت قد رافقتني الى المستشفى ، ووضع يده على كتفها مبديا اعجابه بحسنها ، قائلا أنها أجمل من كليوبتره .

.. اتراها فهمت ما يقول ؟ كليوبتره ملكة مصر السابقة !

.. بلى ! لقد كانت الانسة كاج اجمل منها .

شكرت طبيب ماكواري وعدت المستشفى ، وبعد رفع ودفع بلغت غرفتي ، واستلقيت فوق سريري . وفي المساء ، وصلت الصور ، فسر طبيبنا كثيرا ، لانه كان قد أقسم امامي وأكد ، انه يصر على استلامها في ذلك الوقت ، اما أنا فلم أعرف بوصولها الا عن طريق الانسة باركلي ، التي أحضرتها الى

الغرفة ، بغلافاتها الحمراء فأخذنا نتاملها معا ، صورة صورة !
ـ تلك ساقك اليمنى ، قالت معيدة الرسم الى الغلاف الاحمر ٠
ـ ضعيها بعيدا وتعالي الى السرير ٠
ـ لن أستطيع ٠٠ استاذنت فقط لدقيقتين ، كي أتمكن مـــن اطلاعك عليها ٠ وخرجت مسرعة ٠
فبقيت وحدي في الغرفة ، وكنت قبل دخولها أشعر بضيق شديد من جراء النوم المستمر ، فاستدعيت الحاجب وأمرته باحضار صحف المساء كلها، وقبل ان يرجع بها دخل الغرفة ثلاثة اطباء ٠
كنت قد لاحظت ان الطبيب الفاشل في عمله ، يميل دائما الى الاستعانة باطباء غيره ، ولكن من الفاشلين أيضا ، ان الطبيب الذي يفشل في بتر جزء فاسد من جسدك سيوصي بك طبيبا آخر لن ينجـــح باستئصـــال لوزتيك الملتهبتين ٠
هكذا تراءى لي امر الاطباء الثلاثة ٠
ـ هو هو ٠٠ الشاب الذي حدثتكما عنه ٠ قال طبيبي ٠
ـ كيف حالك ؟ سال الطبيب الطويل النحيل ذو اللحية ٠
أما الطبيب الثالـث ، الذي حمل مغلفـات الصور الحمراء ، فلم يفعل شيئا ٠
ـ نفك الاربطة ؟ سال الطبيب ذو اللحية ٠
ـ بالتاكيد ، أجابه صاحبنا ، ارفعي الضمادات ايتها الممرضة ٠
فنفذت الانسة كاج أمره ، ورفعتها ، وراح كلاهما يتأملان ســاقي عن قرب ، كانتا منسلختي الجلد ، والركبة منفتحة ذات لون قاتم ، ولكـن دون صديد ، وأخيرا قال ذو اللحية :
ـ نظافة مدهشة !
وعندها تحرك الطبيب الثالث واشرأب بعنقه من فوق كتف زميله وكأنه يريد الاطمئنان الى ما سمع ، بينما تابع ذو اللحية :
ـ حرك رقبتك من فضلك ٠
ـ لا استطيع !
فتطلع نحو صاحبنا قائلا :
ـ هل نفحص المفصل ؟
ـ بالتاكيد ، وامسك مع الطبيب الثالث بساقي اليمنى وشرعـــا في ثنيها ، ولكني صحت بهما ٠

ـ انها تؤلمني كثيرا .
ـ نعم نعم .. اكثر .. اكثر .. آكثر قليلا أيها الطبيبان .
ـ يكفي .. يكفي .. لن تثنني اكثر .. انها تؤلمني جدا .
ـ مفصل مائل ! قال ذو اللحية ، رافعا قامته . وكنت قد لاحظت أنـه يحمل شريطا أحمر الى جانب النجوم الثلاثة على كتف معطفه ، الامر الـذي يشير الى أنه كابتن ، ثم أردف :
ـ أين الصور .. اعطنيها ثانية .
فناوله اياها الزميل الثالث .
ـ اليسرى .. الساق اليسرى أرجوك ؟!
ـ ولكنها الساق اليسرى أيها الكابتن .
ـ ها نعم نعم .. لقد نظرت الى الصورة من زاوية أخرى .
وأعاد الرسم مكانه ، ثم أمسك بالاخرى وتأملها مخاطبا صاحبنا :
ـ أنت ترى يا دكتور ، وأشار الى نقطة ظهرت واضحة في الضـوء . فانهمك الثلاثة في النظر اليها .
ـ فقط شيء واحد يمكنني قوله .. انها مسألة وقت .. ثلاثة شهور .. خمسة .. ستة من المحتمل .
بالتأكيد ، المسألة مسألة وقت فقط . لن أستطيع شق ركبة كهذه قبل ستة شهور !
ـ أؤيدك ايها الكابتن .
ـ وأنا كذلك ، نطق الثالث لاول مرة .
ـ ستة شهور من اجل ماذا ؟ سألتهم مذهولا .
ـ ستة شهور حتى نستطيع تحديد مكان الشظية بالضبط ، وبعدهـا يمكننا شق الركبة .

ـ بالتأكيد ، صاح طبيبنا قبل ان افتح فاهي لاجيب .
ـ ولكنني اعتقد انها فترة طويلة جدا يا حضرة الكابتن .
ـ الا تريد الاحتفاظ بركبتك ؟..
ـ لا ...
ـ ماذا ؟!
ـ اريد بترها ، والاستعانة بكلابة عوضا عنها .
ـ ماذا تعني بالكلابة .

فقاطعني طبيب المستشفى وهو يربت على كتفي ٠

ـ انه يمزح ايها الكابتن ٠٠٠ انه يريد الاحتفاظ بركبته دون شك ٠ ولكنه شاب شجاع جدا ٠٠ لقد رشح لتقلد الوسام الفضي ٠

فمد الكابتن يده وصافحني قائلا :

ـ اتمنى لك شفاء عاجلا ٠٠ كل ما استطيع قوله :

٠٠ لا بد لكي تأمن كل شر ، من الانتظار على الاقل ستة شهــور ٠٠ وبعدها نشق الركبة ٠٠ أنت على كل حال ستستمع الى آراء أخرى٠٠ أليس كذلك ؟

ـ أشكرك كثيرا أيها الكابتن ٠٠ انني أحترم رأيك وأقدره ٠

فنظر الى ساعته : ـ ينبغي الانصراف الآن٠٠٠ أتمنى لك شفاء عاجلا٠

ومددت يدي لمصافحة الطبيب الثالث ، رغم انه اكتفى طيــلة الوقــت بهز رأسه عند كل ملاحظة ثم غادر ثلاثتهــم الغرفة ٠ فناديت الانســة كاج ورجوتها استدعاء طبيبنا فرجع ، وقبعته بيده :

ـ هل ترغب في أي شيء ؟

ـ نعم ٠٠ لا أستطيع الانتظار ستة شهور ٠٠ يا الهي ٠٠ وانت يــا دكتور ، هل حدث لك ان بقيت ستة شهور مستلقيا على الفراش هكذا ؟

ـ لن تلازم الفراش كل هذا الوقت ٠٠ ستعرض جراحك للشمس ،ثم تتدرب على المشي متكئا على العصا ٠

ـ ستة شهور وبعدها العملية ؟ !

ـ تلك هي الطريقة الآمنة ٠٠٠ حتى يحدد موضع الشظية بالضبط و٠٠ ويتكون السائل اللزج ٠٠ وعندها يمكن شق الركبة ٠

ـ هل تؤمن في قرارة نفسك يا دكتور ، انه بامكاني الانتظار كل هــذه المدة ٠

ـ ولكنها الطريقة الآمنة ٠

ـ ومن ذلك الكابتن ؟

ـ انه جراح شهير جدا ٠٠ من ميلان ٠

ـ كابتن اول ! اليس كذلك ؟ !

ـ بالتأكيد ٠٠ ولكنه جراح شهير

ـ على كل حال لا اريد ان يعبث كابتن بركبتي ٠٠ لو كان حقا ماهرا لاصبح ماجور ٠٠ أنا أعرف ماذا تعني رتبة كابتن !

ـ ولكنه جراح شهير ٠٠ أنا شخصيا أرجح رأيه على آراء الآخرين ٠٠ دائما ٠

ـ ألا يمكن عرضها على جراح ثان ٠

ـ بالتأكيد ، اذا كنت ترغب في ذلك ٠٠ على أني شخصيا لن أتبع الا رأي الدكتور باريلا ٠

ـ ومن يمكن استدعاؤه لرؤيتها ؟

ـ الدكتور فالنتيني ؟

ـ طبيب مستشفى ماكواري ٠٠ الذي ذهبت اليه من أجل التصوير بالاشعة ٠

ـ حسنا جدا ٠٠ اني اقدره كثيرا ٠٠ انت تعرف يا دكتور انـــي لا يمكنني الانتظار ستة شهور ٠

ـ بالتأكيد ٠٠ ورفع يده يريد ارتداء قبعته ٠٠ هل أنت مشتاق الى هذا الحد ، للعودة الى القتال ؟

ـ بالتأكيد ! ولم لا ٠

ـ انك فتى مدهش حقا من أصل نبيل ! ثم خطا مقتربا مني وانحنـــى وقبلني في جبيني : ـ سأتصل بفالنتينـــي فورا لا تقلق وتضايق نفســـك سأذهب لاستدعائه في الحال ٠

ـ ألا تأخذ كأسا من الوسكي ؟ !

ـ لا شكرا فأنا لا احتسي الكحول ابدا ٠

ـ فقط كأسا واحدا ٠٠ وقرعت الجرس اريد الحاجب لاحضار الاكواب، ولكنه كرر ٠ ـ لا ٠٠ اشكرك ٠ انهم ينتظروني ٠٠ وداعا ٠ وداعا ٠

٠٠٠

بعد ساعتين حضر الدكتور فالنتيني ، جاء مسرعا وقد انتصب شارباه، ولاحظت انه يضع على كتفه شارة الماجور ، أما وجهه وعيناه فكانتا تضحكان دائما ٠

ـ كيف عرضت نفسك لهذا الشيء القذر ٠٠ دعني اتأمل الصور ٠٠ نعم نعــم ٠٠ هي نفسها ٠٠ صحتك جيــدة كالعنزة الشرســة ٠٠ ومن هذه الفتاة الرائعة ٠٠ هل هي فتاتك ؟ يظهر انها كذلك ؟٠٠ آه أليست هذه حرب

دامية قذرة ؟! هنا ٠٠٠ كيف تحس ؟

٠٠ انك شاب طيب ٠٠ سأجعلها أفضل من الركبة السليمة وهنا ،هل تؤلمك ؟ • فقط أحبوا ان يداعبوك ٠٠ هؤلاء الزملاء الطيبون ٠٠ ماذا صنعوا لك ؟ يظهر أن فتاتك لا تتكلم الايطالية ؟

٠٠ ولكن ينبغي أن تتعلمها ٠٠ حقا انها جذابة جدا ٠٠٠ أنا مستعد لتعليمها ٠٠ ومستعد أن اكون مريضا هنا ٠٠ في الغرفة ٠٠ لا ٠٠ بل أقوم بكل ما يلزمك مجانا ٠٠ هل فهمت ؟ ٠٠ والله لتنجبن لك صبيا مدهشا ٠٠ اشقر جذابا مثلها ٠٠ مثلها ٠٠ كم هي فاتنة ! ٠٠ حلوة كما يجب ٠٠ سلها اذا كانت ترضى بتناول الغذاء معي ٠٠ لالا ٠٠ لن آخذها بعيدا عنك،اشكرك، اشكرك كثيرا يا آنسة ٠٠ يكفي ـ يكفي ، هذا كل ما في الامر • هذا كل ما أريد معرفته ٠٠

وربت على كتفي ٠٠ ابق بلا اربطة •

ـ هل تأخذ كأسا دكتور فالنتيني ؟

ـ كأس وسكي ؟ بالتأكيد ! بالتأكيد ٠٠! وعشرة كؤوس ٠٠ اين هو ؟

ـ في الخزانة ٠٠ الانسة باركلي ستحضر القارورة •

ـ نخبك ، نخبك ايتها الانسة ، أنك صبية رائعة جدا ٠٠ سأحضر لك مشروبا أفخر من هذا ، ومسح شاربيه •

ـ متى تعتقد أنه بالامكان اجراء العملية ؟

ـ غدا صباحا ، لست اظن ان بالامكان اجراءها قبل ذلك الوقت • يجب ان تكون معدتك فارغة ، وجسدك نظيفا تماما ، سأقابل السيدة العجوز على كل حال ، وأعطيها تعليماتي ، وداعا ، غدا سأراك ، وسأحضر لك وسكي من نوع فاخر جدا ، انت مرتاح هنا ؟ ٠٠ حتى صباح غد حاول ان تنام جيدا ٠٠ الى اللقاء غدا صباحا •

وغادر الغرفة وشارباه يتقدمانه منتصبين ٠٠ ووجهه الاصفر الشاحب تملأه الابتسامة التي لا تفارقه ، وعلى كتفه تلتمع النجمة الفضية تشير الى رتبته الرفيعة •

تلك الليلة ، دخل غرفتي ، من باب الشرفة المفتوح ، خفاش صغير ولم يخرج منها· كانت الغرفة مظلمة، لا يضيئها الا انوار النجوم البعيدة المنتشرة، وظل الخفاش يرفرف ويتنقل كأنه في العراء ، ومع ذلك استمررنا في عناق حار ، وكل ظننا انه لا يلاحظنا · وبعد خروجه رأينا ضوء كشاف يجول في القرب ثم زال وعمت الظلمة كل شيء ، وهب نحونا نسيم بارد منعش ، حمل الينا صدى كلمات رجال المدفعية المضادة للطائرات ، المرابطين فوق احد السطوح ، قريبا منا · وابترد الطقس رويدا رويدا ·

كنت قلقا اخشى صعود احد الى الغرفة ولكن كاترين اكدت لي ان الجميع نيام ، على انه حدث بعد ان اغفينا معا ، ان افقت فجأة ، فلم أجدها بجانبي ، ثم سمعت الباب يفتح بطيئا ، ولمحتها تسترق الخطى للوصول الى مكانها ، وعندما احست اني يقظان قالت ، انها نزلت الى الطابق السفلي فرأت ان كل شيء على ما يرام ، وانها وقفت امام غرفة الانسة كامين فسمعت شخيرها المتقطع ، وعندئذ احضرت كمية من اللوز وعادت على مهل ·

التهمنا حبات اللوز ، وجرعنا كل ما في قارورة الوسكي ، كنت جائعا جدا ولكنها منعتني من الافراط قائلة ان كل ما سآكله سيشاهد في معدتي صباحا ، اثناء العملية ، ولذلك عدت الى الاغراق في النوم ، وعندما استيقظت ثانية كان ضوء الشمس ساطعا ، فلم اجدها بجانبي ، ولكنها دخلت بعد قليل وقد بدت اكثر روعة وجمالا منها في الليل ·

جلست على طرف السرير ثم وضعت ميزان الحرارة في فمي ، بينما الشمس ترتفع نحو كبد السماء وعطر قطرات الندى يملأ الجو ، تشوبها رائحة القهوة ، فائحة من اكواب رجال المدفعية على السطح المجاور ·

ـ آه لو نستطيع الذهاب في نزهة قصيرة الآن ·· وتنهدت ·

ـ اني مستعدة لدفعك في عربة ، لو كان ذلك ممكنا ·

ـ وكيف ساجلس في العربة ؟

ـ نتدبر الامر معا على كل حال ٠

ـ نستطيع الذهاب الى الحديقة ، ونتناول فطورنا في العراء ٠

ـ ها ٠٠ والعملية ! ٠٠ ينبغي تهيئتك قبل كل شيء ٠٠ فحالا سيجيء صديقك الدكتور ٠٠

ـ اظن انه رجل ماهر ٠

ـ لم احبه بالقدر الذي شعرت به انت ، ولكني اعتقد انه طبيب ماهر

ـ مهما يكن من امره ، تعالي الى السرير الآن ٠٠

ـ يكفي ، الم نقض ليلة ممتعة ؟

ـ وهل ستكونين هذه الليلة في الخدمة ايضا ؟

ـ من المحتمل ذلك ، ولكن انت لا تريدني هذه الليلة !

ـ بلى أريدك ٠

ـ لا ، انت لا تريدني ، لم يسبق لك ان اجريت عملية جراحية ٠

ـ على كل حال ، ساكون على ما يرام ٠٠

ـ ستكون مريضا ولن اكون ذا نفع لك ٠٠

ـ اذا تعالي الآن ، تعالي ! ارجوك ٠

ـ سأنسق الغرفة يا عزيزي ، واهيئك كما يجب ٠

ـ انت في الحقيقة لا تحبينني والا أسرعت الى السرير ٠

ـ كم انت فتى مزعج ، وانحنت تقبلني ، شددتها الى قلبي ٠

ـ يكفي الآن عناقا ، دائما حرارتك ممتازة ٠

ـ ولكن أنت كل شيء ممتاز ٠

ـ ها ، لا انت دائما حرارتك مرتفعة ٠

ـ ربما كل أطفالنا ستكون حرارتهم مثالية ٠

ـ اطفالنا !

ـ والآن ماذا تفعلين لتهيئتي ؟

ـ ليس كثيرا ، ولكن قد يضايقك ٠

ـ أتمنى أن لا تفعلي شيئا ٠

ـ لا أستطيع ، لا اريد احدا غيري يضع يده عليك ، حتى ولا ان يلمسك ، أنني عصبية مجنونة ٠

ـ حتى ولا فيركوسن !
ـ خصوصا فيركوسن ، وكاج والاخر ٠
ـ نعم ، يوجد ممرضات كثيرات الان ٠
ـ قد يصل مرضى جدد ٠

ـ لا ! الظاهر ان مرضى كثيرون سيصلون ، وهم بحاجة الى ممرضات دائما ، فالمستشفى واسع جدا ٠

ـ ارجو ان يكون الامر كذلك ٠
ـ وانا سأغادر ايضا ٠
ـ لا تكن احمق ، فلن تستطيع ذلك الان ، ولكن تتحسن بسرعة وعندما سنذهب الى اي مكان ٠

ـ وبعد ذلك ؟
ـ لربما انتهت الحرب ، فهي لا يمكن ان تستمر !
ـ سوف انحسن ، لقد أكد لي ذلك فالنتيني ٠
ـ يستطيع بشاربيه الطويلين ٠ ويا عزيزي عندما يبدأ التخدير ، انتبه! فكر في اشياء أخرى ٠٠

ـ بماذا سأفكر اذا ؟
ـ بأي شيء ٠٠ اي شيء غيرنا ٠
ـ لا ٠
ـ اذن ردد الصلاة ، فقد يكون لها تأثير طيب ٠
ـ ومن الممكن أن لا اهذي ابدا ٠
ـ يجوز ذلك فقلما يحدث الهذيان ٠
ـ اذن لن أهذي ٠٠

ـ ولكن لا تغتر بنفسك هكذا ، انت تعرف انك لست بحاجة الى الغرور فقط ابدأ بترديد الصلاة او باستظهار بعض قصائد الشعر او أي شيء بعيد ، آه ، عندما سآمرك بالتنفس سيكون منظرك جذابا جدا ، وسأكون فخورة بك، أنت تملك حرارة ممتازة ، وتنام بريئا كالطفل ، وذراعك حول الوسادة ، تظنها انا أو آية فتاة أخرى ٠

ـ لا أنت فقط !
ـ طبعا انا ، اه كم احبك يا عزيزي ٠٠ وفالنتيني سيصنع لك ساقا

جيدة · انني مسرورة ، ولكنني لا ارغب حضور العملية ·
ـ وستكونين هذه الليلة في الخدمة ·
ـ نعم · ولكن هذا لن يفيدك شيئا ·
ـ سنرى ·
ـ والان يا عزيزي ، لقد غدوت نظيفا كما يجب · اخبرني ، كم فتاة احببت في حياتك ؟
ـ ولا واحدة ·
ـ ابدا ! حتى انا ؟
ـ فقط انت ·
ـ كم واحدة أخرى ؟ قل الحقيقة !
ـ ولا واحدة ·
ـ لا ، انك تكذب علي ·
ـ تلك هي الحقيقة ·
ـ حسنا ، استمر في الكذب علي ·
ـ لم أحب أبدا ·
ـ حسنا ، هل كن جذابات ·
ـ لا اعرف شيئا عمن تسألين ·
ـ أنت فقط لي وحدي ، تلك الحقيقة · أخبرني ماذا تفعل المرأة لو احبت شخصا ما ؟
ـ لا أدري ·
ـ هل تصارحه بحبها ، أخبرني ارجوك ، أريد ان أعرف ؟
ـ نعم ، اذا اراد هو ذلك ؟
ـ وهل يصارحها هو بحبه ؟ قل لي ، امر مهم بالنسبة لي ·
ـ نعم ، اذا أراد هو ايضا ·
ـ ولكن أنت لم تفعل ذلك ! هل فعلت ؟
ـ لا ·
ـ انك لا تصدقني القول ، ارجوك أخبرني الحقيقة ·
ـ انني اكذب ·
ـ لا ، انت لا تستطيع ، انت لا تكذب علي ، انا اعرف انك لاتستطيع الكذب علي ، اني احبك يا عزيزي · اذا تقول ما يريدها هو ان تعلن ·
ـ ليس دائما ·

ـ ولكنني سأفعل ذلك دائما ، سأقول تماما ما تريده مني ، وعندها لن تحب احدا غيري ، هل ستحب ؟٠

ونظرت الي سعيدة :

ـ سأعمل ما تريد ، واقول ما تريده ٠

ـ نعم ٠

ـ وماذا تريدني الان ان افعل ؟ لقد اصبح كل شيء جاهزا لحضور الطبيب ٠

ـ تعالي الى السرير ٠

ـ حسنا سأجيء ٠

ـ آه يا حبيبتي ٠٠٠

ـ هل رأيت ، اني لا أكون الا كما تريدني ٠

ـ انك رائعة !

ـ لست ارغب في شيء سوى ما يسرك ٠

ـ انك مدهشة !

ـ انا مدهشة ، الست كذلك لن تحب فتاة غيري هل ستحب ؟

ـ لا ٠

ـ هل رأيت كم انا مطيعة ، افعل ما تشاء ٠

افقت بعد العملية وكأن شيئا لم يحدث ، لم يكن البنج موتا كما تصورته ، ورأيت انهم وضعوا أكياسا صغيرة مملوءة رملا عند اطراف السرير ، وفيما انا احاول استذكار حوادث الساعات القليلة الماضية ، دخلت الغرفة الانسة كاج ، وسألتني :

ـ كيف تشعر الان ؟

ـ احسن من الامس

ـ لقد قام بعملية عجيبة في ركبتك !

ـ وكم من الوقت استغرقت ؟

ـ ساعتان ونصف ٠

ـ هل هذيت ؟

ـ ابدا ، لم تنبس بكلمة واحدة ، بل ظللت هادئا ٠

●

كان قد حل في المستشفى مريضان آخران ، أحدهما شاب نحيل من العاملين في منظمة الصليب الاحمر ، مصاب بالملاريا ، والثاني فتى لطيف المعشر ، أميركي ايضا من ولاية نيويورك ، أصيب كذلك بحمى الملاريا المنتشرة ، ثم جيء بمريض ثالث ، كانت قد انفجرت بين يديه قنبلة صغيرة، وهو يحاول احكام وضعها ، وقد استطاعت كاترين كسب ثقة الثلاثة ، فلم يكن عملها مع الاولين ليشغل من خدمتها الليلية قسطا يذكر ٠

اما المريض الثالث فقد غدا صديقا لنا وقلل من قرع الجرس الا في الحالات الاضطرارية ، وكذلك الامر مع الممرضات ، فانهن جميعا كن سعيدات لان كاترين خصصت نفسها بالخدمة الليلية ٠ ومنحتهن فرصة طيبة للراحة والنوم ٠ ومع انه قد طلب الي الاخلاد الى السكينة في معظم الوقت ، الا اني كنت اكتفي بساعات النهار للنوم واشارك كاترين في اليقظة طيلة ساعات الليل ، حتى في بعض اوقات اليقظة كنا نكتب لبعضنا رسائل قصيرة تحملها لفيركوسن الفتاة الطيبة ٠ والتي لم أعرف عنها شيئا سوى ان لها اخا في الفرقة الثانية والخمسين ، وآخر ميسو بوتاميا ، وانها فوق كل ذلك كانت على علاقة حسنة جدا مع كاترين ، مخلصة لها كل الاخلاص ٠

وقد اتفق ان سالتها ذات يوم ٠

ـ هل ستحضرين حفلة زواجنا يا فاركي ٠

ـ انتما لن تتزوجا ٠

ـ بلى سوف نتزوج ٠

ـ لا ، لن تتزوجا ٠

ـ ولم لا ؟

ـ ستختلفان قبل زواجكما ٠

ـ لا ، لم نختلف ابدا حتى اليوم ٠

ـ ولكن ما زال امامكما متسع من الوقت ٠

ـ ومع ذلك فلن نختلف ٠

ـ اذن سيموت حبكما ، اما ان تختلفا او يموت حبكما ، هذا ما سيحدث دائما ، دون ان يتم الزواج ٠

فاقتربت منها ومددت يدي محاولا ان اضعها في يدها ولكنها حدجتني :

ـ لا تلمسني ، فانا لا استعطفك ، ولكن لا تسبب لها المتاعب ٠

ـ لن أسبب لها المتاعب ابدا ٠

ـ حسنا ، انتبه على كل حال ، وانا أرجو لكما حظا سعيدا ٠٠ فامامك

فرصة طيبة ٠
ـحقا ، ان أمامنا وقتا سعيدا ٠
ـ لا تتشاجرا اذا ولا توقعها في مأزق !
ـ سأفعل كما تشائين ٠
ـ هل فهمت ؟
ـ انك فتاة رائعة يا فاركي ٠
ـ لا لست رائعة ، لا تحاول ان تتملقني ، كيف تحس بساقك ؟
ـ حسنة ٠
ـ ورأسك ؟
ولمست قمته بأصابعها ٠ كان حساسا كقدم أصابها التخدير ٠
ـ انه لا يؤلمني ابدا
ـ قنبلة كتلك كافية لتذهب بعقلك ، وتقول انها لا تؤلمك ؟
ـ لا ٠
ـ اذا انت حسن الحظ ، هل كتبت الرسالة ؟
ـ ها هي ٠
ـ ينبغي ان تدعها ترتاح من الخدمة الليلية ، لقد أضحت مرهقة جدا٠
ـ سأفعل ذلك ٠
ـ حاولت ان اقوم بها بدلا منها ولكنها رفضت ٠ ينبغي ان تدعها ترتاح٠
ـ سأفعل ذلك ، كما تشائين ٠
ـ لقد سمعت الانسة كامين تتحدث كيف انك تظل طول ساعات النهار نائما ٠
ـ هل حقا تحدثت بذلك ؟
ـ ولذلك من الأفضل ان تدعها خارج الخدمة الليلية فترة قصيرة ٠
ـ انا شخصيا أرغب في هذا الامر ٠
ـ لا ، انت لا ترغب ، ولكنك اذا سمحت لها ، فسأقدر ذلك منك ٠
ـ ثقي بأني سأفعل ما تشائين ٠ ـ لا اصدقك ٠
واخذت الرسالة وانصرفت ، فقرعت الجرس وحالا دخلت الآنسة كاج
ـ ماذا تريد ؟
ـ فقط أريد ان أتحدث معك ؟
ـ ماذا ؟

ـ الا تعتقدين ان الانسة باركلي أرهقت من جراء عمل الليل ؟
فنظرت في عيني ·
ـ اني صديقتك ، فلست بحاجة لتحدثني بهذه الطريقة ·
ـ ماذا تقصدين ؟
ـ لا تدعي الغباء !
ـ هل تريدين وسكي ؟
ـ طبعا ، ثم ينبغي ان انصرف ·
واخرجت القارورة من الخزانة ، جالبة الكاس معها ، فبادرتها :
ـ اشربي من الكاس وساحتسي أنا من فوهة القارورة ·
ـ لا تاخذ الكاس لك ·
ـ ماذا تقول الانسة كامين حول بقائي نائما معظم ساعات النهار ؟
ـ انها فقط تبتسم ، وتدعوك بمريضنا المدلل ·
ـ لياخذها الشيطان ·
ـ انهاليست حسودة ، بل ثرثارة ، ولا تحبك ابدا ·
ـ ابدا ؟
ـ انا أحبك على كل حال ، وانا صديقتك ، لا تنس ذلك ·
ـ انك رائعة للغاية !
ـ لا ، انا أعرف من تكون الرائعة للغاية ، كيف هي ساقك ؟
ـ حسنة ·
ـ ساجلب بعض الماء المعدني لاسكب فوقها ، لا بد انها تؤلمك فالطقس حار جدا · ـ هل تؤلمك كثيرا ؟
ـ لا ، أظن انها تتحسن ·
ـ سأثبت وضع اكياس الرمل ·
وانحنت فوق السرير ·
ـ انا صديقتك ··
ـ أعرف ذلك ·
ـ لا ،انت لاتعرف · ولكن ستعرف ذلك يوما ما ·

توقفت كاترين عن العمل مدة ثلاثة ايام ، ثم استأنفت خدمتها ، فشعر كل منا كما لو ان الآخر قد فارقه في رحلة طويلة بعيدة ·

مضى علينا صيف ذلك العام كأجمل ما تكون الايام . اشتدت قواي وصار بوسعي مغادرة السرير ، فكنا نمتطي العربة ، ونتجول في انحاء المدينة: ما زالت صورة العربة عالقة في ذاكرتي الى اليوم ، انـي اتذكرها والحصان يجرها بطيئا متهاديا ، وخلف السائق ذي القبعة الطويلـة جلست كاترين باركلي الى جانبـي ، اذا ما لمست يدهـا اطراف يدي ، كنا نرتعش ويخفق قلبانا .

وفيما بعد ، عندما أصبح بوسعي المشي ، معتمدا على العكاز ، صرنا نذهب لتناول العشاء في صالة بافي اوكراند ايطالي ، ونجلس الى الطاولة في الحديقة الواسعة ، والخدم مـن حولنا يروحون ويجيئون ، والناس قـد اصطحب كل صديقتـه او عائلته ، وعلـى المناضد ، فوق الاغطيـة البيضاء النظيفة المتدلية جوانبها ، تشع مصابيح ذات ظلال ساحرة .

وبعد ان وثقنا من كون صالة كراند ايطالي هي الفضلـى ، طلبنا الى جورج رئيس الخدم ، أن يحجز لنا مسبقا ، عند كل مسـاء ، المنضدة التي اخترنا الجلوس اليها .

كان جورج شابا أنيقا ، طيـب السريرة ، نظيـف اللسان ، فتركناه ينتقي لنا صنوف الطعام والشراب ، بعد ان كنا قد تذوقنا جميعها ، وحـدث مرة ان نفذت مني النقود ، فتقدم واقرضني مائة لير قائلا :

ـ لا بأس عليك ايها الليوتنان . . ليس هذا أمرا مستغربا . فكثيرا ما تنفد الدراهم من زبائننا ، وأقرضهم ما يشاؤون . وعلى كل حال ، في أي وقت تحتاج فيه الى نقود ، انت او السيدة ، فلا تحجما ابدا عن الطلب مني ، اني أحمل دائما نقودا كثيرة .

بعد العشاء ، كنا نتدرج على رصيف الشارع ، متأملين زبائن الصالات

الاخرى ، وواجهات المحلات الكبيرة ٠

واحيانا نتوقف عند بائعي السندويش ، نلتهم بعضها ، واخيرا نستقل عربة من نهاية الشارع مقابل الكاتدرائية ، فتوصلنا الى المستشفى ، وهناك عند المدخل يسرع الحاجب ليساعدني على النزول ثم انقد السائق ونتجه كلانا الى المصعد ٠

فتنزل كاترين في الطابق الاول حيث تنام الممرضات بينما اتابع انا الى الطابق الرابع ٠ واستند على عكازي للوصول الى غرفتي عبر الرواق الطويل٠ فانزع ثيابي ، واستلقي على السرير ، او اجلس في الشرفة ، اراقب السنونو بانتظار مجيء كاترين ٠

وعند وصولها احس كأنها عائدة من رحلة طويلة ، فانهض لمرافقتها في تفقد غرف المرضى ، انتظر خارج الابواب ، او أدخل معها حسبما تكون علاقة المريض معنا ٠

وبعد ان تنهي كل ما عليها ، نعود الى الجلوس في الشرفة ، خـــارج غرفتي ، ثم انهض انا نحو السرير ، ويكون الجميع قد اغرقوا في النـــوم قبلي ، فتتبعني وتصعد الى السرير قربي ، فاخذ بمداعبة شعرها بأناملي ، نازعا الدبابيس من بين ثناياه ، بينما تبقى هي ساكنة صامتة بلا حراك ٠

وفجأة تخفض رأسها وتقبل صـدري واستمر انا في نـزع الدبابيس ووضعها فوق الغطاء الابيض ، وعندما يتهدل كل شعرها أدخل رأسي تحته وانظر في عينيها وتحس كأننا في جوف خيمة معتمة او عند قاع واد سحيـق ويعترينا شعور غريب من الاحساس ٠

كان شعرها جميلا جدا ، وكنت احيانا استمر في دس انفـــي بـــين ثناياه ، او اروح اتأمله وهي تجدله في الضوء الآتي من باب الشرفة المفتوح، فينعكس عليه مشعا كما تتلألأ قطرات الماء عند بزوغ الفجر ٠

اما جسدها فكان بضا ذا بشرة ناعمة ملساء ، وكثيرا ما كنت أبقيهـا بين يدي ساعات كاملة ، امرر يدي على وجنتيها وفوق رقبتها وتحت ثدييها فتهزني نعومتها واصيح بها :

ـ انك ناعمة ملساء كمفاتيح البيانو ٠

فتصفع ذقني باصابعها :

ـ ملساء كالحرير ، ولكنك قاس على مفاتيح البيانو .
ـ هل حقا ما تقولين ؟
ـ لا يا عزيزي ، انما اريد مداعبتك .

. . .

وهكذا مضت ايام الصيف،سعيدة حافلة فبالاضافة الى ساعات الوصال الطويلة المديدة ، المليئة بالمتع الرائعة ، كنا نتواصل بأساليب اخرى عديدة وذلك طوال ساعات النهار ، فقد كان كل منا يحاول ان يشعر حبيبه انه دائما يذكره يفكر فيه ويتوق اليه .

كنا نعتبر نفسينا زوجين حقيقيين منذ اليوم الاول الذي قدمت فيه الى ميلان ، وصرنا نعد الشهور التي مرت على ذلك اليوم ، ولقد غدوت راغبا حقا في الزواج منها ، ولكنها كانت تمانع في ذلك ، خشية ان يطبق القانون المدني بحقها فيوقفها عن العمل ، ويعيدوها الى بريطانيا . على ان رغبتي في الزواج كانت تشتد لحنيني الزائد في أن أنجب طفلا ، وكم تحرق فؤادي كلما عن لي خاطر صيرورتي أبا ذات يوم .

ومع ذلك ظللنا نقنع نفسينا بأننا متزوجان عمليا ، دون ان ينغص فقداننا للصيغة القانونية شيئا من سعادتنا وهنائنا . واظن اني كنت مسرورا بذلك في قرارة نفسي ، واذكر اني تحدثت الى كاترين في هذا الموضوع فاجابتني :

ـ ولكنهم ياعزيزي سيبعدونني و...
ـ ربما لن يفعلوا ذلك .
ـ بلى ، سيعيدونني الى انجلترا !
ـ ساطلب فرصتي السنوية واتبعك .

ـ لن تستطيع القدوم الى اسكتلنده والعودة منها خلال فرصتك ، على ان الاهم من ذلك كله اني لا ارضى بمفارقتك ابدا ، واية فائدة نجنيها من الزواج الآن ؟ نحن في الحقيقة متزوجان ! هل يمكن ان يتيح لنا الزواج اكثر من ذلك ؟

ـ اريد ذلك من اجلك ..

ـ ليس هناك شيء من اجلي ، فأنا انت لا تعتبرني منفصلة عنك ، نحن وحدة واحدة .

ـ كنت اظن ان الفتيات يصرون على الزواج ؟

ـ نعم يصرون ، ولكنني متزوجة منك ! الا أقوم بواجبي كزوجة كاملة ؟

ـ بلى ! انك زوجة ممتازة ·

ـ وانت تعرف ان هناك عائقا يمنعني من الزواج ·

ـ نعم ! لا اريد سماع شيء عنه ·

ـ ولم اكن لاحب لولا انت ، واظنك لن تتضايق لكون غيرك قد احبني·

ـ بلى اتضايق كثيرا ·

ـ لكن ليس من حقك ان تحسد انسانا قد مات ، بينما انت تملك الآن كل شيء ·

ـ على اني لا اريد سماع شيء عنه !

ـ آه يا حبيبي ، هل تألمت كثيرا ، رغم اني اعرف انك عاشرت العديد من الفتيات ومع ذلك فانا لا أبالي ابدا ·

ـ الا تستطيع الزواج ولو بطريقة خاصة ؟ حتى اذا وقع لي حادث او انجبت انت طفلا نكون قد ··

ـ زواجنا هذا هو الطريقة الخاصة ، وليس غيره الا طريق الكنيسة او الزواج المدني ·

·· وكما ترى يا عزيزي ، لو ان في نفسي شيء من الايمان بالدين ، لاختلف الامر ، لكن لا اثر من الدين في نفسي ·

ـ والقديس انطونيو ، ألم تعطني اياه ؟

ـ من اجل البركة ، قدمه لي احدهم ·

ـ اذا انت مطمئنة الى زواجنا الحالي ؟

ـ فقط ان ابقى بجانبك ، انت معبودي ·

ـ حسنا ، سأتزوجك في اليوم الذي تريدينه ·

ـ لماذا تتكلم هكذا ، انني امرأة شريفة مخلصة ، وليس من حقك احتقار امرأة انت سعيد معها فخور بها ، ألست سعيدا معي ؟

ـ شرط ان لا تتركيني الى غيري ابدا ؟

ـ ابدا يا عزيزي لن اتركك ، لا كن مطمئنا ، لا تقلق ·

ـ لست قلقا ، ولكنني احبك ، بينما انت احببت رجلا قبلي · ولكن ماذا حدث له ؟

ـ مــات ٠

ـ حسنا ، ولو لم يمت لما كنت رأيتني ، فأنا لست خائنة يا عزيزي ، عندي كثير من الاخطاء ولكني مخلصة جدا ، وغدا ستضيق ذرعا من شــدة اخــلاصي ٠

ـ ساعود الى الجبهة في القريب العاجل ٠

ـ ولماذا تفكر في ذلك قبل الاوان ؟ انت ترى كم انا سعيــدة ، ونحن نقضي اياما حــلوة ٠

٠٠ قد عشت بائسة مهمومة زمنا ليس بالقصير، ويوم عرفتك كنت في حالة اقرب الى الجنون ، ولكننا الآن سعيدان نحب بعضنا بعضــا ، فأرجوك ان تدعنا نرتع في هذه السعادة ٠

انت سعيد ألست كذلك ؟ هل هناك أي شيء أفعله ولا يرضيك ؟ هل باستطاعتي عمل اي شيء يمكن ان يجلب لك السعادة ؟ هل تريد ان اهــدل شعري ؟ هل تريد أن أرقص ؟

ـ نعم ، تعالي السرير ٠

ـ حسنا ، سأذهب لتفقد المرضى اولا ٠

وعلى هذه الوتيرة ، مضى صيف ذلك العام ، ولست اذكر من حوادثه الاخرى سوى حرارة الطقس ، واخبار الانتصارات الكثيرة التي كانت ترددها الصحـف .

كانت صحتي في تقدم مستمر ، وجراحي تندمل بسرعة ، ولم يمض وقت طويل حتى استبدلت العكاز بالعصا ، ثم شرعت في تدريب ركبتي ، بواسطة الاشعة والحمام الساخن ، على الثني والفرد ، في مستشفى ماكواري . فكنت أذهب اليها بعد ظهر كل يوم .

وبعد الانتهاء اجلس قليلا لقراءة الصحف في احدى المقاهي المجاورة ، ثم انهض توا واسير الى المستشفى ، وكل ما ابتغيه رؤية كاترين باركلي .

واما ما تبقى من وقتي ، ولا سيما في فترة الصباح ، كنت احاول قتله بالنوم او الجلوس في الحديقة ، واخيرا اخرج لمشاهدة المباريات او لزيـارة النادي الانجلو ـ أميركي حيث اطالع ما أود من الصحف والمجلات .

كان الوقت الذي نعمنا أثناءه بالخروج سوية في الامسيات ، قد ولى، ولم يتح لنا بعد ان استبدلت العكاز بالعصا ، ان نرتع في شوارع ميـلان وصالاتها ، متأبطين ذراعي بعضنا ، اذ كان من العار على ممرضة شابة ، ان ترى منفردة مع مريض ليس فيه ما يدل على حاجته للمساعدة ، وهكـــذا اصبحنا نرقب اليوم الذي تتكرم فيه الآنسة فيركوسن ، فتنوب عن كاترين في عملها المسائي وتمكننا بذلك من تناول العشاء خارجا .

اما الآنسة فان كامبن رئيسة الممرضات ، فقد تظاهرت باقتناعها أننا صديقان حميمان ، على أن تستمر كاترين في تخفيف الكثير من اعبائها،هذا بالاضافة الى انها كانت تعتقد بأن كاترين سليلة بيت عريق ، الامر الـذي

تعتبره كثيرا ، سيما وانها تؤكد دائما أنها منحدرة من أعرق عائلات اوروبا.

• • •

كان الصيف حارا ، وبالرغم من معارفي الكثيرين فيميلان ، الا اني كنت دائما أحن الى العودة الى المستشفى فور انتهاء عملي .

أما في الجبهة فكان جنودنا يتقدمون في منطقة كارسو ، محتلين بلدة كوك ، شمال بلافا ، كما انتزعوا هضبة بانسيزا . ومع ذلك فقد كان واقع القتال يشعر بأن الحرب ستستمر طويلا ، وحتى لو تقدم جنودنا الى ما وراء السنسيزا ، وجبل سانت جبريل ، فسيبقى امامهم جبال شاهقة اخرى ، لا بد من الاستيلاء عليها قبل بلوغ النمسا .

لقد سحق نابليون النمساويين ، بعد ان استدرجهم الى الاراضي السهلية المنبسطة ، ولم يحاربهم في الجبال ابدا ، بل تركهم يتبعونه حتى سهل فيرونا وهناك كال لهم الضربات القاصمة ، وقضى عليهم قضاء مبرما.

اما اليوم ، فالحالة تختلف كثيرا ، ولم يتمكن احد الفريقين من سحق عدوه كأن الحروب لم يعد بالامكان كسبها ، أو كأنها ستظل مشتعلة حارقة الى الابد ، أو لربما هي حرب مائة سنة اخرى .

وعندما بلغ التفكير مني هذه الدرجة ، وكنت أطالع أخبار الميدان، في النادي الانجلو ـ اميركي ، القيت بالصحيفة جانبا ، وغادرت المقر باتجاه شارع مانزوني الكبير ، وهناك امام واجهة الكراند أوتيل ، التقيت بالسيد مايرس وزوجته العجوز عائدين من حفلات سباق الخيل .

كان السيد مايرس رجلا قصير القامة ، ضئيل الحجم ، بلغ من العمر عتيا ، يمشي متكئا على عصاه ، أما زوجته فامرأة سمينة ترتدي لباسا اسود اللون . وعندما لمحتني ارتفع صوتها الاجش : ـ كيف حالك ؟

فحييتها ، وسألت الزوج عن حظه في المباريات اليوم فاجابني ضاحكا :

ـ رائع ! لقد ربحت ثلاث مراهنات ، لماذا لا تزورنا ؟

ـ سأزوركم في القريب .

فقالت السيدة مايرس :

ـ كنت قادمة لرؤيتكم في المستشفى ، انتم يا أولادي المرضى ، عندي أشياء لـكم ٠

ـ سيكونون سعيدين برؤيتك ٠

ـ أولئك الاولاد الاعزاء ! وأنت اولهم ، أنت أعزهم على قلبي ! كم أنا مشتاقة لهـم ٠

ـ وداعـــا ٠

ـ وداعا ٠٠ بلغ تحياتي للجميع ، عندي أشياء كثيرة لكم ٠٠ كعـك ورسوم وقبعات و ٠٠٠

ـ ستكون سعيدين جدا بزيارتك ، الى اللقاء ٠

وتابعت طريقي ، وحين بلغت الكوفا توقفت طويلا كي ابتـاع هديـــة لكاترين ولكنني شاهدت حول احدى المناضـــد في الحديقة ، نائـــب القنصل الاميركي ، بصحبة بعض العسكريين ٠

كانوا يتحدثون عن الفروق الشاسعة بين الرواتب في الجيشين الاميركي والايطالي ، وكان احدهم ايتور ، ينتظر ترقيته الى رتبة كابتن ، نظرا لبسالته واقدامه كما يقول ٠ فرجوت له حظا طيبا واوصيته بالحرص عـــلى نفسه ، ولكنه اجابني : لا تكون قلقا من ناحيتي ، اطمئن ، فانا لا اتعاطى الخمـــرة ولا اعاكس الفتيات ، ولست أحمق متهورا ، انني اعرف مـا يعـود عـــلي بالخير وكل همي ، هذه الايام هو كسب الحرب ٠

ـ الى اللقاء وحظا سعيدا ٠

ـ الى اللقاء ٠٠ متى ستعود الى الجبهة ؟

ـ قريبا جدا ٠

ـ حسنا ، سأراك على كل حال ، ولكن انتبه لا ترضـى بالوســـام البرونزي ٠

فهززت رأسي ، ودفعت قدمي أماما اريد الوصـــول الى المستشفـى ٠

كان ايتور في الثالثة والعشرين من عمره ، نشا في رعاية عمـــه فـي سان فرنسيسكو ، وعندما نشبت الحرب ، كان في زيـارة والديـــه فـي تورنتو بايطاليا ، فالتحق بالجيش ، وخـاض المعارك في صفوفـه ، وكانـت له شقيقة ، نشات معه في سان فرنسيسكو ، برعاية عمهـا ، واظنها اليـــوم في السنة النهائية في المدرسة الثانوية هناك ٠

اما ايتور فكان شابا شجاعا جريئا ، ولكنه يتصف بالثرثرة الدائمة ، وبمضايقة كل من يجتمع به او يستمع لحديثه ، او حتى يلقاه في الطريق ولو عرضا ٠

ولم تستطع كاترين احتمال معشره ، واجابتني وانا اقص عليها وقائع يومي :

ـ عندنا شجعان ايضا ، ولكنهم يا عزيزي ، اقل تبجحا وأخف ظلا ٠

ـ انا لا الومه ٠

ـ وأنا لا اعتب عليه ، لولا انه مغرور جدا ، ويضايقني كثيرا ، ويستمر في مضايقته دونما توقف ٠

ـ انه يضايقني كذلك !

ـ كم انت رائع لقولك هذا ، انه مثال الرجل الذي لا احفل به ولا أجد دافعا للاهتمام بامره ، رغم تحققي من فائدته في الحرب ، وتصوري لحماسه واندفاعه بالجبهة ٠

ـ اني اعرف ذلك ٠٠

ـ وانك لعظيم جدا لانك تعرف ٠

ـ قال انهم هذا المساء سيقلدونه رتبة كابتن ٠

ـ حسنا ، ذلك ما يسره كثيرا ٠

ـ وانت لا تسرين اذا ما تقلدت رتبة أعلى ٠

ـ لا ياعزيزي ، فقط اريدك تقلد الرتبة التي تمكننا من ارتياد مطاعم الدرجة الاولى ٠

ـ انها الرتبة نفسها التي احملها الآن ٠

ـ رتبتك ممتازة اذا ، ولست اريدك تقلد رتبة اعلى ، لئلا تزداد كبرياء ، آه يا عزيزي ، كم انا سعيدة لكونك عديم الغرور على اني سأتزوج بك حتى ولو كنت مغرورا ولكن الحقيقة ان الزواج من رجل مغرور امر خاسر تماما ٠

كنا نتكلم ونحن في الشرفة ، والقمر يصعد نحو كبد السماء والضباب يملأ الجو من حولنا وشعرت كأن مطرا يوشك ان يهطل ، فدخلنا الغرفة ٠

ـ ومن رأيت غير ايتور وجماعته ؟

ـ السيدة والسيد مايرس ٠

ـ ذانك الزوجين الغريبي الاطوار !

ـ يظهر انه قضى زمنا طويلا في السجن ، ثم اطلقوا سراحه كي يموت حرا طليقا ٠٠

ـ وهو يعيش سعيدا في ميلان ، ينتظر نهايته ٠

ـ ولكني لا افهم ماهية سعادته ؟

ـ بخلاصه من حياة السجن كما يتراءى لي ٠

ـ زوجته ستجلب لنا مجموعة من الهدايا ٠

ـ أشياء فاخرة بالطبع ! ألم تدعك ابنها ؟

ـ أحد ابنائها ٠

ـ انتم جميعا ابناؤها الاعزاء ٠٠ اظنها بدأت تمطر ٠

ـ بغزارة ٠

ـ وانت دائما ستحبني اليس كذلك ؟

ـ نعم ٠

ـ والمطر لن يغير شيئا ؟

ـ لا ٠

ـ حسنا ٠٠ اني أخاف المطر ٠

ـ لماذا ؟

ـ لا أدري يا حبيبي ٠

ـ أما أنا فأحبه ٠

ـ ارغب في السير تحت نقاطه ولكنه مخيف جدا في ٠٠

ـ أنا أحبك دائما ٠

ـ وأنا احبك في المطر وفي الثلج وفي البرد وفي ٠٠ أي مكان تريد ؟

ـ لا أدري ، أظن اني تعس ٠

ـ اذهب الى سريرك يا عزيزي ٠

ـ أنت لست خائفة في الحقيقة من المطر ٠

ـ لا ، عندما أكون معك ٠

ـ ولماذا تخافينه ؟ ـ لا ادري ٠ ـ اخبريني ٠

ـ لا تضطرني اضطرارا ـ اخبريني ٠ ـ لا ٠ ـ اخبريني ٠

ـ حسنا ، اني اخاف المطر لانه يتراءى لي احيانا اني اموت تحت رشاشه ٠

ـ لا ٠   ـ واحيانا اراك انت تموت تحت رشاشه ٠

ـ هذا اكثر احتمالا ٠

ـ لا ، لن يكون كذلك يا حبيبي لاني لا استطيع المحافظة عليك ، انا واثقة اني استطيع ، ولكن لا يستطيع احد المحافظة على نفسه وحيدا ٠

ـ ارجوك الكف عن هذا الحديث ، فانا لا اريدك هذه الليلة ، اسكتلندية مجنونة ، سيما وانه لم يعد هناك متسع من الوقت امامنا ، فقريبا سأسافر الى الجبهة ٠

ـ اذن سأصمت ، كله كلام هراء ٠

ـ نعم انه كلام هراء ٠

ـ كله كلام هراء ٠٠ انا لا اخاف المطر ، يا الهي ٠٠ ليتني لم اكن كذلك ٠٠ ليتني ٠٠

وشهقت باكية ٠٠ فاسرعت وضممتها الى صدري ، ولكنها استمرت تبكي ٠٠ بينما ازداد صوت هطول الامطار خارجا حدة وصريرا ٠

اقترح علينا كورويل روجرز المريض في المستشفى ، وجريح قنبلة الهاون ، ان نذهب في احدى الامسيات لمشاهدة سباق الخيل ، الذي كان يجري عادة على ملعب سان سيرو ، فطربنا جميعا للفكرة ، وراحت كاترين وفيركوسن ، تعدان نفسهما لمرافقتنا ·

وبالرغم من ان كورويل لم يكن من المولعين بهذه اللعبة ، الا انه كان دائما يتابع قراءة صحف السباق ، ويتسقط اخبار الخيل الرابحة لغاية في نفسه ، لم اكتشف كنهها ·

كان النهار مشرقا ، ودرجت بنا العربة ، خلال وسط المدينة فالضاحية القريبة ، حيث ابتنى اغنياء ميلان قصورهم الفخمة ، تحيطها الحدائق الفسيحة الغناء ، وتتخللها قنوات المياه الجارية ، والينابيع الكثيرة المنتشرة · وعندما بلغنا حقل السباق المسور ، فتح لنا الحارس مصراعي البوابة ، وسمح لنا بالدخول بعد ان لمح لباسنا العسكري ، دون ان يطلب الينا دفع رسوم ما ، ترجلنا من العربة ، واتجهنا صوب المدارج ، نحتل مقاعدنا ·

كان كل من في الداخل ، منهمكا في انتقاء اسم الحصان الذي سيراهن على فوزه ، بينما قاد السواس « السائسون » أفراد الخيل المتبارية ، واحدا اثر واحد ، امام اعين النظارة ، وانتقى كورويل من بينها حصانا اسود اللون ، قائلا انه يؤكد عدم طبيعية ذاك اللون ، الشديد السواد ، وانه من فعل صباغ معين ، فوافقته كاترين على رأيه ، واثقة هي الأخرى في ذلك ، بينما اعلنت فيركوسن عن جهلها في هذا الموضوع ، اما انا فادعيت ان في المسالة نظرا ، وان الامر يدعو الى الشك · الا اننا في النهاية ، اتفقنا جميعا على المراهنة باسمه ، واسرع كورويل فابتاع الاوراق المطلوبة ، ومنها عرفنا ان فائدته ستكون ٣٥ لير مقابل اللير الواحد في حال فوزه · وهذا ما تم فعلا ، اذ جاء الاول بين الخيول المتبارية ، فسرت كاترين وقالت بصوت الفائز النشوان :

ـ اذن سنكسب ما يزيد على ثلاثة الاف لير ·

ـ فقط اذا لم يتغير لونه قبل ان نقبض الثمن · اجابها كورويـــل ، ولكنها اردفت :

ـ انه حقا حصان جذاب · لا ادري اذا كان السيد مايرس قد راهـن باسمه ايضا ·

وكان هذا الاخير يجلس بالقرب مني فناديته :

ـ هل ربحت ؟ فهز برأسه نعم ·

ـ اما انا فلا ·· صـــاحت السيدة مايرس ·· وانتم يا اولادي ، اي حصان اخترتم ؟

ـ جابلاك ·· الرابع ·

ـ احقا ذلك ؟ سيعطي ٣٥ مقابل لير واحد ·

ـ لقد احببنا لونه ·

ـ على خلافي انا ·

ـ ولكنهم لن يدفعوا هذا المبلغ ، اعترض السيد مايرس ·

ـ كيف لا ؟ لقد سجلوا ذلك الرقم مقابل اسمه ؟

ـ ومع ذلك لن يدفعوه ·· الكثيرون تراهنوا عليه ·

ـ أواثق انت ؟

ـ نعم ، السيد كمبتون وزوجته ·· و ·· لن يدفعوا اكثر من ليريـن مقابـل واحد ·

وعندها صاحت كاترين :

ـ اذا لن نحصل على الثلاثة الاف لير !

ـ هذا ليس عدلا ، هذا تزوير ·

ـ ولكنك ستقبضين مائتي لير !

ـ مبلغ لا قيمة له ، لقد حسبت اننا سنقبض ثلاثة الاف ليرة !

ـ هذا تحيز واضح ! علقت فيركوسن ·

ـ طبعا تحيز واضح! تابعت كاترين ، ثم التفتت نحوي ناهضة ·

فنهضت وامسكت بيدها ثم نزلنا المدرج ، وعيون الشبان الايطاليين ، الذين جلسوا حولنا تراقبنا بفضول ظاهر ، حتى بلغنا مكانا قريبـا مـن البوابـة :

ـ هل تحب امثال هذه المباريات ؟

ـ نعم ، اظنني كذلك ·

ـ حسنا ، ولكن يا عزيزي . انا لا استطيع المكوث مـــع كـل هـؤلاء

ـ ليس معنا كثيرون .

ـ لا ، ولكن السيد مايرس وزوجته والموظف ذاك وزوجته وبناته و ..

ـ انه الموظف الذي اصرف عنده حوالاتي المالية !

ـ ها .. ولكن الا يمكن ان يقوم موظف مقامه اذا ما رفض هو ذلك ! والشبان الايطاليون الاربعة لقد ضايقوني للغاية .

ـ اذن لنظل هنا بعيدا .. نراقب السباق .

ـ هذا افضل ، فانا اشعر الآن بارتيـــاح . الا تريد احتساء شيء ؟ فبامكاننا هنا ان نشرب ، ونراقب السباق ايضا .

ـ ساذهب لاحضار مشروب اذا .

ـ لا ! الخادم يحضره ، واشارت بيدها فاسرع نحونا .. الا تفضل ان نكون وحدنا ؟

ـ طبعـــا .

ـ شعرت كاني وحيدة .. ونحن معهم .

ـ المكان رائع هنا !

ـ حقا انه سباق جميل !

ـ انه ممتع !

ـ ولكن لا تدعني أفسد عليك متعتك . انا مستعدة للذهاب حيث تريد والجلوس في المكان الذي يروق لك .

ـ لا ، سنظل هنا ونحتسي الشراب .

ـ آه ، انك عظيم جدا . . انك تعاملني معاملة طيبة للغاية .

وبقينا وحدنا ، نتأمل ما يجري امامنا ، دون ان ينبس احدنا بكلمة .. وعندما انتهى السباق سررنا بلقاء الآخرين .

أقبل كانون الثاني ، وأقبلت معه ليالي البرد القارس ، بعد ان تساقطت اوراق الاشجار ، مؤذنة بانقضاء الصيف وحلول ايام الشتاء ٠

كانت الاوضاع في الجبهة تسير من سيء الى أسوأ ، ولم يستطع جنودنا الاستيلاء على سان جبريل ولا ان يتقدموا في بانسيزا ، وجرت في المدينة ، كما جرى في تورين ، مظاهرات ضد استمرار الحرب ، وفي النادي الانجلو ـ اميركي جلست اتحدث الى ماجور انجليزي، فأخبرني ان الايطاليين فقدوا ١٥٠ الف مقاتل في جوار بانسيزا ، وان اربعين الفا آخرين ، قد فقدوا في ناحية كارسو ، ثم تابع حديثه قائلا « ان فصل القتال قد انتهى هذا العام ، وان شعب ايطاليا قد تحمل فوق طاقته ٠ وان الهجوم قد فشل في الفلاندرز ، وانه اذا تمكن الالمان من افناء عدد كبير من جنود الحلفاء ، كالعدد الذي أفنوه هذه السنة ، فان ذلك يعني انهيار الدول المتحالفة ، واردف : رغم انها الآن في حالة تضعضع مؤسفة٠ الا ان أحدا لم يدرك هذه الحقيقة بعد، والواقع اننا جميعا متضعضعون ، ولكن الامور تتابع مجراها طالما اننا لا ننتبه لذلك ٠ نعم تلك الحقيقة ، جميعنا خائرو القوى ٠ ولكن يجب ان لا ننتبه لذلك وآخر دولة تنتبه لهذه الحقيقة ، هي التي ستكسب الحرب ٠ على كل حال ، القضية كلها قذارة ٠ انهم يفكرون فقط بالفرق العسكرية بالرجال والجنود ٠ انهم يتنافسون في تجنيد القوى البشرية ٠ وعندما يصبح بين ايديهم ملايين الرجال ، يدفعونهم الى القتال ٠٠ الى الموت ٠٠ الجميع منهارون ، والالمان وحدهم يحرزون الانتصارات انهم الجنود الحقيقيون ٠ ان الالماني الاول خلق ليكون جنديا ، ومع ذلك فهم خائرو القوى أيضا ٠٠ الجميع خائرو القوى ٠٠ الجميع محطمون »٠ وسألته عن روسيا فاجابني « انها هي أيضا منهارة ٠ وكذلك النمساويون ، منهارون ايضا ٠٠ أما اذا استطاعوا تجنيد بعض الالمان

في فرقهم فسينتصرون ، فسألته :

ـ وهل تعتقد انهم سيشنون هجوما عاجلا ؟

ـ نعم ، الايطاليون منهارون ، كلنا يعرف ذلك ٠٠ وسيطاردون الالمان في ترنتيمو ويقطعون عليهم الطريق عند فيسنزا ٠

ـ لقد جربوا ذلك في السنة الماضية فلم يفلحوا ،

ـ ليس الالمان الذين جربوا ؟

ـ بلى ٠

ـ اذا من المستحيل ان لا يكونوا يقصدون ذلك ، انهم يحاولون الامور الصعبة الشائكة ٠

ـ جاء الآن ميعاد انصرافي ، ينبغي ان أعود الى المستشفى ، وداعا ٠

ـ وداعا ٠

كان هنالك تناقض واضح ، بين مرحه الشخصي وتشاؤمه السياسي المتطرف ٠

٠ ٠ ٠

كانت ساقاي قد تحسنتا كثيرا ، وكنت قد عرضت للكشف الدقيق الايام الثلاثة الماضية ، ولم يبق سوى قليل من التمرينات الفنية ، على ان اجريها في مستشفى ماكواري ، وينتهي بعدها كل شيء ، وكنت حسب ماطلب الي اكثر من المشي الهادىء المنتظم ٠ وحدث مرة وانا أسير على الرصيف ، أن شاهدت رجلا مسنا ممن يتعاطون فن الرسوم التخطيطية ، فوقفت أتأمل حركة يده الرشيقة ، وكانت مقابله ، صبيتان يتنقل بنظره منهما الى الورقة الكبيرة امامه وعندما أتم الرسم ، أراني اياه قبل أن يقدمه لهما ٠

ـ انهما جميلتان ٠ هل تريد رسما ايها الليوتنان ؟ وناول الورقة للفتاتين فابتعدتا وصوت قهقهتهما يرن في أذني ٠٠ كانتا جميلتين فعلا واحداهما تعمل في دكان الخمور القريب من المستشفى ٠

ـ انزع قبعتك ٠

ـ لا ، ارسمني واياها ٠

ـ لن تكون صورة جميلة ٠٠ لا ، ستكون اكثر هيبة ووقارا ٠ وبعد قليل قدمها لي ٠

ـ كم تريد ؟
ـ لا بأس ، هذه تقدمة مني ٠
ـ لا ٠٠ أرجوك ٠
ـ ابدا ٠٠ رسمتها كهدية مني ٠
ـ شكرا جزيلا ، الى ان التقي بك انا ٠

* * *

عندما بلغت المستشفى ، وجدت فوق منضدتي بعض الرسائل٠ احداها عسكرية قرأتها فورا ، فعملت انهم جددوا لي ثلاثة اسابيع اخرى ، كمأذونية اضافية اعود فور انتهائها الى الجبهة ٠ اخبرت الممرضة انني لن اتناول عشائي وحملت الرسائل قاصدا المطعم القريب في نهاية الشارع وعلى المنضدة داخله ، شرعت بالقراءة : كانت اولاها من جدي تتضمن أخبار العائلة ، ثم نصائح ٠٠ وحوالتين بمائتي دولار ٠ والثانية من صديقنا كاهن الفرقة ، والثالثة من رينالدي يسألني الى متى سأظل راتعا في شوارع ميلانو وحاناتها ، ويذكرني بضرورة احضار اسطوانات الاوبرا ، نسيتها في المرة السابقة ٠

تناولت عشائي ، وقرأت الجريدة الموضوعة على المنضدة المجاورة ، ثم حملت رسائلي وخرجت ٠

وفي غرفتي بالمستشفى ، استلقيت على السرير ، بعد أن ارتديت ملابس نومي ممسكا بين يدي احدى جرائد بوسطن ، التي كانت قد اهدتها الى ابنائها الاعزاء ، السيدة مايرس٠ لم يكن في الصحيفة الا اخبار القتال القديمة ، وبعض انباء محلية تافهة ، ثم اسماء معسكرات التدريب الناشطة ، وكم سررت لاني لم اكن ضمن اسلاك احداها ٠

وفيما أقرأ ، كنت أسمع خطوات كاترين ، وهي تنتقل في الرواق ما بين الغرف ، كانت نوبتها توشك على النهاية ، ولم تمض دقائق حتى انفتح الباب ورأيتها تتجه نحوي :

ـ لقد تأخرت عليك يا عزيزي ٠٠ كيف انت ؟
فأخبرتها عن الرسائل وقرب انتهاء المأذونية ٠
ـ حسنا ، وأين ستقضي فترة المأذونية هذه ؟

ـ هنا ،سأبقى هنا ٠
ـ لا ، اختر مكانا جميلا وسألحق بك اليه ٠
ـ وكيف ستتدبرين ؟
ـلا أدري ، ولكني سأفعل ٠
ـ انك حقا مدهشة ٠
ـ لا ، لست كذلك ، وليس في الحياة امر يصعب القيام به ٠
ـ ماذا تقصدين ؟
ـ لاشيء ، كنت اتصور عقبات صغيرة على جانب عظيم من الخطورة ٠
ـ أما انا فاعتقد ان الامر في غاية الصعوبة ٠
ـ لا ، يا عزيزي ، اذا اقتضى الامر فسأستقيل ٠
ـ وأين سنذهب !
ـ لن يهمني هذا ٠٠ أي مكان تريده !
ـ لا تمانعين في أي مكان انتقيه ؟
ـ ابدا ، فانا اقنع بأي مكان تكون انت فيه ٠
ـ ما بك ياكاترين ؟
ـ لاشيء ابدا ٠
ـ لا بل هناك شيء ٠
ـ ابدا لا شيء في الحقيقة ٠
ـ انا اعرف ان هناك شيئا ما ، اخبريني ٠
ـ لا أريد ، أخاف ان افسد عليك سعادتك ٠
ـلا لن يحصل شيء من هذا ٠
ـ اواثق انت ؟ الامر لم يزعجني ، ولكني اخشى ان يزعجك انت !
ـ لن يكون ذلك طالما انه لم يزعجك انت ٠
ـ ومع هذا فلا أريد اخبارك ؟
ـ نعم ٠
ـ سوف أضع طفلا ، انه يبلغ من العمر ثلاثة شهور ٠
ـ حسنا ٠
ـ هل سررت ؟

ـ طبعا
ـ حاولت كل شيء ، وتناولت انواعا من العقاقير ، ولكنها لم تفد ٠
ـ لست متضايقا ٠
ـ لم استطع تجنبه ياعزيزي ، يجب ان لا تشعر بالكدر ابدا ٠
ـ اني متكدر من اجلك ٠
ـ هذا ما كنت أخشى وقوعه ، كل رجل ينجب اطفالا ، انه أمر طبيعي ٠
ـ انت مدهشة حقا !
ـ لا ، لست كذلك ٠٠٠ ولكن انت يجب ان لا تتكدر ٠٠ وأعدك اني لا أجلب لك المتاعب مع اني سببت لك بعضها ، لم اكن فتاة صالحة هل تعلم ؟
ـ لا ٠

ـ وكذلك سيسير كل شيء وببساطة ، يجب ان لا تقلق ابدا ، يتراءى لي انك متضايق ٠ لماذا ؟ ٠٠ ابعد القلق ٠٠ انزعه بعيدا ٠٠ ألا ترغب في كأس فأنا اعرف ان الشراب يجعلك تشعر بالارتياح ٠

ـ لا ، اني اشعر بالارتياح الآن ٠٠ وانت مدهشة حقا ٠

ـ لا ، لست مدهشة ، ولكني عملت كل شيء ، وفكرت بكل شيء ٠٠ واستطعت ان اتدبر الامر كي نظل دائما معا ، اذا ما اخترت لنا مكانا نذهب اليه ٠٠ فالطقس سيكون ممتعا جدا في تشرين الاول ٠ وبامكانك ان تقضي وقتا جميلا للغاية ، وبعد سأكاتبك كل يوم ، عندما تعود الى الجبهة ٠
ـ واين ستكونين انت ؟

ـ لا أعرف تماما الآن ، ولكن في أي مكان مريح ، سأفتش عنه ٠
وصمتت برهة كانت تجلس على السرير قبالتي ، وعيناي تتأملها من طرف خفي :

٠٠ كنا بعيدين عن بعضنا ، كل يفكر في نفسه بشخصيتـه المفضلة ، بذاته الخاصة ، كنا انسانين متباعدي العاطفة مفترقي الشعور تماما ، كما يكون وضع أي انسانين عاديين ، عندما تدخل الغرفـة ، وتراهما جالسين منفصلين ، قد شرد كل منهمـا وراء بنات افكاره ٠ وفجأة مدت يدها الي ، وامسكت بيدي :

ـ أنت لست غاضبا يا عزيزي ! أليس كذلك ؟ ـ لا ٠
ـ ولا تحس بأنك وقعت في الفخ ؟

ـ لربما قليلا ، ولكن ليس من قبلك ؟
ـ انا لم اقل من قبلي ! لا تكن أحمق ·· انني أقصد « عموما » ·
ـ أنت دائما تشعرين بانك وقعت بالفخ ·
فتراجعت الى الوراء دون أن تهز أو تبعد يدها ·
ـ دائما ليست كلمة طيبة · ـ آسف ·

ـحسنا !ولكنك تعرف انني لم أرزق طفلا أبدا ·· وانني لم أفكر بحب أحدهم يوما ·· وانني جربت طيلة هذه المدة أن اسير في الطريق الذي ترضيك وان أنفذ مشيئتك ·· وبعد هذا كله تقول « دائما » ·
ـهل تريدين أن أقطع لساني ؟ اني على استعداد لافعل ذلك !
ـ آه يا عزيزي · واقتربت مني : ينبغي ان لا تؤاخذني ··

ثانية تملكنا الشعور المشترك بالالفة والتكامل ، وزال عنا الاحساس بالفردية ، وقالت كاترين ·

ـ نحن كلانا شخص واحد ، يجب أن لا نسيء فهم بعضنا عن عمد ·
ـ نحن لا نفعل ذلك ·
ـ ولكن الناس عادة يفعلون ، انهم يتحاربون ثم يختلقون المشاكل عمدا وتسوء علاقتهم ويتشاجرون ، وفجأة نسمع انهم افترقوا ·

ـ ولكننا لا نتشاجر ·
ـ طبعا ·· ينبغي أن لا نتشاجر ، لاننا وحيدان في علاقتنا في هذه الدنيا، لا مثيل لنا ولا لحبنا ·· فاذا ماتشاجرنا لا قدر الله ، سنشقى كثيرا ويشمتون بنا ·

ـ لن يشمتوا بنا ·· لانك شجاعة جدا ولا شيء مطلقا يصيب الشجعان·
ـ ولكنهم يموتون أخيرا ·
ـ مرة واحدة فقط ·
ـ لست اذكر قائل هذه العبارة :
الجبان يموت الف مرة ، ولكن الشجاع يموت مرة ·
ـ صحيح ! ومن قائلها ؟ ـ لا أعرف !

ـ من الارجح انه كان جبانا ، فهو يعرف الكثير عن الجبناء ، ولا شيء عن حقيقة الشجاع ، فلربما مات الشجاع ألفي مرة ولكن القضية انه لا يذكر

ذلك ولا يفضح خوفه .

ـ لست أذكر ذلك ، ومن الصعب معرفة ما في قرارة الشجاع .

ـ بلى ! تلك هي طريقته .

ـ انك حقا خارقة الذكاء ، والقدرة على السيطرة .

ـ أصبت يا عزيزي ، فانا جديرة بهذه الصفة . ـ انك شجاعة .

ـ لا ، ولكنني أرغب في ان أكون كذلك ..

ـ اما انا فلا ، انا أعرف فقط اين يجب أن أضع قدمي ، ولقد توصلت الى ذلك بعد تجارب كثيرة . ـ ...

ـ أعتقد ان كلا منا مغتر بنفسه ، على أن الحقيقة انك شجاعة .

ـ لا ! ولكنني أرجو أن أكونها .

ـ كلانا شجاع ، وأنا شخصيا اشعر بشجاعة أكثر بعد احتساء كأسين أو ثلاثة .

ـ كلانا شخصان ممتازان . وذهبت الى الخزانـة ، واحضرت قارورة البراندي .

ـ اليك بالكاس .. فقد عاملتني معاملة حسنة جدا .

ـ الحق اني لا اشعر بحاجة الى الشراب الآن . ـ واحدة فقط ..

ـ لابأس . وجرعته .. وبعد دقائق ملأت الكاس الثالثة .

ـ لقد شربت كثيرا .. سمعت أن البراندي تقدم للابطال .. ومع ذلك فينبغي ان لا تشعر بالكبرياء ، ولا تتعجرف .

ـ أين ستسكنين بعد الحرب ؟

ـ في بيت عتيق على الاغلب . منذ ثلاث سنين وأنا انتظر انتهاء الحرب ولكنني الآن أنتظر اليوم الذي سيصبح فيه ابني لفتنانت !

ـ لربما أصبح جنرالا .

ـ اذا تحولت هذه الحرب الى حرب مائة سنة أخرى فسيكون بامكانه نيل تلك الرتبة . ـ الا تريدين كأسا ؟

ـ لا ! انها دائما تجعلك مسرورا ، وهي دائما تجعلني كالمصاب بالدوار .

ـ ألم تشربي البراندي قبلا ؟

ـ لا يا عزيزي ، فانا زوجة محافظة ، متمسكة بالتقاليد .

وتناولت القارورة من على الارض ، وملأت الكوب للمرة الرابعة .

ـالافضل ان أذهب الآن في جولة على غرف المرضى ، وتقرأ انـــت في الصحف ريثما اعود .

ـ هل أنت مضطرة للذهاب ؟
ـ لا بد من الجولة أن عاجلا أو آجلا ٠
ـ حسنا لتكن الآن اذا ٠
ـ وساعود بعد قليل ٠
ـ فاكون قد انتهيت من هذه الصحف ٠

٠٠٠

في مساء اليوم التالي ، وكنت عائدا من مستشفى ماكواري ، اذ بحرارة الجو تنخفض فجاة ثم تهطل أمطار غزيرة ، تبلل ثيابي وتصل الى جسدي وعندما بلغت غرفتي ، كان المطر ما زال يتساقط مدرارا ثـم أخذت الريح العاتية تقذف بحباته الكبيرة على زجاج باب الشرفة ، فيدوي الصوت مزعجا ٠

بدلت ثيابي ، واحتسيت قليلا من البراندي ، ثم غفوت في سريري، وفي الليل أحسست بحمى تنتابني ، وبدوار ثقيل في رأسي ، فلم افعل شيئا ، وتابعت نومي ، ولكني عندما استيقظت في الصباح ، سمعت طبيب المستشفى يخاطب الآنسة كاج ، وكانا يقفان بجانب السرير :

ـ الامر مؤكد ٠٠ ليس عندي أدنى شك ٠ انظري الى بياض عينيه ٠٠ مؤكد يا آنسة مؤكد ٠

فانحنت الآنسة كاج ونظرت في عيني، ثم احضرت مرآة وجعلتني اشاهد بواسطتها بياضها ، كان أصفر اللون مما يثبت اصابتي بداء الريقان ٠

وهكذا لم تستطع كاترين وأنا ، التمتع بأيام عطلتي المتبقية ، اذ ظللت طريح الفراش طيلة أسبوعين كاملين ، وخابت آمالنا في الذهاب الى بالنزا في لاكو ماكوري ، الناحية التـي فكرنا في قضاء أيام حلوة بيـن ربوعها ، حيث يستطيع المرء الابتعاد عن ضجيج المدن وشغبها ، والعيش في أحضان الطبيعة الجميلة الهادئة ، على ضفاف الجداول الرقراقة ، والبحيرات الصافية المياه، وفي ظلال الاشجار الدائمة الخضرة ، في الرياض المشمسة ٠ لقد قدر لي بدلا من ذلك كله ملازمة الفراش ، طيلة خمسة عشر يوما ، قضيتها دون أن يسمح لي بمغادرة الغرفة ولو لساعات ، وفي صباح أحد هـذه الأيـام ، دخـلت علي الآنسة فان كامبن ، رئيسة الممرضات ، واتجهت ، راسا الى الخزانة وبعد

أن تأملت محتوياتها ، التفتت نحوي وحدجتني شـزرا • لقد رأت قارورات الشراب ، مكدسة فوق بعضها ، وكنت قبل دقائق ، قد أرسلت عددا كبيرا منها مع الخادم ، والظاهر أنها لمحته وهو يسرع على السلم بها ، فأسرعت لتلقي القبض على بقيتها ، على أن الخادم كان قد نجا بمعظم الكبيرات ، ولم يدع الا قوارير البراندي ، المتوسطة الحجم •

مضت دقائق والآنسة كامين ساكتة تحملق في داخل الخزانـة ، كأنها لا تصدق ما تراه أمامها، ثم حملت قارورة من نوع كوميل، يظهر أنها اغضبتها أكثر من الباقـي ، وأخذت تتأملها والحنق باد في كـل قسمات وجهها ، وفي عينيها •

ـ انها كوميـل •• أحسن الانواع التي ترد الى ايطاليا •• واظنها من صادرات روسيا •

ـ جميعها براندي ، أليس كذلك ؟

ـ لا أستطع رؤيتها من هنا ! ولكن الغالب انها كذلك •

ـ منذ متى وهذا الامر يجري هنا ؟

ـ انني أبتاعها واجلبها بنفسي ، لان كثيرا من اصدقائي ، الضبـــاط الايطاليين ، يزوروني بين الحين والآخر ، فأكرمهم بتقديم شيء منها •

ـ يعني انك لم تشرب منها بنفسك ؟

ـ بلى ، أنا ايضا أشرب منها •

ـ براندي ! • احدى عشر قارورة من البراندي وهذا الشراب الروسي الثقيل • الكوميل •

ـ سأبعث خادما لاخذها جميعها •• هذا كل ما عندك منها ؟

ـ نعم في هذه اللحظة •

ـ تفعل كل ذلك ، ونشفق عليك لانك أصبت بالريقان •• أن العطف يذهب سدى مع شخص مثلك ! ـ شكرا •

ـ اظن ان أحدا لا يلومك ، لانك تحاول التخلص من العودة الى الجبهة ، ولكني أعتقد أنه كان بامكانك اتباع طريقة أخف ضررا من الاسراف في شرب الكحول ، وتعريض نفسك لداء الريقان الوبيل • ـ الاسراف بماذا •

ـ بالكحـول •• أتتظاهر بعدم سماعك اياه • فلـــم أجبهـا ، ولكنها أردفت :

ـ ان لم تبتدع سببا آخر ، فانك مضطر للعودة الـى الجبهـــة ، فور شفائك من الريقان فأنا لا أعتقد أن اصابـة بريقان اختياريـة تمكنك مـــن

الحصول على مأذونية للنقاهة .   ـ ألا تعتقدين ؟   ـ لا .

ـ هل حدث لك أن اصبت مرة بالريقان يا آنسة فان كامين ؟

ـ لا ، ولكني مرضت كثيرا من المصابين به .

ـ وهل لاحظت كيف ينعم المصابون بمرضهم هذا ؟ ويتمتعون بأيام مرضهم فيه ؟

ـ على كل حال ، أظنها أفضل من أيام السنة .

ـ آنسة فان كامين ! هل علمت مرة برجل أراد أن يجعل من شخصه عاجزا ، فقذف بنفسه في المرحاض ؟

فتجاهلت السؤال ، ولم يكن أمامها غير ذلك أو تغادر الغرفة ، على انها لم تكن في حالة تمكنها من الانسحاب الطبيعي لقد كرهتني زمنا طويلا ، وها هي الآن تقبض الثمن . وحتى لا تشعرني بما يفتعل في داخلها أجابت ، متظاهرة بالطمأنينة .

ـ أعرف كثيرا من الرجال كانوا يتهربون من الذهاب الى القتال بايقاع أنفسهم بمختلف الاصابات الجارحة .

ـ ولكن ليس هذا ما سألتك عنه .. فانا أيضا رأيت رجالا جرحوا أنفسهم تعمدا ، انما أريد ان أعرف فيما اذا كنت شاهدت انسانا يقذف بنفسه الى المراحيض ، ليجنبها الذهاب الى الحرب ، فهذا أقرب الامور التي توقع المرء نفسه بداء الريقان .. وقل من النساء من خبر شروره ، وهذا ما جعلني اسألك فيما اذا كنت قد أصبت به ، لانه يا آنسة فان كامين ..

ولكنها قطبت وجهها ، وغادرت الغرفة وما هي الا ثوان حتى دخلت الآنسة كاج .

ـ ماذا قلت للآنسة كامين .. انها حانقة غضبى !

ـ كنا نقارن بين الاحاسيس ، وكنت عازما أن أشرح لها كيف أنها لم تعان آلام الولادة .. و ..

ـ هذه حماقة ! فهي ليست من اللواتي يصح أن تمزح معهن .

ـ ولكنها بادرتني بالمزاح .. فبالاضافة الى أنها أفسدت علي مأذونيتي، فانها تحاول على ما أعتقد ، اتهامي بالاصابة تعمدا وسوقي الى المحكمة العسكرية ، انها منحطة جدا .

ـ انها لا تحبك أبدا .. ولا أعرف لذلك سببا ؟

ـ تدعي اني قد أدمنت على الشراب، حتى أصاب بالريقان، وعندها أنجو من العودة الى القتال .

ـ يا لها من • اني على استعداد أن أقسم باسم يسوع انك لم تشرب حتى ولا جرعة •• كل انسان يؤكد ذلك ويقسم عليه •

ـ وأخذت القاورورات •

ـ آه ، كم مرة قلت لك أن لا تحتفظ بالفارغات هنا ، أين هي الآن ؟

ـ في الخزانة • ـ هل عندك محفظة جلدية ؟

ـ لا ! ضعيها في ذلك الكيس •

ففعلت ذلك : ـ سأحملها للحاجب •

وأتجهت الى الباب تريد استدعاءه ، ولكنها اصطدمت بفان كامين مسرعة وخلفها الحاجب •

وعندما رات الكيس ، صاحت بالخادم :

ـ اليك بها •• هيا سأعرضها أمام عين الطبيب قبل أن اقدم تقريري •

ثم خرجت ، يتبعها الحاجب ، حاملا الكيس الذي كان قد حمل قواريره الفارغة ملأى ذات يوم •

ومضت أيام ، ولم يقع شيء اللهم الا أني خسرت التمتع بأيام عطلتي •

في مساء الليلة التي كنت ساسافر فيه الى الجبهة، أرسلت الحاجب، ليحجز لي مقعدا في القطار ، القادم من تورين ، والذي سيغادر في منتصف الليل ٠
كان من الواجب أن يكون المسافر موجودا بنفسه لقطع التذكرة وحجز المكان ولكن الحاجب اصطحب معه أحد أصدقائه ، كان مدفعجيا ، قادما من الجبهة في ماذونيته ، فاكد لي الاثنان ان بامكانهما تامين المقعد ، والمحافظة عليه حتى حين وصولي ٠

وفي الساعة الخامسة مساء ودعت نزلاء المستشفى ومستخدميه ، وخرجت الى الطريق ، وكان الحاجب قد نقل أمتعتي الى غرفته ، استعدادا لايصالها الى المحطة ، قبل الثانية عشر بقليل ٠ أما زوجته التي كانت تلقبني بالسنيور فقد أجهشت بالبكاء عندما مددت لها يدي لاودعها ، ثم مسحت دموعها ولكنها عادت الى البكاء ثانية ، فربت على كتفها وواسيتها ببعض العبارات الرقيقة ، الا أن كل ذلك لم يغير من شدة تاثرها ، فأجهشت باكية للمرة الثالثة ٠

لقد كانت امرأة طيبة ، ساذجة النفس ، نقية السريرة ، ذات شعر أبيض ، وكنت اعتمد عليها في رتق ثيابي وجواربي ، وعندما شرعت في البكاء ، كانت كل قسمات وجهها تشارك في اعلان حزنها البالغ وتاثرها العميق ٠

٠ ٠ ٠

اتجهت الى دكان الخمور الصغير ، في نهاية الشارع وجلست أنتظر : كان الجو باردا ، الليل شديد الظلام ، يملأه الضباب ، وبعد أن نقدت الجرسون ثمن القهوة ، وكاس البراندي ، رحت أنظر من وراء زجاج النافذة ، أراقب المارة ، وعندما لمحت كاترين ، نقرت بقوة على الزجاج ، فأدارت رأسها ورأتني ثم اسرعت مبتسمة ، ولكنني هرعت للقائها خارجا ، وتابطت ذراعها ومشينا معا في الرصيف ٠ ثم عبرنا ساحة السوق الصغير ، ومن ثم اتجهنا

نحو ميدان الكاتدرائية التي بدت ، عند اقترابنا منها ، بيضاء مبللة من جراء الضباب • فسألت كاترين :

ـ هل تريدين الدخول ؟ ـ لا دعنا نتابع المسير •

وعند زاوية الكنيسة ، كان يقف جندي مع حبيبته في وضع أقرب الى العناق ، يحجبهما عن الانظار العمود الرخامي الضخم فقلت لكاترين :

ـ انهما يشبهاننا • ـ ليس في الدنيا من يشبهنا •

ـ أرجو أن يجدا مأوى يلجآن اليه •

وكنا قد تجاوزناهما بمسافة قصيرة ، ووقفنا نتأمل واجهة أحد محلات بيع الادوات الجلدية • حيث نسقت يد البائع عصا السكي وحذاء لاعب الكرة ، وأحزمة الجنود ، بشكل أنيق جذاب •

ـ سنلعب السكي ذات يوم •

ـ بعد شهرين سيبدأ فصل السكي في مورين •

ـ لنقصدها اذا ؟ ! ـ حسنا •

وعطفنا سيرنا نحو طريق فرعية •

ـ لم تطرق قدماي هذا الشارع أبدا •

ـ انها الطريق التي أعود فيها الى المستشفى •

وظللنا نسير على الرصيف الايمن ، نتأمل واجهات المحلات المضيئة ، بينما أشباح المارة تتحرك وسط الضباب من حولنا • وعند باب أحد المحال قلت لكاترين : ادخلي ، أريد شراء مسدس •

أحضرت السيدة ، صاحبة الدكان ، عددا من المسدسات المختلفة القياس ، وشرعت تبين مزايا كل منها •

ـ أريده يتناسب مع هذا ، وأشرت الى حزامي • وكان جلديا ، بني اللون ، اشتريته عتيقا لاستعمله مدة تجوالي في المدينة •

ـ هل هذه المسدسات من النوع الجيد ؟ سالت كاترين :

ـ كلها من نوع واحد •• هل تسمحين بتجربة هذا ؟ ـ ليس عندي الآن مكان لاطلاق النار •• ولكنه ممتاز جدا •• لا يخطىء أبدا •

فخرطشته ، كان رفاصه قويا ، ولكنه يتحرك ببطء ، خرطشته ثانية وثالثة •

ـ انه مستعمل كان يخص أحد الضباط الماهرين باصابة الهدف •

ـ وهل أنت التي بعته اياه ؟

ـ نعم . ـ وبكم استرجعته منه ؟ ـ من خادمه .
ـ لربما كان عندك مسدسي أيضا .. بكم هذا ؟
ـ خمسين لير .. رخيص جدا .
ـ حسنا ، اريد ماسكتين عتيقتين وحافظة رصاص .
وعندما أحضرتها سالتني : هل تريد سيفا ؟
نقدتها الثمن ، وثبت المسدس في الحزام ، ثم ملأت الحافظة رصاصا ،
الآن أصبحت كامل العدة : الامر الذي كان يجب أن لا أغفل عنه ، منذ أن سرق أحدهم مسدسي الاول ، وانا في طريقي الى المستشفى .
ـ ارجو أن يكون مسدسا من نوع جيد .
ـ قالت ذلك كاترين ، تريد انتزاع جوابا من المراة . ولكن هذه أجابت:
ـ الا تريد اي شيء آخر ؟ ـ لا أظن .
ـ المسدس له شريط خاص ، يعلق به . هذا ما لاحظته .
كانت تريد بيع أي شيء ، فأردفت : ألا تريد صفارة ؟ ـ لا أعتقد
ثم حييناها وخرجنا . سالتني كاترين : ما هذه المرايا المثبتة الى الالواح الخشبية ؟
ـ انها تستعمل لاجتذاب الطيور : يضعونها في الحقول ، فتراها القبرات ، وتقف فوقها ، وعندئذ يطلق الايطاليون النار عليها .
ـ انهم شعب ذكي ، أنت لا تصطاد القبرات يا عزيزي هل تصطاد في اميركا ؟
ـ ليس القبرات بصفة خاصة .
عبرنا الطريق ، ومشينا على الرصيف المقابل .
ـ اني أشعر بانتعاش الآن .. عندما بدأنا السير كنت متضايقة كثيرا .
ـ نحن دائما نشعر بانتعاش ساعة نكون معا .
ـ ونحن سوف نكون معا دائما .
ـ نعم .. غير انني مسافر الى الجبهة عند منتصف الليل .
ـ لا تفكر بذلك الآن يا عزيزي !
ظللنا نمشي حتى نهاية الشارع ، كانت الاضواء تشوبها صفرة خفيفة بتاثير الضباب ، الذي أخذ يبترد ويتكاثف وسالتني كاترين :
ـ ألست تعبا ؟ ـ كيف أنت ؟ ـ على ما يرام .. فالمشي شيء جميل .
ـ ولكن دعينا لا نطيله كثيرا . ـ لا ..

وعطفنا نحو طريق ضيق ، حيث لا أنوار ولا أناس ولا ضجيج، فتوقفت وقبلتها وبينما انا كذلك احسست بيدها فوق كتفي ، ثم التفت حول عنقي فنشرت « شالي » كي يستر راسينا ، وبعد قليل همست في أذنها :

ـ لنذهب الى مكان ما ٠   ـ حسنا !

استأنفنا السير حتى بلغنا ميدانا صغيرا تجري حوله قناة مائية وهناك لحنا سيارة فوق الجسر ٠   نستطيع امتطاء عربة خيل من على الجسر ٠

وفي الضباب الرطب ، وقفنا ننتظر ، مرت عـدة سيارات ملأى بالناس العائدين الى بيوتهم ، وتبعتها عربة ، ولكن بدا أن أناسا في داخلها ، وكان الضباب قد شرع يتحول الى رذاذ خفيف ، فقالت كاترين :

ـ الافضل أن نتابع المشي أو نركب الترام ٠

ـ لا بد أن تصل أخرى ، فعربات الخيل كثيرا ما تمر من هنا ٠

ـ ها ٠٠ هذه واحدة ٠

أوقف السائق العربة ، فصعدنا الى داخلها ، كانت مظلتها متدلية الى مداها الاقصى ، لمنع رذاذ المطر ، ولم نستطع رؤية حتى وجهي بعضنا في الظلمة الدامسة ٠

ـ الى اين طلبت اليه أن يسير بنا ؟

ـ الى المحطة ، فليس في طريقنا اليها أي فندق آخر ٠

كانت المسافة طويلة ، تتعرج في عدد من الازقة ٠

ـ الن نتناول العشاء ؟ أخشى أن يعضني الجوع ٠

ـ سنتناوله في غرفتنا ٠

ـ ليس معي أي شيء ألبسه هنالك ، حتى ولا قميص نوم ٠

ـ سنشتري واحدا ٠ وصحت بالسائق :   ـ الى شارع مازوني ٠

فاطرق رأسه وعند أول منعطف أدار العربة نحو الجهة اليسرى ٠ ولما بلغنا الشارع الكبير ، مدت كاترين رأسها تريد رؤية دكان ملابس ٠ ثـم خاطبت السائق :

ـ قف هنا ٠

لم تمكث طويلا حتى رجعت وبيدها حزمة صغيرة ثم همست في أذني :

ـ هل تأخرت؟ أسرعت كثيرا ومع ذلك فقد انتقيته قميصا فاتنا جذابا٠ ولما وصلنا الفندق ، طلبت منها البقاء داخل العربة ، ريثما أكلم المدير ٠ وبعد قليل رجعت اليها ، ونقدت السائق ، ثم سرت متابطا ذراعها نحـو المدخل المضيء ٠ فأسرع الصبي الصغير ، ذو البذلة اللامعة الازرار ، وتناول الحزمة

من يدي ، وما ان اقتربنا من منضدة المدير حتى خرج من خلفها وانحنى امامنا مشيرا الى المصعد ، ثم تبعنا ورافقنا في الصعود داخله ٠

ــ هل ترغب السيدة والسيد في تناول عشائهما بالغرفة ؟

ــ نعم ، أتتفضل بارسال قائمة الطعام ؟

ــ هل تريدان مأكولات خاصة ؟ بعض الطيور أو الاسماك أو ٠٠

كان المصعد قد اجتاز الطوابق الثلاث ثم توقف :

ــ وماذا عندك من أنواع الطيور ٠

ــ استطيع تقديم دجاج وحجل ٠ حجل ٠٠

قلت ذلك ونحن نخطو في الرواق الضيق ، الذي غطته سجادة بالية مهترئة ، بينما اصطفت على جانبيه أبواب كثيرة ، وقف أمام احدها وفتحه ٠

وضع الصبي الصغير الحزمة على الطاولة التي في زاوية الغرفة ، بينما انهمك المدير بسحب الستائر :

ــ الضباب كثيف بارد في الخارج !

أما أثاث الغرفة فكان جميعه ذا لون احمر ، تنتصب بين قطعه عدد من المرايا ثم كرسيان وسرير واسع، فوقه غطاء من الحرير، والى جانبه باب يوصل الى الحمام ٠ ــ سأبعث لكما بقائمة الطعام فورا ٠

قال ذلك وانحنى خارجا ٠

فاتجهت حالا الى النوافذ،وأعدت الستائر الى حالتها الاولى بينما جلست كاترين على السرير ملقية راسها الى الوراء ، فبدا شعرها في الضوء براقا رائعا ٠ ولم يبدو في وجهها اي دليل من علامات السرور ، بل كانت تغشاه سحابة من الكآبة العميقة ٠ ــ ماذا في الامر يا عزيزتي ؟

ــ ما حدث أن شعرت بنفسي كزانية كما أشعر الآن ٠

فرجعت الى النوافذ لتوي وأزحت الستائر جانبا ٠٠ ثم ذهبت بنظري بعيدا ٠٠ الى الابعاد السحيقة ٠ لم اكن احسب ان الامر يمكن ان يكون كذلك٠

ــ ولكنك لست عاهرة ٠

ــ أعرف ذلك ، ولكن ما افظع أن تشعر المرأة بنفسها كعاهرة ٠ قالت ذلك بصوت جاف متقطع ، تميزت من صدى نبراته صدق أحاسيسها ٠

ــ هذا احسن الفنادق التي بوسعنا دخولها ٠

وعدت أتطلع من النافذة ، ومن بعيد عبر ميدان المحطة الفسيح ، كانت تتناهى الى مسامعي اصوات العربات ، وتشع خافتة أنوار الكهرباء ، واستطعت رؤية اضواء الفندق تنعكس على الرصيف المبلل ٠٠٠ « يا للجحيم

... هل قدر لنا ان نقطع الساعات القليلة المتبقية في جدل عقيم ؟ .

وفجاة سمعتها تنادي بصوت مرتفع ، خال من الجفاف ،

ـ تعالى الي ، هنا ، تعالى الي .. أرجوك .. انني فتاة طيبة ، تعال ..

فأدرت وجهي نحوها ، كانت تبتسم وهي على السرير ، ولم أقوى الا أن أهرع اليها . وأقبلها :

ـ انك انسانتي العزيزة الرائعة .   ـ انني انسانتك بلا ريب .

بعد العشاء ، شعرت أن الجو قد تحسن ، ونعمنا ببشائر السرور تشع في عيوننا ، ولم تمض فترة قصيرة حتى بسمت الدقائق لنا ، وتحولت الغرفة وكأنها عشنا الزوجي المؤمل ، لقد كانت غرفتي في المستشفى بيتا زوجيا هانئا رتعنا فيه كأعذب ما تكون الحياة ، وها هي الغرفة الثانية في ميلان ، تغدو كذلك مأوى لنفسينا الظامئتين ، ننهل منه الدفء والسعادة والاطمئنان.

ـ انها غرفة بديعة .. انها جذابة . كان يجب أن نقيم هنا طيلة الايام التي قضيناها في ميلان .

انها تبدو في ناظري مكانا مضحكا ولكنه مضياف على كل حال .

أجبتها :

ـ الرذيلة شيء عجيب جدا ، شيء يستحق أن يقف عنده الانسان طويلا، والناس الذين ينغمسون فيها لا بد انهم تذوقوها جيدا ...

والاغطية الحريرية .. كلها .. كلها على أحسن ما يرام .. انك فتاة رائعة .

أنظر ، كم هي رائعة هذه الاوسدة الحمراء .. والمرايا النظيفة ..

ـلست أدري كيف يحس المرء ، عندما يستيقظ غدا صباحا فيجد نفسه مستلقيا على هذا السرير ، في هذه الغرفة .

سكبت لها كاسا أخرى ، ولكنها استمرت .

ـ أتمنى ان لو نستطيع اقتراف أثم حقيقي ، أن لو نتذوق الرذيلة الحقة .. ان لو نغوص فيها . كل ما فعلناه حتى الان يبدو لي شيئا بريئا ساذجا ، ولن أستطع أن أصدق ان شيئا مما فعلناه ، يعتبر أثما حقيقيا .

ـ انك فتاة عظيمة .

ـ انني فقط اشعر بالجوع ، بالجوع المخيف .

ـ انك فتاة جذابة ساذجة .

ـ نعم ، انني فتاة ساذجة ، ولم يدرك ذلك أحد سواك .

ـ يوم التقيت بك أول مرة ، ظللت ساعات طوالا ، وأنا افكر كيف يمكن أن نذهب سوية الى فندق كافور ، وكيف سيتم ذلك .

ـ ولكن ذاك صفاقة منك ، منتهى الصفاقـة ، هذا ليس فندق كافور
اليس كذلك ؟ ـ لا ، فلا يمكننا الدخول الى هناك ٠

ـ سيمكننا الدخول يوما ما ، ولكن لماذا تنظر الى علاقتنا دائما بهـذا الشكل ٠٠ لماذا لا تنزع من نفسك صفتها هذه ٠٠ أنا دائما يا عزيزي اعتبرها شرعية ، ضمن قواعد الخلق والفضيلة ٠

ـ هل تعتبرينها كذلك دوما ؟ ـ الا في النادر ٠

ـ آه ، انك فتاة فاتنة ٠

وملأت كأسا أخرى ، ثم أردفت :

ـ لم أكن أعتبرك كذلك في البدء ، ظننت انك عصبية المزاج ٠

ـ كنت عصبية الى حد ما ، ولكن ليس الى درجة معقدة ٠٠ هل حدث أن ضايقتك يوما ؟ أنا لم أضايقك ؟ أليس كذلك ؟

ـ الخمر مادة عظيمة ، تجعلك تنسين كل السيئات ٠

ـ انه أشهى ، ولكنه سبب داء النقرس (الفالج) لوالدي ٠

ـ الك والد ؟

ـ نعم ! وهـو مصاب بالنقرس ، وليس من الضروري أبدا أن تراه ٠ وانت أليس لك أب ؟ لي عم ، زوج أمي ٠

ـ هل تظن أني سأميل اليه وأحبه ؟ ليس عـن الضروري ان تريه ٠

ـ نحن نتمتع بوقت جميل ، ولست أبالي بأي شيء آخر مطلقا ٠٠ انني سعيد جدا بزواجي منك ٠

ثم دخل الخادم ، وحمل طبق الكؤوس الى الخارج ، وظللنا صامتين ، وصوت تساقط الامطار يصل الى مسامعنا ، وعلا هدير سيارة تعبر الشارع، وفجأة ألفيت نفسي أترنم بمقاطع أغنية كنت أحبها :

وكلما استلقيت على ظهري
سمعت هديرها في أذني
عربة الزمن المجنحة
تسرع قريبة مني

ـ أنا أعرف تلك القصيدة ٠٠ انها للشاعر مارفل ، ولكنها تتحدث عن صبية ، تأبى الحياة بصحبة الرجال ٠

كان ذهني صافيا ، ونفسي قد اطمأنت ، واحسست بدافع يدفعني الى الصراحة والصدق في القول : ـ أين ستلدين طفلك ؟

ـ لا أدري ، في أفضل مكان أجده ٠ ـ وكيف ستتدبرين الامر ؟

ـ سأتبع أفضل طريقة ممكنة ، لا تجزع يا عزيزي فيمكن أن ننجب عدة أطفال والحرب لما تنته بعد .

ـ قرب وقت اقلاع القطار .

ـ أعرف ، وبامكانك تقريبه اكثر اذا اردت . ـ لا !

ـ اذا ، لماذا القلق لقد كنت رائعا حتى الآن، فمالي أراك قد اضطربت؟

ـ ليس هناك أي شيء ، كم مرة ستكتبين الي في الشهر .

ـ يوميا ، هل يطلعون على رسائلك ؟

ـ ولكنهم لا يستطيعون فهم الانجليزية لا يتمكنون من اكتشاف ما في الامر . سأجعل كتابتي غامضة .

ـ ليس كثيرا ، سأجعلها غامضة قليلا .

ـ أخشى أن يكون ميعاد ذهابي قد آن .

ـ ينبغي ان ننهض حقا ، رغم اننا لم نستقر طويلا في أي من بيوتنا .. ولكن لا بد ان نستقر يوما .

ـ ساهيىء لك منزلا رائعا عندما تعود .

ـ لربما جرحت قليلا في قدمي ، او في شحمة أذني .

ـ لا ، أريد ان تحتفظ بأذنيك جميلتين كحالهما الآن .

ـ وقدماي ؟ ألا ترينهما كذلك ؟

ـ قدماك جرحتا من قبل .

ـ حسنا ، استبقني .



نزلنا السلم درجة درجة ، بدلا من استعمال المصعد ، كان الطاهي الذي احضر لنا العشاء يجلس على الكرسي ، قرب مدخل القاعة الخارجي ، وكنت قد دفعت له ثمن الطعام فقط دون أجرة الغرفة ، وعندما شاهدنا نهض واقفا ، ثم انحنى مقتربا منا، فأخذته جانبا ، ودفعت له أجرةالغرفة حيث كان صديق سابق له، على انه بعد أن غادر غرفتنا أمر السفرجي بالمرابطة عند الباب الخارجي، خشية مغادرتنا قبل دفع الثمن ، والظاهر انه يفعل ذلك دائما ، ومع اصدقائه ايضا ، فالمرء يكثر اصدقاؤه زمن الحرب ·

امرت الحاجب ان يحضر لي عربة ، فتناول جزمة كاترين من يدي ، وأسرع تحت المظلة الى الشارع ، ووقفنا ننتظره في غرفة صغيرة جانبية

ـ كيف تشعرين الان يا كاترين ؟

ـ اني نعسة ·

ـ أما انا فاشعر بالفراغ والجوع ·

ـ أليس معك شيء تأكلة ؟

ـ بلى في المحفظة ·

ثم أتت العربة ، وقفز الحاجب من داخلها مسرعا نحونا ، فاتجهنا الى الباب وسرنا تحت المظلة ، وعندما بلغنا العربة ، قال :

ـ تلك هي الجزمة على المقعد في الداخل ·

ثم وقف منتظرا ، فوضعت بعض الدراهم في جيبه شاكرا ، واخيرا تحركت بنا العربة ، وعند المدخل وقف اثنان من رجال البوليس الحربي ·

ـ يمكننا الآن أن نقول وداعا ·

التفت الى كاترين ، كان وجهها هادئا ساكنا ·

ـ الا أستطيع الدخول ؟

ـ لا ، وداعا يا كات « تصغير كاترين » ·

ـ هل تخبره أن يوصلني الى المستشفى ؟

ـ طبعا ..

ـ وداعا احرصي على نفسك وعلى كاترين الصغيرة .

ـ وداعا يا عزيزي .

ـ وداعا ، ونزلت من العربة التي تحركت مبتعدة ، ولكن كاترين مدت راسها خارجا فبدا وجهها في الضوء ، ويدها تلوح مضطربة حائرة ثم اقتربت من المنعطف ، ورأيتها ترفع يدها الى أعلى ، وفهمت انها تريدني ان أدخل المحطة ، لئلا يضر بي المطر المتساقط .

وفي قاعة المحطة وجدت حاجب المستشفى الاميركي بانتظاري ، والامتعة الى جانبه ، ثم حملها وسار امامي نحو عربة القطار .. وهناك كان الازدحام على أشد ، وكل واحد يتنافس لاحتلال المقعد الشاغر . وفي طرف العربة الآخر ، كان المدفعجي قد جلس مطمئنا . وعندما شاهدني نهض ، فاحتللت انا مكانه . ولكن احدهم ضغط بيده على كتفي ، تطلعت الى الوراء فاذا هو كابتن عسكري .

ـ ماذا تريد ؟

ـ لاتستطيع فعل ذلك ! ليس من حقك جعل جنديا يحجز المقعد سلفا .

ـ ولكني قد فعلتها .

ـ ليس من حقك ان تفعل ذلك .

ـ وماذا تريد الآن ؟ ـ المقعد . وانا أريده ايضا .

نظرت في وجهه ثم تطلعت حولي ، فادركت ان كل من في العربة يتحزب معه ، لقد كان الحق بجانبه .. ياللشيطان قلت في نفسي ، ثم خاطبته :

ـ اجلس ايها الكابتن .

كان القطار في غاية الازدحام وأدركت ان لا أمل لي بالحصول على مكان اجلس فيه ، نقدت الحاجب والمدفعجي ، فشكراني وانصرفا ، ولكنهما بدلا من ان يتوجها خارج المحطة ، راحا يطلان من نوافذ العربات الاخرى علهما يجدان مقعدا شاغرا .

ثم رجعا وخاطبني الحاجب مواسيا .

ـ لعل احدهم ينزل في برسيا .

ولكن زميله المدفعجي أجابه :

ـ على العكس ، سيصعد آخرون هناك .

وأخيرا تركاني وفي نفس كل منهما غصة .

ظللنا وقوفا ، حتى ابتعدت عنا أضواء المحطة ، ثم استلقيت على ارض العربة واضعا يدي حول رأسي ، واغرقت في النوم ولم استيقظ الا ونحن في برسيا، على اني سريعا ما عاودت النوم، كالكثيرين من المسافرين حتى نهاية الرحلة .



ها هو الخريف قد اوشك ان يولي وسائر الاشجار ما زالت كئيبة ، عارية من أوراقها ، والارض موحلة عسيرة المسالك وانا في طريقي من الاودين الى كوريزيا ، في جوف شاحنة فارغة مسرعة ، التقيت بها عرضا ، فتجاوزت بي عدة عربات كانت تسبقها ، وتابعت سيرها الجنوني ، بينما رحت انا أتأمل الريف الساكن في حقوله الرمادية الداكنة ومزارعيه الموزعين هنا وهناك يهيئون للحياة في زمن الموت ·

ثم تراءت لي مباني المدينة في ظلال طبقة من الضباب ليست كثيفة ، وبعد ان اجتزنا النهر المتدفق غزيرا ، دخلنا المدينة ، وسرنا بين مصانعها وبيوتها ، ومنذ الوهلة الاولى ، اتضح لي ان عددا اكبر من المباني قد دمرته القنابل ، وأن عددا اخر قد لاقى نصيبه من التشويه والتخريب ·

وفي الميدان الصغير حيث يقوم مبنى رئاسة بلدية كوريزيا ، توقف السائق · وناولني امتعتي ، فحملتها وسرت متهاديا ، ابحث عن الدار التي كنت اسكنها دون ان يخالجني شيء ولو ضئيل جدا ، من شعور العائد الى منزله · واخيرا ، ظهرت امام عيني وجميع نوافذها مغلقة ، كأنها في شبه هجران ، اقتربت منها ودفعت الباب ودخلت ، وهناك وجدت الماجور جالسا في المكتب في غرفته الفارغة العارية ، اللهم الا من خرائط البلدان ، والاوراق المطبوعة ، معلقة جميعها على الجدار أمام ناظريه ·

ـ مرحبا ، كيف حالك ؟

ـ على ما يرام ، كيف الامور عندكم ؟

ـ لقد انتهى كل شيء · ضع أمتعتك ، واجلس هنا ·

أدنيت الكرسي الشاغر ، وجلست أستمع اليه ·

ـ لقد كان صيفا مضنيا سيء الطالع ، هل استعدت نشاطك ؟ ـ نعم ·

ـ وهل تقلدت الاشرطة العسكرية ؟

ـ نعم ، حصلت عليها جميعها ، اشكرك كثيرا ·

ـ دعنا نراها ٠
فككت أزرار معطفي ، واشحته جانبا كيما يراها ٠
ـ هل استلمت الاوسمة ؟
ـ لا أوراقها فقط ٠
ـ ستصلك قريبا ٠
ـ وماذا تريد ان أفعل الآن ؟ السيارات جميعها في الجبهة ، ست منها في كابورتو ٠ هل تعرف كابورتو ؟
ـ ما زلت أذكرها ، انها بلدة صغيرة في سفح الوادي ، انهم يعملـــون بقربها ولقد كثر عدد المرضى هذه الايام ، بعد ان توقف القتال ٠
ـ وأين السيارات الاخرى ؟
ـ اثنتان في المركز الجبلية ، واربع ما زالـت في بانسيزا ، امـا فريقا الاسعاف فيعملان برفقة الجيش الثالث ٠
ـ وماذا تريدني ان افعل ؟ ـ بامكانك الذهاب الى بانسيزا اذا شئت، واستلام السيارات الاربع ، وهناك ستجد جينو ، الذي مضى عليـه وهو في الخدمة فترة ليست بالقصيرة ٠ هل رأيت المنطقة قبلا ٠
ـ لا ٠ ـ كانت الاحداث فيها سيئة جدا ٠
ـ أعرف ذلك ٠
ـ هل اخبرك رينالدي !
ـ أين رينالدي ؟
ـ في المستشفى ، لقد أرهق في هذا الصيف المشؤوم ٠
ـ كذلك كنت أتوقع ٠ لقد كان فصلا سيئا جدا ٠
ـ اعرف ان ذلك كان من حسن حظي ٠
ـ السنة التالية ، ستزيد الحالة سوءا ، ولربما شنوا هجوما عاجلا ، فقد اعلنوا انهـم سيبدأون خلال الايام القليلة القادمـة ، ألـم تلاحظ مجرى النهر ؟
ـ بلى انه مرتفع جدا ٠
ـ لا ، لن يهاجموا قريبا ، فالامطار بدأ هطولها غزيرا ، ولكن ماذا عن مواطنيك الاميركيين ، هل سيلتحق بجيشنا آخرون غيرك ؟
ـ انهم يدربون جيشا من عشر ملايين جندي !
ـ أرجو ان ينجدونا بجزء منه ٠٠٠ ولكن لا ، ستلتهم الجبهة الفرنسية جميعهم ، على كل حال ابـق الليلة هنا ، وغـدا في الصباح الباكـر ، تقلـع

بالسيارة الصغيرة لتحل مكان جينو الذي ينبغي ان يعود فورا ، وسأرسل معك من يدلك على الطريق ، وعندما تصل يطلعك جينو على كل شيء ٠٠ والظاهر انهم ما زالوا يوالون اطلاق القنابل ، على اني أعتقد ان القتال الجدي قد انتهى ، كما انك ترغب في رؤية باتسيزا ، اليس كذلك ؟

ـ نعم ، اني مسرور لرؤيتها ، ولكن سروري الحقيقي اني عدت للعمل تحت امرتك ثانية ٠

فأجاب مبتسما : هذا لطف منك ، الحقيقة اني تعب جدا من الحرب وأظن لو أتيح لي الذهاب بماذونية لما رجعت مطلقا ٠

ـ هل الحالة سيئة الى هذا الحد ؟

ـ اسوأ بكثير مما يمكن تصوره ٠٠ على كل حال ، اصعد الآن واغسل جسدك ، وتحدث الى رفيقك رينالدي ٠

خرجت حاملا امتعتي قاصدا الغرفة ، وهناك شاهدت أدوات رينالدي ولكني لم اره هو فجلست على سريري وحللت ملابسي ونزعت حذائي الايمن، ثم استلقيت على ظهري ٠ كنت مجهدا ، وقدمي اليمنى تؤلمني ، ولم يكن من اللائق ان أتمدد فوق السرير هكذا ٠ ومن على السرير لمحت اغراضي مجموعة في احدى الزوايا ٠

ظللت على هذه الحال ،اقلب مختلف الامور في رأسي ، حتى أحسست ان هواجسي تتجه نحو كاترين ، وفيما انا احاول ابعاد شخصها عن مخيلتي، الى ان يحين موعد نومي ، اذا برينالدي يقف مندهشا في الباب ، يتطلع نحوي وقامته المديدة قد بدا عليها الضعف قليلا :

ـ أهلا بك يا ابني ٠

فاعتدلت في جلستي ، وأسرع هو الي وراح يقبلني بحرارة ظاهرة ٠

« ايها الطيب ، دعني ارى ركبتك ٠

ـ لا بد من نزع سروالي ٠

ـ انزعه فنحن زميلان ، ولا يوجد انسان غريب هنا ٠ أريد ان أرى ماذا فعلوا بها ٠

فنهضت ونزعت السروال ، ثم رفعت المشد السميك الموضوع حول الركبة بينما جلس هو على الارض ، وأمسك بها واخذ يثنيها ويفردها ، ثم مرر أصبعه على الجرح وضغط بكلتا يديه حول الركبة ، وبعدها شرع ينقر على موضع العظام بعقد أصابعه ٠

ـ ألهذه الدرجة فقط تستطيع ثنيها ؟

ـ نعم ·
ـ من الجريمة ان يعيدوك الى الجبهة ·
ـ على كل حال ، انها أحسن من السابق ·
ثم صرخت : آه ·· يكفي ·
ـ لا بد من تدريبها مرة أخرى ·
ـ انها أحسن من السابق بكثير ·
ـ أعرف ذلك ، فهذه قضية أفهمها اكثر منك ·
ـ الركبة وحدها جسد قائم بذاته ، جسد مركب ·
وراح يشرح عنها باسهاب ثم أردف : اخبرني كل ما تم بشأنها ·
ـ لا يوجد شيء هام يمكنني اخباره لك ، قضيت أياما هادئة مريحة ·
ـ طبعا عشت كما يعيش الازواج · تكلم ما بك ؟
ـ لا شيء ، ما بك انت ؟
ـ لقد انهكتني الحرب ، كادت تدمرني ·
ـ آه ! ··
ـ أية حياة هذه يا ابني ! لا يستطيع الواحد منا ان يتطلع نحو غده ، أن يحقق رغباته الانسانية ، اليس من حقي التمتع ببعض ما أتوق اليه ؟ الا يسمح لي بممارسة ما أشتهيته ؟
ـ وكيف لا ؟
ـ طيلة ايام الصيف والخريف ، وانا مرهق في العمل ، والله ياصبي لقد أصبحت جراحا ماهرا ·
ـ بشرى سارة ·
ـ انا لا استعمل عقلي ابدا ، لا أجهد تفكيري ، ، لا ، واسم الاله ، انيلا افكر مطلقا ، فقط اندفع في العمل ·
ـ هذا حسن على كل حال ·
ـ ولكن الآن يا ابني قد انتهى كل شيء ، ولذلك أجد نفسي كالمعتوه ، انها حرب مخيفة رهيبة ، لقد انعشني حضورك ، هل جلبت اسطوانـــات الاوبرا ؟
ـ نعم ، وكنت قد وضعتها في محفظتي ، ولكن تعبي الشديد أقعدنـــي عن النهوض لاخراجها ، وكأنه لاحظ ذلك في ، فابتدرني :
ـ ألا تشعر بالراحة ؟
ـ أشعر بالجحيم ·

هذه الحرب تدعو الى اليأس ، هلم نحتسي بعض الخمر ، ونرفه عن نفسينا ونزيل ما يتبقى من الهم والافكار السوداء ٠٠ وعندها تشعر بالراحة والانتعاش ٠

ـ لقد اصبت بداء الريقان ولا استطيع احتساء الخمر ٠

ـ آه يا عزيزي ، باية حالة عدت لي !

ـ سأحتسي بعض الجرعات ٠

اسرع رينالدي الى طرف الغرفة واحضر كأسين وقارورة كبيرة ٠

ـ انه كونياك نمساوي ، ماركة النجوم السبع ، الشيء الوحيد الذي كسبوه في سان جبريل ٠

ـ هل كنت معهم ؟

ـ لا ، لم اغادر هذا المكان ابدا ، بقيت اعمل هنا طول الوقت ، ها انظر تلك فرشاة اسنانك العتيقة ، احتفظت بها مدة غيابك لتذكرني بك ٠

ـ لتذكرك بتنظيف أسنانك ٠

ـ عندي فرشاتي الخاصة ٠ ثق انني احتفظت بها لتذكرني بك وانت تحاول في كل صباح ازالة مخلفات الليل عن أسنانك وتتناول حبوب الاسبرين وتلعن الغانيات والذي سيعود اليهن ٠ تراءى لي انك تحاول تنظيف ضميرك بواسطتها ٠

ـ قبلني وقل انك لست ناقما ٠

ـ لن أقبلك ابدا ، فانت قرد احمق ٠

ـ أعرف ذلك ، بينما انت الشاب الانجلو اميركي الجميل المهذب يزيل فسقه بفرشاة اسنانه ٠

ـ اسكب قليلا من الكونياك ٠

وقرعنا كأسينا ، ثم شربنا معا ، ورينالدي يضحك مني ٠

ـ سادعك تشرب حتى تسكر ثم أخرج كبدك وأضع لك بدلا منه كبدا ايطاليا كي أجعل منك رجلا حقا ٠

حملت الكاس اريد ملأها ثانية ، ثم نهضت وفتحت النافذة ٠ كان الظلام ينتشر خارجا ، والمطر قد كف عن النزول ، بينما الجو يبترد قليلا قليلا ، يشوبه ضباب خفيف ٠

عندما رآني رينالدي اطل من النافذة ، والكأس في يدي صاح من مكانه :

ـ لاتقذف بالكونياك أرضا ، هاتها لي لاشربها ان لم تكن راغبا احتساءها ٠

كنت سعيدا بلقائه ، لقد مضى عليه سنتان وهو بجواري يخفف عني ويسليني وكنت أشعر نحوه بالحب ، لقد كنا نفهم بعضنا تماما ٠

ـ هل تزوجت ؟
ـ حتى الآن لا ٠
ـ وهل لا تزال من المتيمين ؟
ـ نعم ٠
ـ بتلك الفتاة الانجليزية ؟
ـ نعم ٠
ـ هل تعتقد انها صالحة ٠ — اخرس ٠
ـ حسنا ، سأريك اني رجل مهذب ٠ هل هي ٠٠
ـ رينالدي ! قلت لك اخرس ، فالافضل ان تصمت ٠
ـ اذن اصمت !
ـ كما تشاء ٠
ـ لقد رأيت كيف بدأت المسألة يا رينالدي وكيف تطورت ٠
ـ ها ، نعم ، طيلة حياتي وانا أخوض الجدل في القضايا المقدسة ، على ان الفرص لم تتح لي معك ٠

ـ أليس في خلدك شيء من تلك القضايا الآن ؟ — لا ٠
ـ أبدا ؟ — لا ٠
ـ هل من حقي التحدث كذا عن والدتك او عن اختك ؟
ـ عن اختك ٠
رددها مسرعا ، فضحكنا كلانا ، ثم تابع :
ـ لربما كان بي حسد منك ٠
ـ لا ليس الامر كذلك ٠
ـ لست اقصد الحسد بالضبط ٠٠ الك اصدقاء متزوجون ؟
ـ نعم ٠ — اما انا فلا حتى ولا في مرحلة الخطوبة ٠
ـ ولماذا ؟ — يعتبرونني الثعبان ، ثعبان المنطق والحكمة ٠
ـ أخطأت قولها ، ليس الثعبان رمز الحكمة بل التفاحة ٠
ـ كلا ! انه الثعبان ٠ فاه بها مرحا ٠
ـ اذا من الافضل ان لا تعمل الفكر كثيرا ٠

ـ اني أحبك يا بني ، فانت تنبهني كلما احسست بذاتي تتحول الى مفكر ايطالي كبير ، ولكن ثق اني أعرف أشياء كثيرة ، لا استطيع التعبير عنها ٠

ـ ولكن لا بد لك في وقت تهنأ به ، وتسعد حالك ، حتى رغم أستيقاظ ضميرك وتألك ، فستحين الايام الجميلة ٠

ـ لا اعتقد ذلك ٠

ـ بلى بالتأكيد ، عندما انهمك في العمل ، تهدأ نفسي وتزول همومي ٠

وعاد يحملق في الارض ، ثم رفع رأسه مردفا :

ـ اقول لك ستنتصر على ما في نفسك ٠

ـ ليس هذا ما اتوق اليه ، ان ما أريد تحقيقه أمريـن : الاول سيسي الى عملي ، والثاني يمكن ان يتم في مدى نصف ساعة أو اقل من ذلك :

ـ نعم ربما أقل من ذلك ٠

ـ لقد صارحتك بالحقيقة ٠

ـ كفى ، ينبغي ان توقف النقاش ٠ انـي مسرور بعودتك ، انـت اعز اصدقائي ، واخي في الحرب ٠

ـ ومتى ياكل اخوان الحرب ٠

ـ الآن هلم بنا ، ولكن لنشرب كأسا آخر ٠

ـ كما فعل القديس بول !

ـ لست على صواب في هذا ، خذ قليلا نخب معدتك ٠

ـ سآخذ كل ما تبقى في القارورة ٠

ـ نخب فتاتك ، قالها ورفع كأسه ٠

ـ لا بأس ٠

ـ لم اقل شيئا يمسها ٠

ـ لا تجزع ٠

فتابع الشراب ثم أردف :

ـ انني طاهر النفس بريء النية ، انني مثلك ٠ انـني انا الذي عرفـت فتاتك اولا ، ولكنها كانت طويلـة بالنسبة لـي ، حتى انها لا تصلـح الا ان تكون شقيقة لي ٠

ـ أنت تنعم بذهن صاف ٠

ـ وهذا ما يجعلهم يدعونني « ريتالدو البراق » ٠

ـ رينالدو الضحاك ٠

ـ يا بني ، هلم بنا ننزل الى غرفة الطعام ٠

وبعد ان غسلت وسرحت شعري نزلت برفقته ، وكانت الخمرة قــد بدأ مفعولها براسه ، فخاطبني ريتالدي :

ـ انتظرني كيما أصعد وأجلب قارورة الكونياك ، جلست الى احــدى المناضد انتظره ، وبعــد هنيهة عاد وسكــب كوبين فصحت به ، وأنا أهــم بتناول الكاس :

ـ ليس كثيرا بالنسبة للمعدة الفارغة ، انه يحرق المعدة حرقا ٠

ـ حسنا ٠

ـ يضعف الجسد يوما فيوما ، ويتلف المعدة ٠

ـ اذن انت تنصح بالاكثار منه ٠

ـ أنصح من قلبي ، فانا لا استعمــل غيره ، اشرب يا بني ولــن يطول بك الوقت حتى تقع طريح الفراش ٠

وبعد ان شربت ما يقارب نصف الكاس ، عــلا صوت الخادم ، يدعونا لتناول الطعام ، ثم حضر الماجور ، وجلس الى المنضدة متسائلا :

ـ هل نحن جميعا حاضرون ؟

فاجابه ريتالدي :

ـ نعم جميعا ، عدا القس، وأظنه سيأتي سريعا اذا علم بقدوم فردريكو٠

ـ واين هو الآن ؟

ـ في الثكنة رقم ٣٠٧ سوف يأتي كما أتصور لقد كنت هناك ، وتركت له ملاحظات تنبئه بقدومك ٠ ـ القاعدة تفتقر لعنصرها الاصيل ٠

ـ حقا انها هادئة لعدم وجوده ، لاضجيج ابدا ٠

ـ ساغمركم بالضجيج ، صاح ريتالدي ٠

ـ اشرب بعض الخمر يا فردريكو ، خاطبني الماجور مالئا كوبي ، ثم حضرت المكرونة ، وانهمكنا في التهام خيوطها ، وفيما نحن نمســح أيدينا ، دخل القس ، فنهضت واقفا وصافحته ، ووضع هو يده الاخرى على كتفي :

ـ جئت حالما علمت بقدومك ٠

وهم يقول عبارة أخرى ولكن الماجور قاطعه :

ـ اجلس ٠٠ فانت متأخر ٠

وحياه ريتالدي بالانجليزية : عم مساء ايها القس ٠

ـ عم مساء ريتالدي ٠ ثم احضر له الخادم طبق الحساء فرفضه قائلا :

ـ سأبدأ بالمكرونة راسا ، والتفت الي قائلا :

ـ وكيف انت ؟ ـ على ما يرام • كيف الاحوال عندكم ؟

وقبل أن يجيب قاطعه رينالدي صائحا : اشرب قليلا من الخمر يا قس، من أجل معدتك ، فذاك ما فعله القديس بول كما تعرف •

ـ بل نعم أعرف •

وبحركة عصبية ملأ له رينالدي الكوب :

ـ •• آه• القديس بول ، انه سبب متاعبنا •• اليس كذلك يا فردريكو ؟

فلم أجبه أما الكاهن فنظر الي مبتسما ، واستطعت ان أدرك انه لا يعتبر التهجم مصوبا نحوه بينما تابع رينالدي :

ـ ذلك ، لقد كان مراوغا ، يطارد الصبايا وعندما شاخ وفترت همته زعم ان هذا الامر شائن ، ووضع لنا، نحن الذين ما زلنا نحس بحرارةالجسد اللاهبة ، القواعد الخلقية ، ولكن بعد ان كان هو قد ارتوى • أليس كذلك يا فردريكو ؟ فأجبته ، وكنا قد بدأنا بتناول اللحم :

ـ انا لا أناقش في امور القديسين بعد غروب الشمس •

فرفع القس رأسه وتطلع في عيني مبتسما ، ولكن رينالدي اجابني متهكما :

ـ ها •• لقد انحزت الى جانب القس اذا •• لا بأس •• أين هؤلاء الذين كانوا يزورون الكاهن في الامسيات ؟ أين كافلكانتي ؟ أين قيصر •• هل أنا مضطر ان احارب هذا القس وحدي ؟ دون أي معين ؟

ـ ولكنه كاهن طيب ، قال الماجور •

ـ اعرف انه طيب ، ولكنه كاهن على كل حال •• لا بأس •• اني احاول ان اعيد للقاعدة مرحها السابق ، مرح أيامها الماضية •• كيما يسير فردريكو ويهنأ •• وعلا صوته : ليأخذني الشيطان ايها القس •

فتطلع الماجور نحو الكاهن ، مشيرا اليه بأن صاحبنا مخمور ، ثم خاطب رينالدي : أحسنت يا رينالدي •• أحسنت •

وكأن هذا استشعر قيمة عمله ، فازداد صياحه : الى الجحيم •• الى الجحيم بكل هذه المهنة القذرة • قالها واعتدل في كرسيه • بينما التفت الماجور نحوي قائلا :

ـ انه مجهد •• تحت تأثير ارهاق شديد •

عندما انهى رينالدي التهام قطع اللحم ، ضرب المنضدة بقبضة يده وصاح موجها كلامه لها :

ـ انا لا أهين الناس ، انا لا أريد الا الخير ٠ الى الجحيم بكل هـــذه القضية ٠

ثم نظر حوله بعينين محملقتين متحدقتين ، ووجه شاحب ، وقــد بدا الارهاق في قسماته باجلى مظاهره ، فامسكت بيده قائلا :

رينالدي ٠٠ كما تريد ٠٠ الى الجحيم بكل هذه الورطة ٠

ـ لا، لا، أنت لا تستطيع ذلك٠٠ انت لا تستطيعذلك٠٠ أقول لك انك لا تستطيع ذلك ٠٠ انت جاف ، فارغ ولا شيء اخر ٠٠ اقول لك لا يوجد شيء اخر ٠٠ « لا ورطة ولا من يحزنون » ٠ انا اعرف متى اتوقف عن العمـــل انا اعرف ٠

فاطرق القس رأسه ، بينما راح الخادم يجمع اطباق اللحم ، وعندمـا وصل الى منضدة القس ، صاح رينالدي :

ـ اخبرني كيف تأكل اللحم هذا اليوم ٠٠ الا تعرف انه يوم الجمعة ؟

ـ انه الخميس ٠

ـ كذب ، اليوم هو الجمعة ٠٠ انك تأكل لحم الرب انه لحم الله ٠٠ انا اعرف ٠٠ انه لحم جندي نمساوي ميت ٠٠ هذا هو ما تاكله ٠

فقاطعته متمما العبارة القديمة المعروفة :

ـ اللحم الابيض وهو لحم الضباط ٠

فضحك رينالدي ، وملأ كأسه :

ـ لا تؤاخذوني ٠٠ فانا متوتر الاعصاب الى حد ما ٠

ـ ولكن ينبغي ان تاخذ اجازتك ، اجابه القس ٠ فهز الماجور رأســه موافقا ، بينما تطلع رينالدي نحو الكاهن متسائلا :

ـ هل تعتقد انه ينبغي ان آخذ اجازتي ٠

ـ كما تريد ، ان لم تكن ترغب في ذلك فلا بأس ٠

ـ لياخذك الشيطان ٠٠ انكم تحاولون التخلص مني، كل ليلة تحاولون التهرب مني ، ساحاربهم جميعهم ٠٠ واهزمهم ٠٠ وماذا لو حصلت علــى اجازتي ؟ كل انسان يحصل على اجازته : الجميع حصلوا على اجازتهم ٠٠ اولا ٠٠

وتابع كلامه مقلدا اسلوب الخطباء : انها قرحة صغيرة ٠٠ ثم نلاحظ ان الطفح الجلدي ينتشر بين الكتفين ٠٠ ثم لا نلاحظ شيئا البتة ونضع ثقتنا بمادة الزئبق ٠ او بالفضة ٠ قاطعه الماجور بهدوء ٠

ـ والنتائج ؟

ـ نتائج رُتيقية ·· اردف رينالدي ولكن بخيلاء ظاهر ·

ثم دخل الخادم يحمل صينية القهوة واطباق الحلوى المؤلفة من الفطائر· و كان المصباح الزيتي الذي ينير القاعة قد أخذ يخرج دخانا ذا رائحة كريهة فطلب الماجور من الخادم ابداله بقنديلين صغيرين ، ففعل هذا ما أمر به · وفي هذه الاثناء ،كان رينالدي قد هدأت ثورته ، وظهر كأنه استعاد وعيه · وبعد ان شربنا القهوة · خرجنا جميعا الى غرفة الجلوس · وهناك اخبرني رينالدي انه سينتهز فرصة انشغالي بالحديث مع القس ، ويذهب الى السوق · وبعد ان حيا الكاهن مودعا التفت الي وهمس في اذني : سأراك الليلة لتحدثني عن كل شيء · ثم خرج من الباب بعد ان غمزني بطرف عينيه · وكان الماجور ، ما زال يجلس بيننا · فلما غادر رينالدي المكان قال : كم هو مرهق هذا الفتى ·· انه تعب جدا ·· ويعتقد انه مصاب بالسفلس الامر الذي لا أظنه حقيقة ·· على كل حال لا بأس ان يعالج نفسه ·· والآن · عما مساء ايها الصديقان ·· هل ستغادر قبل الشروق يا فردريكو ؟

ـ نعم ·

ـ اذن وداعا · وأرجو لك مهمة موفقة ·· بدوزي سيوقظك ويذهب برفقتك ·

ـ وداعا أيها السنيور ماجوري ·

ـ وداعا ·· انهم يتحدثون عن قرب قيام هجوم نمساوي الأمر الذي لا أثق به وأرجو أن لا يتم · وعلى كل حال ·· لن يشنوه في هذه الناحية ·· سيخبرك عن كل شيء ·· والهاتف بدأ يعمل بصورة حسنة هذه الايام ·

ـ سأتصل بك بواسطته اذا ·

ـ أرجوك لا تنسى ذلك أبدا · عم مساء ·· لا تدع رينالدي يكثر من الخمر ·

ـ سأحاول ذلك ·

ـ عم مساء أيها الكاهن ·

ـ عم مساء · سنيور ماجوري ··

انقطع سقوط الامطار في الخارج ، ولكن الضباب ما زال يملأ الجو ، قلت للقس : هل تفضل الصعود الى الطابق العلوي ؟

ـ لن أستطيع البقاء طويلا على كل حال .

ـ هلم بنا نصعد .

دخلنا الغرفة ، وتمددت أنا على السرير بينما جلس هو على الكرسي الصغير الذي جلبه الخادم ، وبعد أن استقر في جلسته بادرني :

ـ كيف أنت بالضبط ؟

ـ على ما يرام . ولكنني اشعر بالتعب هذه الليلة .

ـ وأنا تعب أيضا .. ولكن دونما سبب .

ـ ماذا عن حالة القتال ؟

ـ أعتقد أن الحرب ستنتهي سريعا . لا اعرف لماذا . ولكن احس بذلك احساسا قويا .

ـ وكيف تحس بذلك ؟

ـ أنت تعرف كيف كان ماجور فرقتكم . ألم تدرك الليلة انه تراجع عما كان يصر عليه . وان روحه متقهقرة .. وكثيرون الآن الذين اضحوا في مثل حالته .

ـ لقد كان صيفا مرعبا دمر معنويات الرجال . قال ذلك وفي لهجته تاكيد وثقة لم أعهدها عنده من قبل .. واردف :

ـ لن تستطيع ان تتصور كم سيئة كانت الحالة ، الا اذا شهدتها بأم عينيك .. كثير من الناس لمسوا شرور الحرب من جراء احداث الصيف ، حتى الضباط الذين كنت اعتقد انهم بعيدون عن الميدان الحقيقي ، ولن يتاح لهم ادراك مساوىء القتال ، حتى هؤلاء لمسوا بانفسهم الى اية درجة انهكت الحرب الرجال .

ـ وما الذي سيحدث ؟

ـ لست أدري . انما اثق انها لن تستمر طويلا .

ـ وكيف نأمل ان يتم ذلك ؟

ـ سيوقفون القتال .

ـ من ؟

ـ كلا الجانبين ..

ـ أرجو أن يقع هذا .

ـ انت لا تعتقد به .

ـ انا لا اعتقد ان كلا الطرفين سيوقفان القتال فورا .

ـ وانا ايضا افترض ذلك ، فهذا اكثر مما نرجو ونتوقعه .. ولكن عندما تلمس هذا التحول في نفوس الرجال وافكارهم ، تؤمن انها لن تستمر طويلا .

ـ ومن الذي كسب المعارك هذا الصيف ؟

ـ لم يكسبها احد .

ـ بلى ، النمساويون كسبوها . منعونا من الاستيلاء على سان جبريل. وحالوا بيننا وبين التقدم مسافة ما باتجاه الشمال ولذلك اعتبروا هم الرابحين ، والذي اعتقده انهم لا ينوون ايقاف القتال .

ـ اذا كان جنودهم يشعرون بما نشعر به نحن ، فمن المحتمل جدا ان يوقفوه . أن قواهم الحقيقية قد انهارت ، شان قوانا .

ـ لا يوقف القتال من يعتقد أنه الرابح .

ـ اني أقول ما اعتقده صوابا ..

ـ اذا أنت تعتقد أنها ستستمر وتستمر ، ولن يحدث شيء ابدا .

ـ لست ادري ، كل ما استطيع تأكيده هو أن النمساويين لن يوقفوا القتال بعد ان كسبوا انتصارات عدة .. فنحن لا ندين بالمسيحية الا عند الهزيمة .

ـ النمساويون جميعهم مسيحيون ، عدا طائفة البوسنيانس .

ـ أنا لم أقصد الكلمة بحرفيتها ، انما أردت بالمسيحية حب الخير والسلم والتخلق بصفات الله .

فلم يجب شيئا ، بينما تابعت أنا :

ـ نحن الآن نميل الى الخير وايقاف القتال لاننا مهزومون وكيف كان

يمكن أن يكون سيدنا المسيح لو ان تلميذه بطرس انقذه في الحديقة •

ـ تماما كما هو ، لن يغير ذلك منه شيئا •

ـ لا أوافقك على هذا •

ـ أنت تجعلني أياس •• اني اعتقد واصلي من اجل حدوث شـــيء ، وكنت احس بوقوعه عاجلا •

ـ لربما حدث شيء ولكنه سيحدث من قبلنا فقط • أما اذا كانوا حقـا يعانون ما تعانيه نحن فالنتيجة ستكون علــى ما يرام •• ولكنهم هزمونـــا واحساساتهم لا بد ان تكون اشد حماسا وعزيمتهم أقوى •

ـ الكثيرون من جنودنا ، كانوا دائما ، ومنذ البــدء يحسون بقــرب النهاية •• وبنفورهم من الحرب ، ولم يكونوا بعد مهزومين •

ـ بلى ، كانوا مهزومين عندما اجبروا على الاشتراك في الحرب ، كانوا مهزومين عندما انتزعوامن مزارعهم وبيوتهم وأرغموا على الانخراط في الجيش، وهذا بالضبط ، سبب ما نراه من حكمة في اقوال الفـلاح ، انـه مهزوم منذ البداية • ضعه في موضع القوي المنتصر وانظر كيف تغدو آراؤه •

وعندما اتممت عبارتي كان قد أغرق في تفكير عميق، دونأن يبدو عليه اي استعداد للاجابة ، ولذلك تابعت •

ـ لقد آلمت نفسي الآن ، وعذبتها ، وهذا ما يجعلني أتجنب الخوض في هذه الامور •اني لا أحاول مجرد التفكير بها مطلقا ، ومنذ ما شرعنا بالحديث، وانا اقول ما استنتجه من الحقائق البديهية ، دون اي جهد في التفكير •

ـ لقد كنت ارجو حدوث شيء ما ؟

ـ الهزيمة ؟

ـ لا ، اكثر من ذلك •

ـ لا يوجد اكثر من الهزيمة ، الا النصر ، الذي يمكن ان يكون اسوأ في بعض الحالات •

ـ لقد أملت بالنصر زمنا طويلا •

ـ وكذلك انا •

ـ والان لا اعرف بماذا أؤمل نفسي •

ـ لا بد ان تكون النتيجة أحد الامرين •

ـ لست آمل بالنصر بعد اليوم •

ـ وانا كذلك ، ولكني لا اعتقد بالهزيمة ايضا رغم انها يمكن ان تكون

افضل .

ـ واذا بماذا تؤمن ؟

ـ في النوم .

فوقف قائلا : انني آسف لكوني أطلت مكوثي ، ولكني أحب التحدث اليك كثيرا .

ـ جميل جدا ان نعود الى هذا الحديث في فرصة قادمة ... ولست أقصد بايماني بالنوم أمرا معينا .

ومددت يدي مصافحا ، والظلمة تعم الغرفة :

ـ اني اقيم في الثكنة رقم ٣٠٧.

ـ ولكني سأذهب الى المراكز الامامية غدا صباحا .

ـ اذا سأراك عندما تعود .

ـ حسنا وسنعود الى هذا الحديث ثانيا .

وسرت بجانبه ، اريد تشييعه .

ـ يكفي .. ارجوك ان لا تنزل السلم .. كم هي عزيزة مسرة ، عودتك الينا ، مع انها ليست صالحة بالنسبة لك .

ووضع يده على كتفي ، فأجبته :

ـ لا ، انها صالحة بالنسبة لي ، ان هذا ما كنت ارجوه ... عم مساء.

ـ عم مساء .

ـ الى اللقاء ، قلتها وانا اغمض عيني .

الفطائر الحلوة بين اصناف الطعام ، رغم اني لم أصفها له كما ينبغي • وانما اكتفيت فقط بذكرها ، والظاهر انه تخيلها اكثر من الخبز المحمر المغطس بطبقة رقيقة من السكر •

وفيما السيارة تدرج بنا ، سألني اذا كنت اعرف وجهة سيرنا ، فأجبته بالنفي معلنا جهلي بنواحي المنطقة ، قائلا : ان كل ما أعرفه أن بعض سياراتنا موجود في كابوريتو • والظاهر انه كان يحب كابوريتو هذه ، فقد صارحني برغبته في الانتقال اليها ، لانها كما قال : مكان جميل ، فتان المناظر ، تنتصب الجبال الشامخة حوله ، من كل الجهات ، الامر الذي يتعشقه هو ويطرب له •

كان جينو فتى طيبا ، لطيف المعشر يميل اليه والى رفقته كل من يتعرف به ، وما ان شرع بالتحدث عن كابوريتو حتى ظهرت على وجهه انفعالات القلب الطاهر البريء ، ثم اردف :

ـ اما الجحيم الحقيقي فقد كان في سان جبريل ، حيث فشل الهجوم الذي اعد له طويلا •• ان النمساويين يملكون مدفعية ضخمة ، وافرة العدد موزعة في الغابات ، وهم يفتحون فوهتها باتجاه الطرق كل ليلة ••• وعندهم كذلك نوع من المدافع البحرية ، تمزق الاعصاب بزئيرها ، يطلقونها عادة كل اثنتين معا ، فتتناثر شظاياها الكثيرة في كل مكان • وأراني واحدة منها • قطعة معدن ملساء مسننة الاطراف اطول من القدم بقليل •

ـ « ولكنني لا اعتقد انها ذات مفعول قوي » ، تابع جينو : ومع ذلك فهي ترعبني كثيرا ، جميعها تزار فجأة ، كأنها قادمة نحوك مباشرة ، ثم تسمع الصفير الحاد ، وبعده الانفجار المروع وحينئذ ، ما فائدة نجاتك من الجراح اذا كنت قد شارفت على الموت خوفا •• النمساويون وافرو العدد ، توجد بينهم فرقة الكروتس الشهيرة ، وبعض الماكيارز ، ورغم ذلك فجنودنا ما زالوا ممسكين بزمام الموقف مع انهم لا يملكون اجهزة لاسلكية تصلح للاستعمال عند الحاجة ، وكذلك لا وجود للمكان الصالح اذا ما اقتضى الحال ضرورة التراجع ، أما البقاع الملائمة لاتخاذها مراكز دفاعية ثابتة ، فلم يعمل شيء في سبيل تحصينها وتنظيمها ••

ـ كيف كنت تتصور البانسيزا ؟

ـ اكثر انبساطا وأقل تشعبا •

ـ انها كمقدمة جهاز البيانو ، مع ان واقعها أبعد ما يكون •

وعندما رجعنا الى غرفته صارحته برأيي : ان خندقا محصنا متينا خير للدفاع من كل هذه المرتفعات المتناثرة • ودعمت قولي بالاعتماد على ما يفعله الفرنسيون ، مردفا :

ـ وفي الماضي ، كان النمساويون يهزمون في الاراضي السهليـة حول فيرونا ، كانوا يستدرجون الى البقاع المنبسطة ويسحقون سحقا ٠
ـ نعم ، عندما تكون الحرب في ارض عدوك تستطيع التصرف حسب ما تشاء ، وتذليل جميع العقبات الجغرافية ٠
ـ حقا ، أما في وطنك فلا تستطيع التصرف كما ينبغي ٠
ـ ولكن الروس فعلوا ذلك ، واستدرجوا نابليون ٠
ـ هذا صحيح ، على انهم يملكون أراضي واسعة جدا بينما اذا أردت استدراج نابليون في ايطاليا ، فستجد نفسك في جوار برانديزي كأنك تستعد للرحيل ٠
ـ برانديزي ٠٠ مكان مزعج هل اتفق لك أن زرته ؟
ـ زيارة عابرة ٠
ـ رغم اني من مواطني ايطاليا ٠ ولكن لا يمكنني أن اشعر بحب نحو أي من برانديزي أو تورنتو ٠٠
ـ اذا هل تحب البانسيزا ؟
ـ تربتها طيبة جدا ، ولكن ليتها تنتج أكثر من البطاطا ٠ أظنك تعلم أنه يوم جئناها وجدنا حقولها قد زرعها النمساويون بطاطا ٠
ـ وهل قلت كميات الطعام حقا !
ـ أنا شخصيا لم اتمكن من الشبع في أية وجبة ٠
ورغم اني اكول من الدرجة الكبيرة ، علـى اني لـم اشعـر بالجوع حتى الآن ٠ فالكمية متوسطة المقدار ، والذي علمته أن الجنود في الخطوط الامامية يتنعمون بالطعام الجيد ، بينما أولئك الذين في الخلف يعانون نقصا حتـى في ابسط انواع المأكولات ، هناك خطأ في ناحية ما ، يجب أن يتوفر الطعام ٠
ـ ومع ذلك فهم يبيعون السمك في أماكن أخرى ٠
ـ انهم يقدمون فقط للمحاربين في الصفوف الامامية ، كل ما يطلبونه ، بينما تعاني المؤخرة نقصا فاضحا ٠ لقد أتوا على كل البطاطا التـــي زرعها النمساويون ، ينبغي أن يطعم الجنود بشكل أفضل ٠٠ نحن أكولون ، نهمون جدا ٠ اني واثق من وجود وفرة في المواد الغذائية ، ومن أسوأ الامور بالنسبة للجندي ، ان لا يغـذى كما ينبغي ، الم تلاحظ كيف يؤثر ذلـــك في أسلوب تفكيرك ؟
ـ حقا ، فانت لا تستطيع عندئذ كسب الحرب ، بل تنجح في خسرانها ٠
ـ نحن لا نتحدث عن الخسران ، رغم أن هنالك الكثيرين يتحدثـــون عنها ٠٠ فالذي جرى في هذا الصيف ٠٠ لن يذهب سـدى دون أن يترك اثرا

استيقظت على صوت رينالدي يدخل الغرفة . ولكنه ظل صامتــــا ، فعدت الى الاغفاء ثانية ، وفي الصباح الباكر لبست ثيابي ، وغادرت الغرفة ، وضوء الصباح لم يعم بعد ، ورينالدي ما زال مغرقا في النوم .

لم اكن قد رأيت منطقة بانسيز قبلا ، وكان من الامور المؤثرة المثيرة ، ان ارتقي بسيارتي المتحـدر الذي كان النمساويون يعسكرون فيــه ، وراء رقعة النهر ، حيث اصابتني القنبلة .

وكانت هناك طريق جديدة ، عمودية الانحدار ، يسير فوقها عدد من الشاحنات ، وتنتهي عند احدى القرى المدمرة ، التي تقع خطوط القتال الامامية الى ما وراءها ، ولذلك ركزت حولها بطاريات المدافع الضخمة ، وتظمت الامور داخلها بصورة يستطاع معها الاستمرار في العمل ، بعد ان اتلفت القنابــل معظم منشآتها ومبانيها العامة .

وعلى مسافة قصيرة من القرية ، التقينا بجينو وبعد ان قدم لنا القهوة، ذهبت برفقته وتفقدت المراكز الطبية ، والتقيت اثناء ذلك بأناس كثيرين .

اخبرني جينو ان البريطانيين يعملون بعيدا قرب حدود البانسيزا ، في جوار رافنا ، وكان معجبا بهم كثيرا ، يثني على طريقتهم في العمل . وبعد ان أتم حديثه عنهم ، انتقل الى حـالة الجبهة ، قائـلا ، ان تبـادل القنابــل ما زال مستمرا ولكن على نطاق محدود ، وباصابات قليـلة ، على أن عـدد المرضى من الجنود سيزداد من جراء هطول الامطار ثم أردف :

ـ من المتوقع ان يشن النمساويون هجوما عاجلا .. ولكنني لا اعتقــد امكانية حدوث ذلك ، وكذلك نحن ، لم يرد الى الجبهة اية فرق جديدة تشير الى احتمال قيامنا بهجوم قريب .

ـ وفهمت من حديثه ان الطعام نادر هنا ، لذلك سيسر كثيرا عندما ينعم بتناول الوجبات الدسمة في كوريزيا . وعندما أجبته على سؤ اله مـم تألف عشاء الليلة القائتة دهش كثيرا ، وبدا عليه التأثر العميق ، خصوصا لوجود

بليغا ٠

فلم أقل شيئا ٠ كنت دائم التأثر بالالفاظ الرنانة: مقدس٠٠ مجيد٠٠ تضحية ٠٠ وبقية التعابير الفارغة الاخرى ٠٠ لقد سمعناها مرارا ونحن نقف في العراء ، تحت وابل الامطار ، بعيدا عن مصدرها الحقيقي ، وقد قرأناها مكررة ملايين المرات ، في نشرات الاذاعة الدورية ٠٠ التي تتكدس بعضها فوق بعض ، ومع ذلك فلم نكن نسمع، الا الالفاظ الداوية الطنانة ، وها أنا الآن ، ومنذ زمن ليس بالقصير ، لا أجد فيما حولي شيئا مقدسا مجيدا ٠ والاشياء التي كانت مجيدة لم تكن كذلك ، والتضحيات كانت كتلك التي تجري في مخازن شيكاغو ، يطمرون اللحم عندما لا يجدون وسيلة يستفيدون بها منه ٠

هناك كثير من الالفاظ التي لا يمكن الاستمرار في الاعجاب بها وسينحصر المجد أخيرا في أسماء بعض الأماكن وأرقام الفرق العسكرية ، وتواريخ الايام ، وبقايا القرى الحجرية المدمرة ، وأمواه الانهار المصبوغة بالدم الاحمر ٠

٠ ٠ ٠

لم يلبث جينو طويلا حتى غادرني برفقة بدوزي عائدين الى كوريزيا ، وكانت العاصفة التي هبت منذ الصباح قد اشتدت ، وحملت رياحها الامطار الغزيرة ، فعم الوحل جميع الطرقات ، وجرت المياه المتدفقة في كل النواحي ، وبدا طين البيوت المهدمة رماديا مبللا ٠ ولم ينقطع المطر حتى ساعة متأخرة من المساء ٠ ومن شرفة المركز الثاني رحت أتأمل الريف الرطب العاري ، والغيوم تزحف فوق هضابه ، وأشرقت الشمس فترة قصيرة قبيل غروبها ، فتلألأت رؤوس أشجار الغابة وتجلى منظر الطبيعة جميلا فاتنا ٠

وبين أشجار تلك الغابات ، كانت تكمن المدافع المتساوية ولكنها لم تشترك جميعها بالقذف ذاك المساء ، كما أن العاملين عليها لم يصوبوا قذائفهم نحو المركز الطبي ، حيث كنا نستعد لاستقبال الجرحى، ومن الشرفة ذاتها التي وقفت فيها أتأمل جمال الطبيعة ، رحت أراقب اندفاع القنابل العمياء ، تنفث دخانها أولا ثم يزار زعيقها وتنتشر شظاياها المسننة في كل اتجاه ٠

ملأنا سيارتين بالجرحى ، وسرنا فوق الطريق المغطاة بالحشائش المبللة ، ولم نكد نقطع مسافة قصيرة حتى عاودت الامطار هطولها الغزير ٠

وفي الثالثة صباحا ، والريح تعصف عصفا مريعا ، والمطر يتساقط مدرارا ، اهتزت جدران المركز على حين غرة ، ودوى انفجار مرعب تبعه قذف متواصل ، ثم علمنا أن فرقة الكروتس النمساوية قد شنت هجوما عاما، عبر السفوح وخلال الغابات المحيطة ، ولكن هجوما معاكسامن رجالناالمذعورين ردها على أعقابها ، بعد اصطدام في ثنايا الظلمة وتحت وابل الامطار · الا أن دوي الطلقات وأزيز الرصاص ، واطلاق الصواريخ ظل مستمرا على طول الجبهة ·

وفي برهة قصيرة امتلأ المركز بأجساد الجرحى ، وصل بعضهم محمولا على المحفات ، والبعض ماشيا ، وآخرون على ظهور زملائهم من الجنود ، أتوا بهمعبر الحقول الموحلة ، كانوا جميعهم مبللين حتى البشرة ، وجميعهم هلعين مذعورين · ولم تكد تملأ عربتين بذوي الجراح البليغة حتى تحول المطر الى حبات ثلج كبيرة ثقيلة متسارعة النزول ·

في فجر اليوم التالي تناقلت بعض الالسنةخبرا مفاده أن النمساويين اخترقوا خطوط الدفاع الشمالية ، وان أمرا بالتراجع سيصدر قريبا ، وكنت حينئذ في مقر القائد ، الذي اتصل بمركز البريجادير فافهم أن يجب الدفاع عن البانسيزا مهما كلف الامر ، فسألته عن صحة نجاح النمساويينفي اختراق الخطوط الشمالية قرب كابورينو بعد معركة استمرت طيلة النهار ثم أردف:

ـ اذا تمكن هؤلاء الانذال النمساويون من الاستمرار في التقدم فذلك يعني دمارنا ·

وهنا تدخل أحد الضباط الحاضرين : ـ علمت أن الذين قاموا بالهجوم ، جميعهم من الالمان !

وكانت هذه الكلمة تثير الرعب ، فالكل يتحاشى الاصطدام بالالمان ، ويخشى القتال ضدهم ·

ـ يوجد خمس عشرة فرقة منهم ، تابع الضابط :

ـ لقد شقوا ثغرة واسعة وسوف يقطعون خط الرجعة علينا ·

ـ ولكنهم في القيادة يقولون أن الثغرة ليست خطرة وانهم سيحتفظون بخط الدفاع مهما كلف الامر ، كما انهم سيعدون خطا دفاعيا جديدا بين الجبال ·

فسألته : كيفعلمتبهذا ؟

ـ من القيادة ·

ـ وخبر التراجع أتى من القيادة ايضا !نحن نعمل بأمرة قائد الفصيل ، ولكننا الآن تحت آمرتك ، ومن الطبيعي انني سأنفذ أوامرك ، شريطة أن

تتلقاها مباشرة من مركز البريجادير ٠

ـ الاوامر تقول بوجوب المقاومة٠ وعليك نقل الجرحى من هنا الى مركز التضميد ٠

ـ ولكننا في بعض الاحيان ننقلهم من مراكز التضميد الى مستشفيات الميدان ، اخبرني فانا لم اشترك في عمليات تقهقر بعد ٠ فاذا ما وقع شيء من هذا ، كيف سنجلي الجرحى ؟

ـ ليس من الضروري اجلاء الجميع ، انقل العدد الذي تستطيعه واترك الباقين ٠

ـ وماذا سنحمل في السيارات ؟

ـ معدات المستشفى ٠

ـ حسنا ٠

...

قضي الامر ، وشرعنا في منتصف الليلة التالية ، بالتراجع العام ، كان تراجعا مقيتا مضطربـا ، ينذر بالشؤم ، الطرقات مزدحمـة ، وجنود المشاة يهرولون فوقها بملابسهم المبللة ، المطر يتساقط عليهم غزيرا ، تتخللهـم العربات والشاحنات والبغال المحملة ، والكل في هلع وذعر شديدين ، يدفعان بهم بعيدا عن الجبهة ، في فوضى بشعة لم اشهد أسوأ منها ٠

وقبل أن ينبلج الصبح استطعنا تفريغ مستشفيات الميدان المقامة مؤخرا في انقاض القرى المدمرة ، خلف الجبهة ، بعد أن انزلنا الجرحى الى بلافا قرب النهر ، وفي اليوم التالي استمررنا النهار بكامله ، ونحن نكدح لنقل المستشفى ومراكز التضميد من بلافا ، والمطر لم ينقطع تساقطه عنا ، ولا عن جيشـس البانسيزا الذي عبر النهر ، واجتاز ضفافه الخصبة حيث أحرز في ربيع السنة الماضية ، انتصارات عدة ٠

بلغنا كوريزيا ظهرا ، كانت مهجورة ، خالية من الاحياء ، اللهم الا بنات بيت الدعارة اللواتي كانوا يحشرونهـن في شاحنـة كبيرة ، استعـدادا لترحيلهن ، وقد ارتدين معاطفهن وقبعاتهن ، وأمسكـن المحافظ الجلديـة بايديهن ، بينما راحت اثنتان منهن تبكيان بصوت مسموع ، ومدت واحـدة اخرى راسها ضاحكة في وجهي مخرجة لسانها بحركة مغناج ، كانت شفتاها غليظتان ممتلئتين وعيناها سوداوتين ٠

ثم تحركت الشاحنات ، فلوحت لنا بيدها وقهقهت قهقهة مصطنعـة ، وكذلك فعلت رئيستهن ٠

ـ ينبغي أن نذهب معهن ، خاطبني السائق بوتلو الذي جلست بجواره· ثم اردف · ستكون رحلة موفقة ·

ـ سنقوم برحلة موفقة على كل حال ·

ـ الى الجحيم طبعا ·

ـ هذا ما عنيته ·

ـ ولكن هل تعرف انهن قطات سليطات اللسان ·

ـ أواثق أنت ؟

ـ كل جندي في الجيش الثاني يعرف رئيستهـن ، أنهـم يدعونها بالام الكبرى ، فهي قديمة العهد هنا بينما البنات جئن مؤخرا ·· قبل التراجـع بأيام قليلة ·

ـ سيتلن حظهن في مكان آخر ·

ـ طبعا ، ذلك أمر مؤكد ، كم أرغب أن أنعم بهن جميعهن ·· ولكن دون مقابل ، يتقاضين مبالغ فاحشة ، الحكومة تستغلنا استغلالا بشعا ، انها تسرق رواتبنا ·

ـ خذ العربة كي يتفقد الميكانيكي أجهزتها ، ثم املاها زيتا وبعدها عد لتاخذ قسطك من النوم ·

كانت النكنة شاغرة مظلمة ، وقد غادرها رينالدي مـع أثاث المستشفى وكذلك فعل الماجور ، تاركا لي مذكرة يطلب فيها ان أمـلا السيارات الثلاث بسعتها من الامتعة المكدسة في القاعة الكبرى، وأن أتجه نحو بوردينو بالسرعة الممكنة ،وفيما أنا أبحث عن الميكانيكيين ، الذين لم أجد لهم أثرا ،وصلـت السيارتان الاخرتان ، وخاطبني بياني سائق أولاهما ، بصوت متهدج :

ـ انني نعسان جدا ، كادت عيناي أن تناما ثلاث مرات وأنا في الطريق أقود من بلانا ·· ماذا سنعمل الآن ·

ـ سنعد السيارات ، نملأها زيتا ، ونحملها بالامتعة التي خلفوها لنا ·

ـ ثم ننطلق ! ؟

ـ لا ، ننام مدة ثلاث ساعات ·

ـ شكرا يا يسوع ·· كم أنا أتوق للنوم ·

قال هذا بونلو ، السائق الآخر ، ثم أردف :

ـ فانا لن أستطيع منع نفسي من النوم أثناء القيادة ·

وكان السائق الثالث قد حضر فابتدرته :

ـ كيف هي سيارتك يا بارتولمبو ؟

ـ على ما يرام ٠
ـ احضر لي معطفا جلديا لاشاركك في تزييتها ٠
ـ ليست بحاجة للزيت أيها الليوتنان ، فهي بحالة حسنة ٠
ـ انها معدة جميعها ، قربوا السيارات حالما تصبح جاهزة ٠
ملأنا العربات بأثاث المستشفى ، وبعد وسقها للقمة ، تركناها مصطفة بين الاشجار ، والمطر يتساقط عليها ، فقلت لبياني :
ـ أشعل النار وجفف ثيابك ٠
ـ لا يهمني هذا الامر ، سارتديها مبللة كانت أم جافة ، ان ما أريده هو النوم فقط ٠
فصاح بونلو :
ـ وكذلك أنا ، ولكني سأنام في سرير الماجور ٠
ـ لا فرق عندي اينما أضجع بجسدي المنهوك ٠
وكنت أقف بجوار غرفة الماجور ، ففتحت بابها قائلا :
ـ هيا فهنا سريران لكما ٠
ـ رغم طول المدة التي عشناها ، فانا أجهل محتويات هذه الغرفة ٠
ـ أسرعا اذا ، كي اوقظكما في الوقت المعين
ـ اذا أغرقت في النوم ايها الليوتنان فالنمساويون يوقظوننا ٠
ـ لن أدع النوم يتغلب علي ٠٠ اين بارتولبو ؟
ـ في المطبخ ٠
ـ الى اللقاء اذا بعد ثلاث ساعات ٠
دخلا الغرفة ، وسمعت بونلو يخاطب بياني :
ـ انزع نعليك ، فهذا سرير الماجور ٠
ولم أسمع الا صرير الرفاص يهتز عنيفا ٠
ثم اتجهت الى المطبخ فرأيت بارتو قد أشعل نارا ووضع عليها اناء به ماء:
ـ ارتأيت طبخ بعض المعكرونة ، سنشعر بالجوع حالما نستيقظ ٠
ـ ألست نعسا يا بارتو ؟
ـ ليس كثيرا ، عندما تغلي الماء ، سأذهب للنوم ٠
ـ كان الافضل أن تنام ٠ فباستطاعتنا ان نتناول لحما مجففا ٠
ـ المعكرونة أفضل ٠ اذهب ونام ياحضرة الليوتنان ٠
ـ يوجد سرير لك في الغرفة المجاورة لغرفة الماجور ٠
ـ استعمله انت ٠
ـ لا سأصعد الى غرفتي الاصلية ، هل ترغب في احتساء كأس ياباًرتو ؟

ـ قبل ان نرحل ، فهي لن تفيدنا الآن ٠
ـ اذا استيقظت بعد ثلاث ساعات ، أيقظني ٠
ـ لا أملك ساعة ٠
ـ استعن بساعة الحائط ٠
ـ حسنا ٠
ـ هذه فضيلة التقهقر ٠ يتاح لنا شرب ما نريد من الخمور الجيدة ٠٠
ـ كالتي نشربها الآن ٠٠
ـ فلربما شربنا غدا مياه المطر ٠
ـ غدا سنكون في الأودين ونشرب الشمبانيـا الفاخرة ، فهناك يعيش الخاملون ارباب الرفاهية ٠ بياني استيقظ ستشرب الشمبانيا غدا ٠٠
ـ اني مستيقظ ، ألم تجد عصير البندورة يا بارتو ؟
ـ لم يتركوا ايا منها
فصاح بونلو :
ـ لا بأس ٠٠ فغدا سنشرب عصير الشمبانيا ٠
ـ هل تريد مزيدا من المعكرونة يا حضرة الليوتنان ؟
ـ لا ، اعطني القارورة ٠
ـ احتفظت بواحدة لنشربها اثناء الرحلة ٠
وهرولت على السلم الرخامي قاصدا المكان الذي عشت فيه برفقـة رينالـدي ٠
واحسست بعيني تسبقاني الى الاغماض ، والبرد يعضني ، والنافـذة مفتوحة تكشف عن الظلمة الدامسة خارجا ، وصوت هطول الامطار مـا زال مستمرا ، ومنذ الليلة الفائتة يهمس في أذني ٠٠ فالقيت بجسـدي عـلى سرير رينالدي وأغفيت سريعا ٠
وقبل الرحيل جلسنا جميعنا في المطبخ ، وشربنا قارورتين مـن الخمر التي أصابها الهجران ، كان الظلام ما زال حالكا ، والمطر متواصلا ، وبينمـا راح بياني يتثاءب المرة الاخيرة ، قال بونلو والسرور يطفح في كل وجهه :
ـ هل أغفيت طيلة الساعات الثلاث ٠
ـ أرقت في اولها ، لكني لست بحاجة الى النوم كثيرا ٠
ـ غدا ستنام في سرير الملك ٠
ـ أما انا فسأنام مع الملكة ٠
ـ اخسأ ٠٠ هذه عاقبة الاكثار من الخمر ٠
وتطلعت الى ساعتي ، كانت التاسعة والنصف ، فنهضت قائلا :

ـ آن الوقت لنتحرك ٠
ـ بجوار من ستركب اثناء الطريق المؤدي الى كورمنس ؟
ـ أخشى النوم وراء المقود ، قال بياني ٠
ـ حسنا ، ساركب بجوارك اذا ، ويتبعنا بونلو ثم بارتو ٠
ـ هذه أفضل طريقة ٠
ـ ساقود بنفسي ، ريثما تاخذ قسطك من النوم ٠
ـ لا ، بل أقود انا على ان تنبهني قبيل ان اغفي٠
ـ لا بأس ، اطفىء الانوار يا بارتو ٠
ـ دعها كما هي ، صاح بونلو : فليس من رجعة لهذا المكان ٠٠ الى أين هم يتقهقرون يا حضرة الليوتنان ؟
ـ الى تاجليمنتو ، القسم الطبي سيكون في بوردينو ٠
ـ كوريزيا هذه ، أفضل منها بكثير ٠

ـ على ما يرام ٠
ـ أحضر لي معطفا جلديا لاشاركك في تزييتها ٠
ـ ليست بحاجة للزيت أيها الليوتنان ، فهي بحالة حسنة ٠
ـ انها معدة جميعها ، قربوا السيارات حالما تصبح جاهزة ٠
ملأنا العربات بأثاث المستشفى ، وبعد وسقها للقمة ، تركناها مصطفة بين الاشجار ، والمطر يتساقط عليها ، فقلت لبياني :
ـ أشعل النار وجفف ثيابك ٠
ـ لا يهمني هذا الامر ، سأرتديها مبللة كانت أم جافة ، ان ما أريده هو النوم فقط ٠
فصاح بونلو :
ـ وكذلك انا ، ولكني سأنام في سرير الماجور ٠
ـ لا فرق عندي اينما أضجع بجسدي المنهوك ٠
وكنت أقف بجوار غرفة الماجور ، ففتحت بابها قائلا :
ـ هيا فهنا سريران لكما ٠
ـ رغم طول المدة التي عشناها ، فانا أجهل محتويات هذه الغرفة ٠
ـ اسرعا اذا ، كي أوقظكما في الوقت المعين
ـ اذا اغرقت في النوم أيها الليوتنان فالنمساويون يوقظوننا ٠
ـ لن أدع النوم يتغلب علي ٠٠ أين بارتولمبو ؟
ـ في المطبخ ٠
ـ الى اللقاء اذا بعد ثلاث ساعات ٠
دخلا الغرفة ، وسمعت بونلو يخاطب بياني :
ـ انزع نعليك ، فهذا سرير الماجور ٠
ولم أسمع الا صرير الرقاص يهتز عنيفا ٠
ثم اتجهت الى المطبخ فرأيت بارتو قد أشعل نارا ووضع عليها اناء به ماء:
ـ ارتأيت طبخ بعض المعكرونة ، سنشعر بالجوع حالما نستيقظ ٠
ـ ألست نعسا يا بارتو ؟
ـ ليس كثيرا ، عندما تغلي الماء ، سأذهب للنوم ٠
ـ كان الافضل ان تنام ٠ فباستطاعتنا ان نتناول لحما مجففا ٠
ـ المعكرونة افضل ٠ اذهب ونام ياحضرة الليوتنان ٠
ـ يوجد سرير لك في الغرفة المجاورة لغرفة الماجور ٠
ـ استعمله انت ٠
ـ لا سأصعد الى غرفتي الاصلية ، هل ترغب في احتساء كأس يابارتو ؟

ناديته :

ـ بارتو .. بارتو .

فتطلع نحوي ضاحكا ، قال :

ـ تحدث معهما ايها الليوتنان ، فأنا لا أفهم ما يقولانه ، هـه ! ووضع يده فوق ساق احداهما ، وضغطها بحركة ودية بريئة ، ولكن الصبية ابتعدت عنه ، محكمة لف عباءتها حول جسدها ، ومع ذلك فقد أعاد بارتو الكرة مقهقها ، هه ! أخبري الليوتنان عن اسمك ، وماذا تفعلين هنا ؟

فنظرت الي شذرا وتلفظت بعبارة مغناج لم أفهم منها شيئا ، بينما استمرت الاخرى في اطراقها الى الارض : كانت اكثر ترهلا تبدو وكأنها في السادسة عشرة من عمرها . فاشرت اليها مخاطبا الاولى :

ـ شقيقتك ؟

فهزت رأسها مبتسمة .

ـ حسنا ، وربت على ركبتها شاعرا انها سرت ، أما اختها فكانت ما تزال مطرقة الى الارض . وخطر لبارتو مداعبتها ، فمد يده نحوها ولكنها عاجلته بدفعها عنها ، فانفجر ضاحكا ، ثم خاطبها مشيرا الى نفسه :

ـ رجل طيب ، لا تخافي .

ـ لماذا تركب معي اذا كانت لا تحبني .

ـ لا تخافي ، رجل طيب ..

ويظهر انها أدركت مقصده ، فبدا الفزع في عينيها ، بينما تابع هو :

ـ لا خطر .. لا تخافي .

كان يتكلم بالعامية مستعينا باشارات يده على التعبير ، ورأيت الدموع تسيل فوق وجنتيها ، وبعد هنيهة لمحت الدمع يترقرق في عيني شقيقتها التي امسكت يدها .

ـ أظن انها اساءت فهمي .. انا لا أقصد ذلك ، ثم أخرج سكينة وقطع قطعتي جبن من كيسه ، وقدمهما لهما .

ـ خذا .. كفا عن البكاء .

فهزت الكبرى رأسها بينما تناولت الصغيرة قطعتها وأقبلت عليها بنهم ، ثم قدمت القطعة الثانية لشقيقتها ، فتناولتها وقد خف شهيقها .

ـ ستعود الى طمأنينتها بعد قليل ، ثم صاح فجأة :

ـ عذراء ·· عذراء ، فهزت الصبيتين رأسيهما ·

ـ ها ·· حسنا رددها بارتو مرات ثلاث ·

ورجعت الى بياني والمطر لم تخف غزارته ، وجنود المشاة ماضون في سيرهم على جانب الطريق ·

في صقيع هذا البرد القارس ·· لو لم تكن الحـــرب لكنت في سريري ·· لكنا جميعا في اسرتنا ·· أدس رأسي تحت الغطـاء الصـوفي ·· فـي بيتي سرير دافيء وطعـــام ، وهي الآن في سريرهـا ·· كاترين بين غطاءين دافئين واحد من فوقها والآخر تحتها ·· على أي جانب تراها نائمة ؟ لعلهـا مستيقظة ؟ لعلها متمددة تفكر بي ؟

هبي ·· هبي يا رياح الغرب العاصفة ·· ها ·· لقد هببت ·· ولكنه لم يكن رذاذا خفيفا ، بل مطرا غزيرا متواصلا استمر طوال الليل ·· كيـف يمكن ان يحدث كل هذا ! يا يسوع ·· يا يسوع ·· ان تكون كاترين بين ذراعي الآن ·· وكلانا في الفراش الوثير ·

هبي يا رياح الغرب العاصفة ، احمليها الي ·· ها هي تحت الامطار، الكل تحت الامطار ·· عمي مساء يا كاترين ·· أرجو ان تنامي نوما مريحا ، واذا كنت تشعرين بالضيق يا عزيزتي فنامي على الجانب الآخر ، ساجلب لك ماء باردا ·· انني آسف لانني سببت لك كل هذه الآلام ··· كـاترين الصغيرة ، جربي ان تنامي يا حلوتي ··

ـ كنت نائمة طيلة الوقت ·

ـ ما بك تتحدث أثناء نومك ؟

ـ هل انت حقيقة هنا !·· كاترين ·

ـ طبعا ، انني هنا ·· لن اذهب بعيدا عنك ·

ـ انك جميلة فاتنة ، لا تتركيني في الليل ·

ـ لا ! لن أتركك وأذهب · ساظل دائما هنا ··· أسرع اليك حينمـا تريدني ··

· · ·

لقد انطلقوا ، دوى صوت بياني في اذني ·

ـ كنت في حلم !

ونظرت الى ساعتي ، الرابعة صباحا ، فمددت يدي اسفلا أريد قارورة

الوسكي .

- كنت تتكلم بصوت مرتفع .

- كنت أحلم بالانكليزية .

. . .

بزغ الفجر والقافلة تتحرك وئيدا ، وجنود المشاة يترنحون مجهدين ، وألوف الفلاحين قد اندسوا بيننا بعرباتهم الموسوقة . فكنت ترى وسط آليات المدافع وشاحنات العتاد ، خزنا ذات مرايا .. وآلة خياطة عتيقة ، وفراخا وأوزا وأمتعة أخرى .. وحشر بعض النسوة أجسامهن مع اطفالهن الى جانب الامتعة وعلى رؤوسهن ينهمر المطر تتبعهن الكلاب التي انضمت للقافلة هي ايضا .

ومن خلال الموكب ، عزمت على أن أنحرف بسياراتي الثلاث وأسلك طريقا جانبيا بين الحقول في أقرب منعطف . لقد كان من غير الحكمة ابدا أن نستمر في هذا الطابور اللانهائي .

ولم يكن أحد يعرف النقطة التي بلغها النمساويون ولا كيفية سير القتال ، ولكنني كنت واثقا أنه اذا ما انقطع المطر ، وأصبح بامكان الطائرات التحليق فذلك يعني دمار كل ما تضمه القافلة وفناء انسانها وحيوانها وجمادها جنبا الى جنب . ولن يحتاج الامر الى أكثر من أن يترك عدد من السواقين مقاعدهم هربا أو أن تقتل بعض الحيوانات الجارة حتى يضطرب الحال ، ويتوقف الجميع ، ويصبحوا لقمة سائغة في فم الموت الشنيع .

ولم نلبث طويلا حتى انثنيت في أول هذه الطرق الفرعية الضيقة ، ثم نزلت من العربة ، أريد أن أدل بونلو وبارتو عن وجهة سيرنا الجديدة .

- وماذا ستفعل بهذين الجاويشين !

- سيفيداننا في دفع العربات اذا أعاقنا الوحل .

اما بارتو فالتفت نحو الصبيتين الغارقتين في النوم :

- وعائلتي العذراء هذه ؟

- لن تفيدانا شيئا .

- يمكنني وضعهما في المؤخرة .

- حسنا ، اذا كنت ترغب في بقائهما برفقتك ..

ـ كما تشاء ٠٠ كيف حالك أيها الليوتنان ؟
ـ على ما يرام ٠٠ وأنت ؟
ـ لا بأس ولكن أحس بجوع شديد ٠
ـ لا بد من وجود شيء في نهاية الطريق ، وعندها سنقف ونلتهم ما تقع عليه أيدينا ٠
ـ كيف هي ساقك ؟
ـ حسنة ٠

ثم فتحت باب سيارته وجلست بجواره ، وتبعنا بونلو الذي كان قد انعطف اثر بياني ، ولم نكد نقطع مسافة قصيرة حتى بلغنا منزل مزارع ، متوسط الحجم ، فاوقفنا السيارات في ساحته الواسعة،وشرع بياني في سحب المياه من البئر التي في الوسط ٠

كان المنزل مهجورا ، تغطي عرائش الكرم جدرانه الخارجية وتفوح رائحة الهجران من داخله ، حيث راح الجاويشان يتنقلان من غرفة الى غرفة ، ثم خرج أحدهما وفي يده ساعة حائط كبيرة ، فصحت به :

ـ أين زميلك ؟
ـ في المطبخ ٠
ـ وماذا عن فطورنا أيها الليوتنان ، سالني بونلو ٠
ـ باستطاعتنا تناول ما يمكن ٠
ـ هل تعتقد أن هاتيك الطريق يمكن أن تؤدي بنا الى شيء ٠
ـ بالتاكيد ٠
ـ اذا دعنا ناكل أولا ٠

فأسرع برفقة بياني يبحثان داخل المنزل عن أي شيء صالح للاكل، بينما هتف بارتو بالفتاتين :

ـ هلما ٠٠ ومد يده لمساعدتهما على النزول ، فهزت الكبرى رأسها،ولم تتحرك الصغرى مطلقا ٠٠٠ كانتا تخشيان الدخول الى منزل مهجور على أنهما تبعتانا بعينيهما ، ونحن ندخل المنزل ٠

ـ صعبتا المنال ، همس بارتو في أذني ٠

كان كل ما في البيت يشعر بالفراغ الهائل ، وفي المطبخ وجدنا بياني وبونلو يجلسان القرفصاء ، فصاح الاول عندما لمحنا :

ـ لم نجد الكثير · لقد نظفوه قبل رحيلهم ·
وكان بونلو منهمكا في تقطيع قرص كبير من الجبن الابيض ·
ـ اين وجدته ؟
ـ في غرفة المؤونة العلوية · لا أعرف أين وجد بياني الخمر والتفاح ·
ـ لقد أصبح لدينا فطور لذيذ ·
وفي الحال أحضر بياني قارورة الخمر الكبيرة ، ونزع سدادتها ثم ملأ المقلاة النحاسية العميقة ·
ـ لا بأس برائحته ·· فتش عن أكواب يا بارتو · ها ·· الجاويشان ! كلا جبنا ·
ـ ينبغي أن ننطلق فورا ، قال أحدهما وهو يمد يده الى قطع الجبـن ، فأجابه بونلو :
ـ لا تجزع ، سننطلق حالما نشبع ·
ـ نحن جيش عجيب ، يزحف على معدته ·
ـ ماذا ؟ سأل الجاويش ·
ـ اقول لك كل فهذا أفضل الاشياء ·
ـ ولكن الوقت ثمين · هل تعرف الطريق ؟
ـ لا ·
فتطلع كل منهما في الآخر ·
ـ اذا من الضروري أن لا نتأخر ·
ـ لن نتأخر ! وجرعت كأسي مردفا :
ـ املأ جميع قواريرنا بالخمر واتبعني ، ففعل بونلو ذلك ، تاركا القارورة الكبيرة قرب الباب ·
ـ سيجدها النمساويون دون أي جهد ·
ـ هيا ، ينبغي أن ننطلق ·
كان الجاويشان قد سبقانا ، بينما استمرت الفتاتان في التهام قطع الجبن وبارتو يدخن بجوارهما ، ثم انحدرنا في الطريق الضيقة ، نتعرج بين بـرك الوحل ، والحفر الكثيرة ·

كانت الشمس في كبد السماء ، والمطر قد انقطع ، عندما سمعنا هدير الطائرات في الجو ، ثم لمحناها تمر عاليا فوق رؤوسنا متجهة الى الغرب، ولم نلبث قليلا حتى دوى في آذاننا صوت انفجارات قريبة، فعرفنا أن قوافل الطريق التي انحرفنا عنها ، تعاني الآن ضربات عقبان الجو .

وتكرر القصف ثلاث مرات متتابعة ، وكنا نسرع فوق ممرات الحقول المتعرجة ، فقد كانت جوانب الممرات طرية ، بحيث أن عجلات سيارة بارتو غرزت الى أعلاها حال دورانها ، وكنا ما نزال على بعد مسافة ١٠ كيلو مترات من الاودين .

كان الشيء الذي ينبغي عمله الآن ، أن نحفر أمام العجلات ثم ندفعها بكل قوانا ، فتجمعنا حولها ، وتفحص الجاويشان وضعها ، ودون أن ينبسا بكلمة واحدة ، أدارا ظهريهما وسارا بعيدا ، فصحت بهما .

– الى أين ؟ هلما الى مساعدتنا في الدفع .

– لا بد لنا من الذهاب . وبقيا متابعين سيرهما .

– تعالا ، اننا بحاجة لكما .

– لا بد لنا من الذهاب .

– آمركما بالرجوع وقطع الاعشاب .

– لن نستطيع ، فبعد قليل سيقطع خط الرجعة عليكم .. وليس من حقك أنت أن تأمرنا .

– أقول لكما هيا الى جمع الاعشاب .

ولكنهما تابعا السير دون أن يلتفتا .

– قفا ، صحت بملء صوتي ، فغذا في المشي ، فوق الارض الموحلة .

– آمركما أن تقفا .. رددت العبارة ، ولكن دون جدوى . وعندئذ

أخرجت مسدسي وصوبته على أحدهما ، الذي كان قد تولى الاجابة على أوامري ثم ضغطت الزناد الا أني اخطأته ، وبدا هو يركض مذعورا · فعاجلته بطلقات متتابعة فخر أرضا ، بينما قفز زميله الى الخندق ، وغاب عن الانظار ، فلاحقته باطلاق النار صوب الخندق ·

وعندما فرغ المسدس عبأته مجددا ، وتابعت القذف آملا أن تصيبهاحدى الطلقات الضالة ولكنه بعد دقائق ظهر راكضا وقد احنى رأسه ، فعبأت المسدس للمرة الثالثة واستمررت في القذف ولكن دون جدوى ، فقد اضحى بعيدا جدا في طرف الحقل ·

تناول بونلو المسدس واتجه نحو الجاويش الجريح ، وأجهز عليه ، ثم رجع ملتفتا نحو الجثة :

ـ ذلك الوغد ابن الكلبة · أليس كذلك ؟

ـ ينبغي أن نباشر الحفر فورا · تعتقد أن الآخر لم يصب ؟

ـ لا أظنه ، فقد تجاوز مدى رصاص المسدس ·

ـ الجبان القذر · قال بياني ·

ثم شرعنا نقطع أغصان الاشجار ، وبعد أن أفرغنا العربة من جميع حمولتها ، راح بونلو يحفر امام عجلاتها ، بينما صعد بارتو وأدار المحرك واشترك الباقون في دفعها ، ولكن عبثا ·

ـ أرجعها خلفا ثم اماما ، وتابع هذه العملية ·

ففعل ما أمرته به ، الا ان العجلات أوغلت في النزول أرضا ، ثم اخذت تدور في حفرها ·

ـ لنجرب شدها بواسطة الحبال ·

ـ لا أعتقد ذلك يفيدنا أيها الليوتنان ·

ـ ينبغي التجربة على كل حال ·

وفي الحال ربطنا العربة الى السيارتين الأخرتين ، وصعد بونلو وبياني لادارة محركيهما ، وبعد محاولة فاشلة خاطبتهما :

ـ قفا ، لن تنجح التجربة ·

فنزلا من مقعديهما ، وكذلك نزل بارتو عن مقعد سيارته المنكودة، بينما كانت الفتاتان تنظران من بعيد ·

ـ وماذا تقول الآن أيها الليوتنان ؟ سأل بونلو ·

ـ سنعاود تجربة ثانية ·

لقد كانت غلطتي ، فأنا الذي قدتهم خلال هذه الارض الموحلة ، دون أن يكون لي معرفة، وها هي المحاولة الاخيرة تعلن ضياع جهودنا، وضياع الزمن

الثمين الذي يطاردنا ·

ـ انتهى الامر ، احملوا كل ما تريدونه من العربة ·

فانزل بونلو قطعة الجبن وقارورتي الخمر من داخلها ، بينما التفت أنا الى بارتو :

ـ وماذا عن عذراوتيك يا بارتو ؟ أين ستحملهما الآن ؟

ـ بامكانهما الركوب في المؤخرة، وأظن ان المسافة الباقية ليست طويلة·

فتحت لهما باب السيارة الخلفي ، وأشرت لهما بالدخول فوافقتا ·

وكان قلقنا من ضياع الوقت ،بحيث اني لم أشعر بالالم من جراء خسارة احدى عرباتي ، على ان الذي حدث جعلني أنسى كل شيء ، فلم تكد تتقدم مسافة قصيرة حتى ازدادت الارض لينا ، وغرزت عجلات السيارتين الى الاعماق في مدى دقيقة واحدة ·

كانت التجربة في العربة الاولى وما تبعها من فقدان الوقت الثمين ، قد أكد في نفوس الجميع فشل أي محاولة جديدة ، ولذلك ودون اي تريث نزلنا من مقاعدنا وسرنا مشيا على الاقدام الى الاودين ·

وبعد مسيرة قصيرة، بلغنا مفترق طرق، توصل احداها الىقرية بادية للعيان ،فأشرت على الفتاتين أن يتجها نحوها ، ناقدا كلا منهما عشر لير ، قائلا وانا أمد يدي : هناك ·· أصدقاء ·· عائلة ·

والظاهر انهما لم يفهماني · ولكنهما قبضتا على قطع النقود بقوةواحكام كأنهما تخافان استرجاعهما ·

ثم سارتا في الطريق التي أشرت اليها ، وقد لفت كل منهما الشال حول وجهها ، وأخذتا تلتفتان نحونا بين الفينـــة والاخرى ، بينما راح السواقون الثلاثة يضحكون ، وسألني بونلو :

ـ كم تعطني ايها الليوتنان ، لاذهب في ذاك الطريق ؟

ـ أفضل لهما أن يكونا بصحبة أناس مدنيين من أن تبقيا وحيدتيـــن ، فيما اذا قبض علينا ·

ـ اعطني ٢٠٠ لير وأنا مستعد للرجوع خلفا نحو النمسا ·

ـ ولكنهم سيسلبونك اياها ، اجابه بياني ·

ـ ولربما انتهت الحرب ! قال بارتو ·

وكانت الطريق قد بدأت تصعد ، تكتنفها من الجانبيـــن أشجار التوت الضخمة · استطعت ان أتميز بينهما هيكلي شاحنتين غارزتين في الوحــل، وعندما لمحهما بياني صاح :

ـ انظروا ·· ينبغي لهم شق طريق خاص من أجل سحبهما

– ليت بحوزتنا دراجات الآن ، قال بونلو .
– هل يركبون الدراجات في أميركا ؟ سألني بارتو .
– كثيرا .
– كم نحن بحاجة اليها في هذه الرحلة ..
– آه .. يا يسوع ، ليس بحوزتنا دراجات هنا .
– هل ذاك دوي طلقات ؟
– لا أدري ، أجابني بارتو محاولا الاصغاء .
– أظنه كذلك ، قال بياني وبعد هنيهة صمت .
– اذا سنقابل جنود الخيالة .
– لا أعتقد أنهم يملكون فرقة خيالة .
– أرجو باسم يسوع أن لا يكون عندهم .. فانا لا أريد أن أذبح برمح أحدهم ، صاح بونلو .
– ولكنك قبل ساعات قتلت جاويشا ، خاطبه بياني .
– نعم قتلته ، فانا طيلة أيام الحرب لم أقتل انسانا ، على اني كنت أرغب دائما أن يتاح لي قتل جاويش .
– قتلته بمهارة فائقة ، فلم يكن يركض مسرعا بعيدا عنك . بل كان في انتظارك .
– لابأس ، المهم اني قتلته وهذا أحد الاشياء التي لن تفارق ذاكرتي .. اني قتلت جاويشا .
– وماذا تقول عند الاعتراف ؟
– أقول : باركني يا الله .. فقد قتلت جاويشا ؟
فاغرق الجميع ضاحكين : بينما قال بياني :
– انه فوضوي .. لا يذهب للكنيسة .
– وبياني فوضوي أيها الليوتنان ، أجاب بونلو .
– هل أنت حقا فوضوي يا بياني ؟
– لا يا حضرة الليوتنان ، نحن اشتراكيان من ناحية امولا .
– ألم تزر تلك المنطقة ؟ – لا !
– انها منطقة رائعة ، تعال الينا أيها الليوتنان بعد انتهاء الحرب .
– الجميع اشتراكيون !
– تعال أيها الليوتنان ، وسنجعلك أيضا اشتراكيا .
وانعطف الطريق يسارا ، حيث تقوم تلةصغيرة ، وخلفها حائطحجري انشيء حول بستان من أشجار التفاح ، وكنا نسير باقصى ما نستطيع من السرعة .

بلغ بنا التعب منتهاه ، وكنا قد أشرفنا على طريق تؤدي الى نهر ، قد اصطفت على جانبها عدد كبير من الشاحنات المهجورة فمشيناها حتى الضفة ، وهناك وجدنا الجسر مدمرا ، ومجرى النهر مرتفع تعلو مياهه أنقاض القناطر الحجرية التي تهاوت بعضها فوق بعض .

سرنا بمحاذاة الضفة ، نبحث عن نقطة ضيقة من المجرى يمكننا عبورها، وكنت أعرف وجود جسر للسكة الحديدية ، الى الناحية الشمالية ،ليس بعيدا منا ، فجهدنا في السير ، وأشجار الشاطىء النهري تذرف نقاط المطر علـــى رؤوسنا،وأرضه تعيق أقدامنا بوحولها المتراكمة حتى التقينا بالجسرالمنشود.

ـ انه جسر جميل ! صاح بارتو .

والواقع أنه كان جسرا، حسن الصنع ،من تلك الجسور الانيقة المنشأة، على مجاري الانهار الجافة معظم أيام الصيف .

ـ لنسرع قبل أن يأتوا لنسفه .

ـ لا يوجد من ينسفه .. فقد رحل الجميع .

ـ من المحتمل أن يكون ملغوما .. سر أمامنا أيها الليوتنان ، قال ذلك بونلو . وفي الحال صاح بارتو .

ـ اسمعوا الفوضوي .. دعوه يسيـــــر هو أولا . ولكني قطعت عليهم مجال الجدل :

ـ لا ! أنا أمضي أمامكم .. فهم لن يلغموه بحيث ينفجر من جراء حمولة رجل واحد .

ـ أرأيت ! صاح بياني .. هذا عقل ناضج .. لماذا لا تعمل فكرك أيها الفوضوي ؟ !

ـ لو كنت أعمل فكري لما رأيتني هنا ، أجاب بونلو .

ـ نكتة ذكية أيها الليوتنان ، قال بارتو .

ـ حقا ٠٠ انها نكتة ذكية ٠

وكنا نقف أمام الجسر مباشرة والسماء قد ادلهمت بالسحب السوداء منذرة بمطر غزير ، بدأت بشائره بالهطول ، قطفت فوق الرصيف :

ـ اتبعوني واحدا واحدا ٠

وتقدمت على حذر ، أدقق النظر بين القضبان الحديدية ،وحول براغيها الضخمة ، علني أعثر على شيء ٠ ولكني لم أجد شيئا ٠٠وأخيرا بلغت الضفة المقابلة وتطلعت حولي ٠٠ لقد بدت الاودين لناظري ، قريبة عبر الحقـــول الموحلة ، والى الناحية الاخرى عند أعلى النهر ،لمحت قناطر جسر آخر ،وبينما انا أتأمله ، مرت مسرعة من فوقه سيارة جيب استطعت ان أتبيـــن رؤوس الرجال في داخلها ٠ كانوا جميعهم من الالمان ، يرتدون الخوذ الالمانية ،ويضعون النظارات السوداء ٠

كانت السيارات تمضي بسرعة خاطفة ثم اختفت بين الاشجار ٠ لوحت بيدي لبارتو وللآخرين أن يسرعوا ، ثم استلقيت خلف رصيف الجسر ٠

ـ هل رأيت السيارة ؟ سألت بارتو الذي تمدد جانبي :

ـ لا كنت أراقب خطواتك ٠

ـ سيارة ضباط المانية عبرت الجسر ٠

ـ المانية ؟

ـ نعم ٠

ـ يا مريم العذراء !

وكان الاثنان الآخران قد استلقيا هما أيضا ، ورحنا جميعـــا نحـدق بين الاشجار ٠

ـ هل تعتقد أن خط تراجعنا قد قطع أيها الليوتنان ؟

ـ لست أدري ؟ كل ما أعرفه أن سيارة ضباط المانية عبرت الجسر ٠

ـ ولكن ألا يخالجك شعور غريب ؟ شعور بالخوف ؟

ـ ليس هذا مجال الضحك يا بونلو !

ـ ما رأيكم في احتساء بعض الخمر ، همس بياني :

ـ حتى اذا وقعنا في الاسر ، تكون قد نعمنا بالشراب ، ثم فتح القارورة وهم بوضعها على فمه عندما ارتفع همس بارتو :

ـ أنظر ٠٠ هناك على الطريق ٠

وعلى طول الطريق امامنا رأينا الخوذ الالمانية تتحرك ٠ كانوا فصائـل من راكبي الدراجات يسيرون بنظام ، واثنان منهم في المقدمة ، استطعت تبين

ملامح وجهيهما الممتلئين صحة · ومن حزاميهما تتدلى القنابل اليدوية ·
كانوا يدرجون مسرعين ، يتطلعون اماما والى الجانبين وبعد ان مر ما يزيد على الاربعين ، همس بارتو :
ـ يا مريم العذراء ! هل هذا كل شيء ؟
ـ جميعهم المان ، ليسوا نمساويين ؟ تساءل بياني ·
ولكنني بدلا من ان اجيبه دهشا دون وعي تام :
ـ ولكن لماذا لا يوجد من يوقفهم ؟ اين رجالنا ؟ لماذا لم ينسفوا الجسر او يضعوا تحته لغما على الاقل ؟
ـ اين المدفعية حول هذه الجسور ؟
ـ اعطنا الجواب أيها الليوتنان ، قال بونلو ·
وشعرت بالغضب يجتاح كل اجزاء جسدي ·
هناك في أول الطريق دمروا الجسر الحجري الضيق ، ومنعوا شاحناتهم من اللحاق بهم ، اما هنا ، حيث الطريق الرئيسية فلم يفعلوا شيئا ·· أين هم ؟ ليس منهم هنا فصيل واحد ؟
ـ اجبنا ايها الليوتنان ، كرر بونلو ·
ولكني صمت ولم أجبه ·· فان ما ينبغي فعله الآن هو بلوغ بوردينو ، ولربما لن استطيع الوصول الى الاودين ·· حتى ولا الى الجحيم ·· ينبغي فقط ، أن أظل ممددا صامتـا ، وبلا تفكير ·· حتى لا تمزق جسدي رصاصة، او يقودني بعض ذوي الخوذ الفولاذية الى الاسر ·
وسألت بياني :
ـ الم تفتح قارورة الويسكي ؟
فناولني اياها فشربت جرعة طويلة ·
ـ يمكننا ان نبدأ المسير ·· والا ، فليس من دافع للاسراع ·
ـ هل تريدون ان تأكلوا ؟
ـ ليس هذا مكان التريث والاكل ، اجاب بونلو ·
ـ حسنا ، لنتحرك اذا ·
ـ هل سنتابع المشي في هذا الاتجاه ؟
ـ لربما جاءوا الى هذا الجسر ، أسرعوا ·
مشينا محاذين سكة الحديد ، على جانبينا تمتد الحقول الشاسعة ، ومن امامنا ، تبرز قمم المباني الشاهقة في الاودين ، يتوسطها برج الكنيسة المرتفع · ثم التقينا بنقطة من السكة قد دمرتها القنابل ·
ـ أرضا ·· ارضا ، صاح بارتو ·

فانطرحنا جميعنا على الارض ، كانت هناك فصيلة اخرى من المحتمل ان يكونوا قد رأونا ، ولكنهم استمروا مسرعين .

ـ كنا جميعا قد قتلنا ايها الليوتنان .

ـ انهم لا يريدوننا ، انهم في طلب شيء اهم .

ـ سأبتعد قليلا عن السكة ، قال بونلو .

ـ أتعتقد اننا سنظل سالمين ؟

همس بارتو في أذني مضطربا :

ـ بالتأكيد .. فعددهم ليس كثيرا حتى الآن ، انهم قلة هنا، ونستطيع الوصول في جنح الظلام .

ـ ولكن ماذا كانت تفعل سيارة الضباط تلك ؟

ـ يسوع يعرف . أجبته ونحن مستمرون الى الامام ، وكان بونلو قد عاد الى رفقتنا وقد تعبت قدماه من الغوص في الوحل . وبعد ان اجتزنامسافة طويلة ، افترقت سكة الحديد عن اتجاه الطريق الرئيسية ، ولم يبق بوسعنا رؤية من يمر عليها ، ثم بلغنا جسرا آخر مدمرا ، استطعنا العبور علىانقاضه وفجأة دوى في اذاننا أزيز الرصاص ، وكان في الجانب الايمن منا طريـــق فرعية تنتصب الاشجار الباسقة على جانبيها فاعتقدت انه من الافضل لنــا سلوكها ، والالتفاف حول المدينة ، ودخولها من الناحية الجنوبية . وبالفعل نفذت الفكرة ظانا اني بذلك أتجنب خط التراجع الرئيسي :

ـ هلموا .. سننعطف في هذا الطريق .

فتبعوني ، ولكن رصاصة اطلقت علينا من اعلى .

ـ ارضا ..

ـ وانزلقت فوق الوحل ، بينما هرع السواقون يريدونالاستلقاء امامي، ولست أتامل بارتو الارض ، وهم بقذف جسمه ، ولكن رصاصتين من المصدر ذاته اخترقتا عنقه ، فترنح هاويا في الوحل ، دون ان ترتفع منه حتى ولا انة . أسرعنا اليه وقلبناه على ظهره جاعلين راسه الى أعلى كان ينفث دما غزيرا متقطعا . فبقينا برهة وكان على رؤوسنا الطير ، لا نعرف ما ينبغي عمله .. ننظر اليه ساهمين تحت الامطار ، كانت احدى الرصاصتين قد مزقت عينــه اليمنى ، وخرجت منها ، وفيما انا أهم بالانحناء لايقاف النزيف ، لفظ روحه ، فغطاه بياني بعباءته متنهدا :

ـ الاوغاد .

ـ ليسوا المانا .. لا يمكن ان يوجد المان هنا .

ـ ايطاليون ٠٠ أيدني بياني ، ثم مديده نحو قارورة بونلو :
ـ الا تريد جرعة ؟
ـ لا ، والتفت الي :
ـ هذا ما يمكن ان يقع لنا كل دقيقة ٠
ـ على النقيض ، كان الخطأ اننا حاولنا عبور الحقل ٠
فهز رأسه : لقد مات بارتو ٠٠ ومن يا ترى سيكون الثاني ؟
ـ الذين أطلقوا النار ايطاليون ، ليسوا ألمانا ٠
ـ صحيح ، ولو انهم المان لقتلونا جميعا ٠
ـ اننا مهددون من قبل الايطاليين اكثر مما نحن مهددون من قبل الالمان٠
فالالمان يعرفون عما يبحثون ٠
ـ هذا تحليل رائع أيها الليوتنان ٠
ـ ولكن الى اين سنذهب ، سال بياني ٠
ـ من الافضل أن نظل مستلقين في مكان منعزل حتى تعـــم الظلمـة ، وعندها اذا استطعنا التقدم جنوبا ٠
ـ سوف يقتلوننا جميعا ليثبتوا أنهم على صواب في فعلتهم الاولى ٠٠ وحتى لا نفضحهم ٠
ـ دعنا نسرع اذا ، قال بونلو ٠
ـ هيا ٠ والتفت خلفا ، كان بارتو ممددا وذراعاه متشابكتان ووجهـــه مطمئن هادىء ٠٠ ان يد الموت قد انتزعته منا ٠٠ لقد احببته كثيـــرا ٠٠ ان أوراقه في جيبي ، وغدا سوف اكتب لعائلته ٠

٠ ٠ ٠

من بعيد ، شاهدنا بيت مزارع تكتنفه الاشجار ، مؤلفا من طبقتين ، في الاعلى شرفة قائمة فوق اعمدة ضخمة ٠ أسرعنا اليه ، وقبل أن نبلغه همست في أذنيهما :
ـ من الافضل أن ندخله واحدا اثر واحد ٠٠ وساسير انا في المقدمة٠
واتجهت الى بابه ، لا أدري من أين سيطلق الرصـــاص علي ٠٠ من داخله أم من على سطحه ، أم من اغصان الشجر حوله ٠
كانت قد غرزت في أرض باحته الصغيرة عجلات سيارتين عتيقتيـــــن تكدس الى جانبهما احمال من القسل المندى ، وعندما وطئت عتبة الباب ،الذي كان مفتوحا ، وفي الداخل ظلام دامس ، فاتجهت رأسا الى المطبخ ، وفي موقده

الكبير رأيت رماد النيران تحت القدور الفارغة ، ولم أجد شيئا يصلح للاكل فيما حولي ·

ـ من الافضل ان تختبىء في مخزن القسل · هل تظن انه بالامكان ايجاد ما يصلح للاكل يا بياني ؟

ـ الحقا به هناك اذا ·

ـ سأجرب ·

ـ حسنا ، وسأسبقكم بدوري الى المخزن ، أتفقد حاله ·

كان نصفه مملوءا بالقسل ، وفي اعلى جدرانه نافذتان متوسطتا المساحة · قدرت ان بوسعنا الاستفادة من احداهما للاستكشاف ، والاخرى المقابلة لها ، للهرب · وكنت واثقا من بلوغ الاودين بمنجاة من كل خطر ، اذ كان من المستحيل وجود المان في هذه النواحي ·

اولئك الذين التقينا بهم ، كانوا قادمين من الشمال ، من كافيدال ، وليس من الجهة الجنوبية ، والحق ان الخطر كان يتهددنا من قبل الايطاليين انفسهم ، فهم في ذعرهم الشديد يطلقون النار كيفما اتفق وفي اي اتجاه ، سيما ان اشاعة تناقلتها الالسن تقول ان جنودا من الالمان يرتدون الملابس الايطالية في صفوفنا ، الامر الذي زاد الهلع والذعر وأوقع الرعب في القلوب ، أما انا فلم أصدق الخبر واعتبرته واحدا من ألوف الاشاعات التي تصنعها الحرب ، والتي يروجها الاعداء ليثيروا الرعب ، رغم انهم ليسوا بحاجة الى ذلك ·

ان ضخامة الجيش المتقهقر ، وضيق الطرقات ، وعوامل الطبيعة القاسية وعملية الانسحاب المفاجىء ، كل هذا كان كافيا ليخلق كل شيء ويدمر كل شيء فليس في كل المناطق التي اجتزناها من يصدر الاوامر ، ولا من أحد يتلقاها ·

لقد تركوا الالمان يفعلون ما يشاؤون ، واضافوا الى ذلك انهم قاموا ، بدلا منهم باطلاق النار علينا ، لقد انتزعوا منا روح بارتو ·· الفتى الطيب ·

· ·

ان الذي يدس رأسه وجسده في كومة من القسل ، يحس كأنه خلق من جديد ، وان سني حياته الماضية غريبة ، وانه انقطع عن العالم البشري في

جوف كومة القسل هذه .

ماذا يمكنني ان اعمل ؟ ان العودة شمالا من حيث أتيت أمر يبدو مستحيلا . واذا استمريت في السير جنوبا ، ترى ما الذي يمكن ان يحدث ؟

لن استطيع بلوغ ميلان ؟ واذا بلغتها ماذا ينتظرني هناك ؟ رفعت رأسي من تحت القسل ، كان بياني يقف في المدخل ، وبيده قطعة لحم مجفف وابريق ، وتحت ابطه وضع قارورتي خمر .

ـ اقترب .. اين بونلو ؟

ـ ساخبرك الآن . وأنزل حمله ارضا ثم أخرج سكينة ونزع سدادة احدى القارورتين .

ـ مختومة بالشمع .. الامر الذي يؤكد جودة نوعها .

ـ اين بونلو ؟ فلم يجب بل نظر الي شاردا .

ـ لماذا بقي خارجا ؟

ـ لقد ذهب . يريد تسليم نفسه .

فلم اقل شيئا ولكنه أردف :

ـ كان خائفا ان يقتل .

فرفعت قارورة الخمر دون أن أتفوه بكلمة .

ـ أنت تعرف أيها الليوتنان اننا لا نؤمن بهذه الحرب في أي حال من الاحوال .

ـ ولماذا لم تذهب معه ؟

ـ لم أرد تركك وحيدا .

ـ وأين اتجه ؟

ـ لست ادري . كل ما فهمته انه يريد تسليم نفسه .

ـ حسنا لم لا تبدأ بقطع اللحم ؟

فتطلع نحوي في الضوء الباهت :

ـ قطعتها فيما نحن نتحدث .. وفوق القسل رحنا نأكل المقانق ونشرب .

ـ انهض وانظر من تلك النافذة يا بياني ! وسأتطلع انا من هذه .

فحمل قارورته ، وكذلك فعلت بدوري ، واسند كلانا رأسه الى أسفل نافذته يراقب ناحيته . لم يكن أمام ناظري غير الحقول المبللة والاشجار العارية ، وانسكاب الامطار المتواصل ، ثم بدأت الظلمة تشتد ، وبوادر تنذر

بليلة ليلاء ، وعندما ادركت انه لم يبق هناك فائدة من استمرار المراقبة ، رجعت الى بيانى ، فاذ به نائما ، فلم اوقظه ، بل جلست الى جانبه . كان ضخم الجثة ، يعلو شخيره حادا اثناء النوم ، وبعد فترة قصيرة ايقظته وانطلقنا معا في الليل الدامس .

. . .

كان ليلا غريبا مفزعا ، ليلا قل أن يعيش المرء في مثيله .. ولست أذكر الاحاسيس المرعبة الكثيرة التي اجتاحتني ، لربما اختطفني الموت.. لربما اخترقتني رصاصة من الخلف ، لربما طاردوني مدى المسافة المتبقية .. على ان شيئا من هذا لم يحدث ، وكل ما اضطررنا اليه في بدء المسير أن استلقينا في قعر الخندق المحاذي للطريق ، ريثما تجاوزنا أفراد فصيل الماني ، ثم نهضنا متابعين المشي طيلة الليل ، قاصدين بلدة تكليمانتو ، القريبة من الاودين ، وفي أثناء سيرنا التقينا بعدد كبير من القوافل المتقهقرة ، ولم اتحقق من ضخامة عملية الانسحاب الا في تلك الساعات .

كانت البلاد الشمالية بأسرها في تراجع : الجنود والفلاحون وكل من استطاع الهرب من الاهلين .. وبدأت أحس بقدمي تؤلمني ، ولكني تابعت المشي . لقد كان من الحماقة ان يسلم بونلو نفسه للالمان ، وقد شارفنا على النهاية، وتجاوزنا معظم بقاع الخطر.. ولولا أن قلب بارتو قد كف عن الخفقان لكانت رحلتنا موفقة جدا .

ـ كيف تشعر ايها الليوتنان ؟

ـ حسنا .

ـ انني مرهق جدا .

ـ كل ما تبقى عمله الان ان نتابع المسير .

ـلقد اخطأ بونلو في فعلته .

ـ كثيرا .

ـ ماذا ستجري ضده ؟

فانت تعلم انه اذا ما استمرت الحرب ، يتخذون اجراءات قاسية بحق عائلته .

ـ الحرب لن تستمر .. صاح أحد الجنود من خلفنا :

ـ اننا ذاهبون الى بيوتنا .. الحرب انتهت .

ـ كل جندي سيعود الى منزله .

ـ كلنا عائدون الى منازلنا .

ـ انتهت الحرب ..
ـ هلم ايها الليوتنان ، خاطبني بياني قاصدا ان نتخطاهم .
ـ ليوتنان ! من هو الليوتنان ؟ الضباط المجرمون..ليسقط الضباط.
فامسك بياني بذراعي هامسا :
ـ الافضل ان اناديك باسمك ، لقد قتلوا عددا من الضباط .
حثثنا الخطى وتجاوزناهم بمسافة قصيرة ، فقلت لبياني :
ـ لن اقدم تقريرا يمكن ان يسيء الى عائلته .
ـ واذا ما انتهت الحرب ، فلن يؤثر ذلك مطلقا .
ـ سنتحقق الخبر سريعا .
ـ لا أصدق انها انتهت .
ـ يعيش السلام ، صاح احد الجنود من خلفنا .
فقال بياني :
ـ كم هو رائع أن يعود الجميع الى بيوتهم، الا تشعر بالحنين الى وطنك؟
ـ بلى .
ـ ولكن لن نعود ، لا أعتقد انها انتهت حقا .
ـ لتسقط الحرب ، صاح جندي اخر .
ـ انظر ايها الليوتنان .. انهم يلقون ببنادقهم أرضا .. انظر !
ـ ينبغي ان يحتفظوا بها .
ـ يظنون انهم اذا تخلصوا منها ، فلن يستطاع دفعهم الى القتال .
ـ على انني رغم الظلام ، تمكنت من الوثوق ان معظم الجنود ما زالوا يحتفظون بأسلحتهم .
ـ من اية فرقة انتم ؟
ـ من فرقة السلم .
فلم يقل شيئا ، ولكن اصواتا اخرى ارتفعت :
ـ ماذا يقول ؟ ماذا يقول الضباط ؟
ـ عاش السلم . اسرعوا الى بيوتكم .
فهمس بياني في أذني : ـ هلم من هنا .
فاجتزنا سيارتي اسعاف بريطانيتين :
ـ انهما قادمتان من كوريزيا ، رأيتهما هناك كثيرا .
ـ استطاعوا بلوغ نقطة أبعد مما قدرنا نحن .
ـ يظهر انهم رحلوا قبلنا .

ـ ولكن أين سائقيهما ·
ـ لعلهما هرعا مشيا على الاقدام ·
ـ يظهر ان الالمان يرابطون خارج الاودين·· وسيضطر جميع هؤلاء الى عبور النهر ·
ـ هذا ما يجعلني اعتقد ان الحرب ستستمر ·
ـ انهم يستطيعون التقدم ، والذي يدهشني ·
ـ لماذا لم يفعلوا ذلك حتى الآن ؟
ـ لماذا لم يبدأوا زحفهم ؟
ـ لست أدري، فانا لا أفهم شيئا عن هذا الصنف الغريب من الحروب، لعلهم بانتظار اعداد مواصلاتهم ·
ـ لا أعرف ، كـان صوتا مرتعشا خشوعـا ، وكان يتكلم بادب ظاهر، نقيض حاله يوم كان برفقة الآخرين فسألته :
ـ هل انت متزوج يا بياني ؟
ـ نعم ·
ـ انت تعرف اني متزوج ؟
ـ وهل هذا سبب امتناعك عن تسليم نفسك كما فعل بونلو ؟
ـ هذا أحد الاسباب ·
ـ هل انت متزوج ؟
ـ لا ·
ـ ولا بونلو ·
ـ المرء لا يستطيع التحدث امام انسان متزوج اثناء الحرب ·
ـ كيف قدماك ؟
ـ تؤلمني كثيرا ·

كانت خيوط الفجر الاولى ترتسم في الافــاق ، عندما اشرفنا عـلى مجرى النهر الذي تقع عليه بلدة تلكيمانتو، فمشينا قاصدين الجسر، الذي لا بد ان يعبره جميع من وراءنا ·

كانت مياه النهر فائضة ، فتتراءى للناظر كأنها في دوامة هائلة ، وكان من عادة المياه ان تظل بعيدة عن اسفل الجسر ، ولكنها اليوم تحاول الارتفاع فوقه ، بعد ان لامست امواجها الالواح الخشبية ·

الامر الذي ضايقني كثيرا ·· لـم يكن هناك احساس حافز بوجوب عبور الجسر بأسرع ما يمكن ، فماذا لو حلقت الطائرات بعد وقذفتنا بنارها؟

ـ بياني ٠
ـ ها ٠٠ ها انذا ٠٠
كان يتقدمني قليلا ، ولم يكن أحد ينبس ببنت شفة ، فكان الجميع يسيرون في موكب طويل صامت ، الى المصير المجهول ٠
وعندما قاربنا منتهى الجسر ، رأيت صفين من الضباط والجنود يقف كل منهما قبالة الآخر ، يصوبان الاضواء على بعضهما ويتجهان بأنظارهما نحو السماء ٠
وما ان بلغنا بداية موقف حتى اشار احد الضباط الى جندي من الصف المقابل ، فأسرع هذا الاخير وكان من البوليس الحربي ، ثم رجع يسوق رجلا من العابرين ، واخذه بعيدا عن الطريق ٠
وعندما غدونا وسطهم ، ادركت ان فريق الضباط يتفحصون وجوه كل السائرين ، وأحيانا يتقدم أحدهم ويضيء مصباحه في وجه من يرتاب بـه، من القافلة الزاحفة ، وقبل أن تتجاوزهم ، أخرجوا عابرا،استطعت أن أتميزه، كان برتبة لفتنانت كولونل ، تلمع النجوم الذهبية على كتف معطفه ، ذا قامة قصيرة بدينة ، وشعر طويل أشهب وساقه البوليس الحربي بعيدا ٠٠ ولم أكد أدير وجهي عنه حتى لمحت أحدهم يشير بيده ، الـى ، واقترب منـي البوليس الحربي ، وشعرت بيده تمسكني من العنق ٠
ـ ما بك ؟
سألته مسددا اللكمة في وجهه ، الذي نفر الدم منه ، بينما هرع جندي اخر تجاهنا :
ـ اخبرني ما بك ؟
فلم يجب ، كان يتحين الفرصة لينقض علي فأرجعت يدي خلفا أريـد مسدسي صائحا به :
ـ ألا تعلم انك لاتستطيع لمس الضباط ٠
ولكن البوليس الثاني كان قد قبض على يدي ، ورفعها أعلى ، فالتفت نحوه ، لما كان من الاول الا أن تمكن من عنقي ، على اني عالجته برفسة مـن قدمي ، دفعتها ما بين ساقيه ، في أسفل بطنه ٠
ـ اقتلوه ٠٠ اقتلوه اذا استمر في المقاومة صاح أحدهم من بعيد ٠
ـ ماذا تريدون ؟ وحاولت أن أرفع صوتي ولكنه لم يسعفني ، كانوا قد احكموا قبضهم علي والقوا بي أرضا ٠٠ على جانب الطريق ٠٠
ـ اقتله اذا قاوم ٠٠ ضابط : اقلبه على بطنه ٠

ـ من أنت ؟
ـ سوف تعرف ٠
ـ من أنت ؟
ـ البوليس الحربي ، أجاب الآخر ٠٠
ـ لماذا لم تطلبوا مني أن أقف جانبا بدلا من الانقضاض علي ؟
فلم يجيبوا ٠ لم يكن هناك ما يضطرهم أن يجيبوا ٠٠ أن ذلك ليس من شأنكم ، هم رجال البوليس الحربي ٠
صاح ضابط من الصف المقابل :
ـ خذه الى زملائه ، وانتبه انه يتكلم الايطالية برطانة ٠
وساقني الرجلان بعيدا عن الجسر ، الى نقطة في الحقل تقرب من شاطيء النهر ، حيث تقف جماعة من الناس ، سمعت قبل ان نصلها صوت الرصاص ينطلق خلفها ٠
كان هناك أربع ضباط يقفون معا ، بشكل نصف دائرة ، أمامهم رجل ، يحيط به جنود البوليس الحربي ، بينما تجمع على مقربة منهم ، فريق من الرجال ، يحيط بهم جنود شاهرو السلاح ٠
دفعني البوليسان نحو الاسرى ٠
حدقت في الرجل ، الواقف أمام هيئة الضباط الاربعة ، فعرفته ، انه اللفتنانت كولونل الذي ساقوه أمامي ، بعد أن انتزعوه من القافلة المنسحبة ٠
كانت نظرات الضباط المستجوبين تشعرك بأنهم يملكون كل النفوذ والفعالية ، في تقرير مصيرك ومصير الكثيرين ٠
ـ فصيلك ، سمعتهم يسألونه ٠
فأخبرهم :
ـ الفرقة ؟
ـ لماذا لم تبق معها ؟ فأخبرهم بالسبب ٠
ـ ألا تعرف ان من واجب الضابط المقاومة حتى النهاية ؟ فاجابهم ٠٠ وانتهى كل شيء ، وتكلم ضابط آخر :
ـ أنت ومن على شاكلتك، الذين سمحتم للبرابرة تدنيس تربةايطاليا المقدسة ٠
ـ أرجو عفوكم ٠
ـ من جراء الخيانات ، خياناتكم فقدت ايطاليا ثمار النصر ٠

ـ هل اتفق لكم ان اشتركتم في عملية تراجع كهذه ، سأل الكولونيل المسكين ·

ـ ايطاليا يجب ألا تتراجع أبدا ·

كان المطر يهطل فوق رؤوسنا ، ونحن نستمع الى مجريات المحاكمة ، والهيئة المقررة قبالتنا بينما المتهم يقف وظهره الينا :

ـ اذا كنتم ستقتلونني ، قال اللفتنانت ·· فأرجوكم تنفيذ ذلك فورا · دون زيادة في الاستجواب ·· ان هذا استجواب احمق ·

واشار بعلامة الصليب على صدره ، بينما راح الضباط الاربعة يتشاورون فيما بينهم وخط احدهم شيئا على ورقة امامه ثم صاح :

ـ ترك جنوده ·· محكوم بالاعدام رميا بالرصاص وفي الحال ساقه جنديان الى ضفة النهر : كان رجلا مسنا بدينا ، بلا قبعة ، تنقط من ثيابه الملوثة قطرات المطر · وبعد قليل لعلعت طلقات ثلاث ، لا شك أنها ازهقت روحه · بينما شرع الضباط في استجواب رجل آخر ، كان قد غادر جنوده ايضا ، ولم يسمح له بتبيان قضيته ، وانما سمعت عويله بعد ان اعلن الحكم عليه قتلا بالرصاص ·

وفيما راحوا يعيدون التمثيلية مع متهم ثالث دوت الرصاصات الثلاث· وهكذا المتهم السابق ، فيخلصوا بذلك من فترة الانتظار الصامت الممل ·

وتملكتني الحيرة ، هل انتظر دوري في الاستجواب أم أقوم بعمل حاسم فورا ؟ كان من الواضح انهم سيعتبرونني المانيا في لباس ايطالي · لقد اكتشفت كيف كانت عقولهم تعمل وتفكر اذا كانت لهم عقول حقا ، او كانت هذه عقول تفكر وتعمل · كانوا فتيانا صغارا ، اخطأ الذين سمحوا لهم بارتداء ثياب الحرب ، ودفعوهم الى معترك الدماء ، وكانوا يعتقدون انهم بعملهم هذا يدافعون عن شرف وطنهم ، ويذودون عنه غير عالمين ان الجيش الثاني قد اعيد تشكيله فيما وراء تكلبمانتو وان كثيرا من ضباطه قد سرحوا· وهكذا راحوا يعدمون ضباطا ورجالا برتبة ماجور وبرتب اعلى ، ملصقين فيهم تهمة ترك الجيش ، متبعين الطريقة ذاتها مع من تقرر عواطفهم ، انهم المان بالزي الايطالي ، ولكن بسرعة مدهشة وبعملية مختصرة جدا ·

وظللنا تحت وابل الامطار ، يسوقون منا واحدا اثر واحد للمجزرة الصامتة ، دون ان الحظ ان رجلا ممن استجوبوا ، نعم بحكم غير حكم الموت ، فلقد كان الحاكمون يتمتعون بحق فرض عدالة الموت على أناس كان الموت بهذه الصورة ، أبعد ما يكون عن تفكيرهم ·

ـ فرقتك ؟

فاجابتهم الضحية السابعة ، وتطلعت حولي ، كان الحرس ينظرون نحو القادمين الجدد ، وبعضهم ينظر الى الضحية ،فاحنيت رأسي واندفعت كالسهم بين الرجلين ، قاصدا النهر ، وقذفت نفسي فيه فور بلوغه ·

كان الماء باردا جدا ، ومع ذلك حاولت ان ابقى في دوامته العنيفة ورغم ذلك نجحت في الاستمرار الى الاسفل، حتى خيل الي انني لن استطيع الصعود ابدا ، وفي اللحظة التي تمكنت فيها من الارتفاع واستنشاق الهواء سمعت اطلاق الرصاص ما زال متواصلا ، كانوا يطلقون في كل اتجاه ، ثم حصروا القذف نحو النهر ، على ان ثقل الملابس التي كنت ارتديها ، ووزن حذائي الحربي ، سهلا علي البقاء في الاعماق ، بعيدا عن مرمى رصاصهم · وعندما الصماء ، بعد ان رفضت تسليمه الى قريني من بني الانسان ، أن تودي بي الى طافية امامي ، وجسدي متدليا من طرفها ، وبعد ان وثقت اني اسير باتجاه مطمئن وبالسرعة الكافية ، رفعت جسدي فوق الماء ، وتركت قطعة الخشب تسحبني دون ان احتاج الى جهد ما ·

لا يستطيع السابح ان يعرف الوقت الذي يقضيه في الماء اذا كان المجرى يندفع مسرعا ، فقد يتراءى له ، لطول المسافة ، أنه تضى وقتا مديدا جدا ، بينما الواقع غير ذلك ٠

كانت مياه النهر باردة كالصقيع ، تمتزج بها وحول الطرقات المجروفة، وتقوم فوقها اغصان الشجر وفتات الاخشاب المهترئة ٠

ولم يكن يشغل بالي الا ان أصاب بالتشنج وتشل حركة بعض اعضائي، فصرت أرجو الاقتراب من الشاطىء ٠ ومن حسن حظي أن انعطف بي المجرى بعد قليل ، ومكنتني خيـوط الفجـر الاولى من تمييز شجيرات الضفـة المتقاربة٠ وحرت هل أنزع حذائي وملابسي ، وأحاول الوصول الى الشاطىء، أم اترك للتيار ورقعة الخشب الصماء أمر قيادي ، ورغم أني لم أكن افكر الا ببلوغ الضفة ، الا أني رفضت فكرة نزع ملابسي وحذائي ، فكيـف ستكون حالتي عندما أخرج من الماء عاريا حافي القدمين ، وأنا مضطر لدخول بلـدة مستري والركوب منها ؟!

وظل التيار وقطعة الخشب يتأرجحان بي ، تارة يقربانني من الشاطـىء وطورا يبعداني عنه ، ثم أخذ مجرى الماء يبطيء في اندفاعه ، ولكنه يتجه قريبا من الضفة ، فحشدت جميع ما تبقى من قواي ، ودفعت بقطعة الخشب صوب اليابسة ، ولكن عبثا خانتني قواي ، وغلبتني المياه ، وخطر لي ثانية أن أنزع حذائي وثوبي ، وخشيت ان أنا استمررت في القاء زمامي الى قطعة الخشـب الصماء ، بعد ان رفضت تسليمه الى قريني من بني الانسان ، ان تؤدي بي الى الهلاك ، هي الاخرى ، فعبأت كل قواي مجددا ، وأعدت الكرة ، دافعـا بعزيمة أشد وأقوى ، وبمتابعة مستمرة ، وبعد قليل ، رفعت رأسـي لارى نتيجة جهودي اليائسة ، فاذا بي اجد الضفة أقرب ، وأتمكن من تمييز حتى الوريقات الصغيرة الخضراء ٠ وخلق ذلك الامل بالعودة الـى الحياة سالما ، عزما جديدا في نفسي ، وقوى رجائي ، فاندفعـت اقذف بجسدي وبقطعـة الخشب شرقا ، مستغيثا بكل قطرة من دمي وباعثا الرمق الاخير في كفاح ضد

خطر الموت غرقا .. ولكن ألما حادا ممزقا دب في ساقي وفي أحشائي ، وأحسست بمعدتي تطحن الفراغ، وبقلبي يخفق خفقانا مرعبا، وكدت أفقد وعيي ولم أشعر الا ويدي تصدم الصخر وبالماء ينحسر قليلا عني . فبقيت هكذا معلقا بين الارض والماء ، بين الموت والرجاء ، حتى خف الالم الصارخ قليلا ، واستطعت الزحف على معدتي الى البر ، مرتميا فوق أرضه المنشودة . وخرير الماء وصوت المطر الغزير يختلطان في اذني .

وبعد استراحة قصيرة نهضت وباشرت المسير ، كنت اعرف عدم وجود جسر حتى قرية لانيسانا ، وتصورت اني الآن مقابل بلدة سان فيتو . وبدأت أفكر بما ينبغي عمله . ولكن أخدودا عميق القعر ، على خطوات مني ،جذبني الى جوفه . فارتميت فيه ثانيــة ، أريد الاستزادة من الراحة ، ثم نزعــت حذائي ، افرغت ماءه وكذلك معطفــي ، مخرجا من جيبه الداخلي ، حافظــة نقودي وأوراقي ، التي كانت جميعها مبللة ، ثم نشرت المعطــف وكذلــك سروالي وبقية ملابسي بعد ان عصرتها ، وعدت الى النهر افرك جسدي .

وقبل أن أرتديها ثانية نزعت النجوم عن كتفــي ووضعتها في جيبــي الداخلية ، مع نقودي التي تبلغ قرابة الثلاثة آلاف ليرة .

كانت جميعها رطبة لزجــة ، فرحت ألطم على ذراعي وساقي أريــد تنشيط حركة الدم ، ثم أسرعت في المسير ، كان الريــف يشعر بجو الشتاء البارد الموحش . فقد كان مبللا قاتما .. كئيبا .. الحقول كلها عاريــة جرداء تغمرها المياه .. وتغوص بها القدم عميقا .. وتراءت في الافق أمامي اســوار دير قديم ، برجه فوق الضباب .. ثم لمحت فصائل من الجند تسير في غيــر اتجاهي ، فدسست جسمي بين الشجيرات الكثيفة ، حتى ابتعدوا عني، دون ان يعيروني التفاتة واحدة . كانوا من المدفعية يقصدون نقطة على ضفة النهر .. وتابعت طريقي ..

• • •

تحت أمطار ذلك اليوم الموحش الكئيب عبرت سهل فنيتيا الشاســـع .. انها اراض منخفضة واسعة .. تكثـــر المستنقعات الملحيـــة في أجزائها القريبة من البحر ، وتتخللها عدة طرق ، تحاذي مجرى النهر في اتجاهها ، ولا بد للذي يقدر له عبور تلك الفيافي المقفرة من الاهتداء بسير تلـــك الطرق المتعرجة الضيقة ، الموصلة في نهايتها الى البحر .

ظللت متابعا سيري الجنوبي قاطعا خطين من سكك الحديد ، مارا بعدة

مفارق ، حتى بلغت الخط الحديدي العريض الذي يصل بين فينيتيا وتريستا، برصيفه المرتفع الصلب ، وقضبانه الفولاذية المتينة ، يحاذيه ممر من كــلا الجانبين في نقطة بعيدة من أحدهما ، رأيت علم محطة يرتفع ، وحوله جنود من حرس القطارات ، بينما كان في الناحية المقابلة جسر أقيم فوق نهيــر تفيض مياهه في الاراضي السبخة ، قد وقف على طرفيه هو الاخر جنديان مــن الحرس ، وفيما انا أهم بتغيير وجهة تقدمي ، والانعطاف شمالا ، سمعــت الهدير من بعيد ، وفي الحال لمحت القطار القادم من بورتوغرورو ، فاستلقيت تحت رصيف الخط ، انتظر وصوله ، كان القطار طويلا جــدا ، الامر الذي جعل حركته بطيئة جدا وكنت واثقا من مقدرتي في التعلق بــه ، واستراق الخطى الى جوف احدى عرباته ، مع علمي بوجود حرس في كل منها ، وعندما اقترب حاولت رؤية أماكنهم ، ولكن حرصي على عدم الانفضاح اعاقني عــن ذلك ، فانتظرت الى أن أصبح قبالتي ، وتجاوزتني عربة السائق ، وعدد من القاطرات الاخرى ، ونهضت متحفزا للوثوب ، متقدما بهدوء وعجلة ، واثقــا ان الحرس لن يعيروني انتباههم ، حتى حاذيــت عربة واطئــة يغطيهــا « الجنفيص » ، فقفزت نحو مؤخرتها متمسكا بقضبانها الحديدية ، ثم دفعت نفسي وتعلقت بها جيدا ، وكانت العربة قــد أصبحت الان مقابل الجســر الصغير ، فتذكرت الحارسين المرابطين فوقه ، فانطرحت ارضا ، وانقضــت دقيقة ثم أخرى ولم أشعر بشيء ، وعندما تطلعت نحوهما ، كانا شابيــن صغيرين ، يغوص وجهاهما داخل الخوذتين ، الواسعتين ، والظاهر انهما لم يحفلا بوجودي على تلك الحال .. بل ربما يكونان قد سخرا من وضعي هذا متابعين خطواتهما النظامية على أرض الجسر ، وبعد أن تجاوزناهما بمسافة طويلة ، مددت رأسي أريد معرفة مدى أحكام غطاء الجنفيص حول العربــة ، كان موثوقا بالحبال ، فاخرجت سكيني وقطعت اقرب حبل الي ، ثم مددت يدي داخلا استكشف نوع الحمولة . فارتطمت يدي بأجسام صلبة ، ولكــن أدركت وجود متسع لي ، فافلت يدي الاخرى عن مقبض المؤخرة ودفعت جسدي داخلا بسرعة فائقة خشية ان يشعر الحارس بحركتي الا أن رأسي ارتطــم بالمادة الصلبة ، وسال الدم على وجنتي . ولكني تمكنت من النجاح والاطمئنان الى ملجئي الجديد ، وبعد أن أعدت احكام وضع الجنفيص كما كان سابقــا ، تمددت الى جانب المدافع ، تفوح رائحتها القوية من الزيوت والشحــوم في

منخري ، بينما يضج في مسامعي صرير عجلات القطار ، وصوت هطول المطر ومن خلال فتحة في الغطاء سرى الضوء الى جوف العربة المظلم ، فمكنني من تامل هياكل المدافع ، المرتدية معاطفها السميكة .

كانت الرضة في جبيني قد تورمت ، وكنت قد تمكنت من ايقاف النزيف بضغط الجرح ، وباستمراري مستلقيا على ظهري وبعد ان جمد الدم تماما أزلته ، ما عدا الدم الذي كان فوق الجرح ، ولما لم اكن احمل منديلا فقد احتلت بالاستفادة من نقاط المطر التي تسح من الغطاء الجنفيصي ، في تنظيف وجهي مما يمكن ان يلفت النظر ويثير الريبة ، وبقطرات المطر ايضا ايضا غسلت يدي من الزيت ثم جففتها بردن معطفي .

كان من الواضح ان القطار سيتوقف في بلدة مستري حيث يفرغون حمولة المدافع ، الذي يفرض علي مغادرة العربة قبل المحطة بقليل .فأخذت اترقب بلوغ تلك النقطة والجوع قد أخذ مني مأخذه .

. . .

ومرت ساعات أخرى وأنا مستلق على ظهري ، فوق أرض العربة ، بجوار المدافع ، يغطينا الجنفيص ذو الرائحة القذرة .. ظللت هكذا ، مبللا ، جائعا ، منهوك القوى ، حتى ارتأيت أن انقلب وأنام على معدتي ، ورأسي بين ذراعي، واحسست ان ركبتي متيبسة .. فلم أستغرب ذلك : لقد قامت بواجبها كما ينبغي .. ان فالنتيني الطبيب يستحق كل شكر وجميل واعجاب ، فلقد اتى عملا رائعا فذا .. ان أكثر من نصف عملية الانسحاب الطويلة ، نفذتها ماشيا، على ركبتي ، ومرحلة نهر تكليمانتو الضفنية ، سبحتها في زمهرير برد مخيف وأنا أخشى أن تخونني في عباب الموج ، ولكنها صمدت .. انها بحق ، ملكه ، وملك عبقريته.. أما أنا، فهذه الامعاء الفارغة التي تطحن الفراغ، هي ملكي، وكذلك هذا الرأس المنفوش المبلل الذي كف عن التفكير، كل تفكير ، ولم يعد يصلح الا للذكرى . وتذكرت كـــاترين ، وكنت أعرف اني ساصاب بالجنون اذا ما اشتططت في التفكير بها ، فلربما لم استطع رؤيتها ، ولذلك فأنا لا أريد التفكير بها ، الا قليلا .. والعربة تدرج ثقيلة متباطئة ، وشعــاع خافت من الضوء يخترق فتحة الجنفيص ، وأنا اضجع مع كاترين على أرض العربة .. والامر قاس موجع ، كأرض العربة ، ان تضجع دون تفكير يشغلك، بل مكتف بالشعور فقط ، وانت قد طال غيابك وتبللت كل ملابسك ، وظللت وحيدا مدى الساعات الطوال ، وليس سوى هدير العربة ، ورائحة الجنفيص وقطرات الماء ، وأرض موجعة قاسية لا تصلح للزوجة ومهما فعلت ، فلا يمكن ان تشعر بالعاطفة نحو زملائك ، نحو هياكل المدافــع ، ورقاع الجنفيص ، ورائحة المعادن المزيتة ، ولكنك ستشعر بحنين دافق قوي ، الى الانسان الذي تحبه ، والذي تعلم أنه لا يمكنك هنا حتى تخيله مضطجعا الى جانبك . وانت ترى نفسك الآن ، متبردا ، جائعا ، فارغ الجوف ، تنام على معدتك ، قــد رافقت تراجع جيش كبير مهزوم ، وفقدت عرباتك الثلاث ، وفقدت رجالك ،

كما يفقد رب البيت كل ممتلكاته في النار ٠٠ ولكنك الآن لست مسؤولا ٠٠

لقد ازالـت مياه النهر كل الغضب مـن قلبي وذهبت بكـل شعور بالمسؤولية ٠ مع ان هذا الشعور قد تلاشي ساعة وضع البوليس الحربي يده حول عنقي ٠٠ وتمنيت لو لم اكن ارتدي البذلة العسكرية ، لقد نزعت النجوم عن معطفي ، ولكن ذلك كان فقط من جراء الظروف القاهرة ٠٠ وليس طعنة لها ، فانا لم اشعر بالعداء للايطاليين ٠٠ ولم امقتهم ، بل على النقيض مـن ذلك ، كنت اقدرهم ، واحترمهم ، وارجو لهم التوفيق ، فقد كان بينهم كثير من الرجال الشجعان ٠٠ الطيبين ، والرجال العقلاء الرزينين ، والجميـع يستحقون التقدير والاكبار ، ولكن تلك النجوم لم يبق لها ايه علاقة بـي ، وكل ما أرجوه الآن هو أن يحملني هذا القطار الى مستري ، وان تتاح لـي فرصة الأكل والنوم والجلوس المريح والابتعاد عن كل تفكير بالحرب ٠

ولا شك ان بياني سيخبرهم بأن رجال البوليس الحربي قد قتلونـي فيما قتلوا من ابناء ايطاليا الابرياء ، او ان القيادة العامة ستعتبرني غريقـا حين لا تعثر على اوراقي ، واطرقت ساهما : كيف سيتلقى أهلي في اميركـا ، هذا النبأ ٠٠ نبأ انتهائي ٠٠؟ يا يسوع ٠٠ يكاد الجوع يعتصر قلبي ، ترى ماذا حدث لكاهن فرقتنا ؟ ورينالدي ؟ هـل وصـل الى بوردينو سالمـا ؟ آه ٠ لن استطيع رؤيته ابدا ، لن أستطيع رؤية أحد منهم ، لقد مضت تلك الايام ، أيامي معهم ٠٠ آه ، ولكن كفى ٠٠ فانا لست على استعداد للتفكير ، بل للاكل ، يا يسوع هل أصبح ذلك في منطق المستحيل ؟! أن آكل واشرب ، وانام مع كاترين ، هذه الليلة ٠٠ قد يجوز ، لا لا ، ليلة الغد ٠٠ ووجبة دسمة ، واغطية نظيفة ، وفرش وثير ، ولا فراق ابدا ٠٠ ولربما نضطر للرحيل فورا ، انـي واثق انها سترحل معي ، سترضى بذلك ، ولكن اي مكان سنذهب اليه !؟٠٠ تلك مسألة ينبغي التفكير فيها مليا ٠

وغابت خيوط النور الباهت الذي كان يشق ظلام مأواي ، وعم سواد ليل بهيم ٠٠٠ ولم أحس الا بجسدي يهتز متجاوبا مع قرقعة العجلات ، ورأسي يعمل الفكر في المكان الذي سنذهب اليه ٠٠ كاترين وأنا ٠٠ ان هناك اماكن كثيرة كثيرة ٠

دخل القطار مدينة ميلان ، وبينما هو يتباطأ في تقدمه نحو المحطـــة ، قفزت من العربة ، وأضواء الصباح تنتشر رويدا في الاجواء البعيدة ٠

تسلقت الحاجز الحجري والقيت بنفسي على أرض الشارع الضيـــق المؤدي الى قلب ميلان ٠ مندسا بين المباني المزدحمة ، قاصدا اقرب دكـــان للجمهور رأيته مفتوحا ، طالبا فنجانا من القهوة ٠٠

كان صاحب الدكان يقف وراء منضدته ، بينما جلس جنديان الـــى طاولة اخرى ، يحتسيان خمرا ٠ أما انا فاقتربت من منضدة الرجل ، وشربت القهوة من عليها ، ثم أكلت قطعة خبز صغيرة ، وعندما انتهيت سألني صاحب الدكان :

ـ هل ترغب في تناول قليل من الويسكي ؟

ـ لا ٠٠ أشكرك ٠

ـ دون مقابل ٠٠ على نفقتي الخاصة ؟ وملأ كوبا صغيرا ، ثم دفعـــه الي :

ـ ما الذي يحدث في الجبهة هذه الايام ؟ !

ـ لا أستطيع معرفة ذلك ٠

ـ انهما مخموران ، قال مشيرا الى الجنديين ، اللذين كان مظهرهـــما يؤكد قوله ٠

ـ اخبرني ما الذي يقع في الجبهة ؟

ـ أنا لا أعرف شيئا ، فكيف استطيع اخبارك !٠٠

ـ رأيتك تتسلق جدران المحطة ٠٠ ألست هاربا من القطار القادم من هناك ! ٠

ـ عملية انسحاب ضخمة تاخذ مجراها الآن ٠

ـ انني اطالع الصحف ، ولكن ما الذي يحدث بالضبط ·· هل انتهى كل شيء ؟

ـ لا أعتقد ذلك ·

فملأ الرجل كأسا اخرى :

ـ اذا كنت بحاجة للمساعدة فأنا استطيع تدبير مكان امين لك ·

ـ لست بحاجة لذلك ·

ـ اذا كنت في مأزق ، فبامكانك المكوث هنا ، برفقتي ؟

ـ هنا ؟ واين يمكنني المكوث ؟

ـ داخل البناية ، الكثيرون يلجأون الي ·· جميع الذين يطلبون العون·

ـ وهل الذين يطلبون المساعدة كثيرون جدا !

ـ القضية تتوقف على نوع المساعدة ·· انت من امريكا الجنوبية ؟ ·

ـ لا ·

ـ تتكلم الاسبانية ؟

ـ قليلا ·

ـ من الصعوبة بمكان كبير ، مغادرة البلاد في هذه الايام ·· على ان ذلك ليس مستحيلا بالنسبة للجميع ·

ـ لا أريد مغادرة البلاد ·

ـ بامكانك البقاء هنا ، المدة التي تريدها وستتبين أي نوع من الرجال اكـون ·

ـ ولكني مضطر لمغادرة ميلان الآن ·· فلا بأس من تسجيل عنوانـك بمذكرتي ·· فليس بامكان المرء التكهن بالمستقبل ·

فهز رأسه : ـ لن تحتاج الي ·· اذا كان ما تقوله صدقا ·· ظننت في البدء انك بمأزق حقيقي ·

ـ لست في مأزق ، ولكني أحترم عنوان صديق مثلك· أجبته ووضعت ١٠ لير على الطاولة ، ثمن القهوة ، وقبل ان يمد يده نحوها ، أشار الى كأس الوسكي ·

ـ اشربه اكراما لي ·

ـ لا أراني راغبا في الشراب ·

ـ كأسا واحدا فقط · وناولني اياه ، مردفا :

ـ تذكر جيدا ·· تعالى الي لا تدع الآخرين يخدعونك ·· فهنا فقط ،

تكون أمينا على نفسك ·

ـ اني واثق من ذلك ·

ـ واثق حقا ؟ !

ـ نعم ·

فأجاب بلهجة أكثر جدية :

ـ اذا دعني أخبرك شيئا هاما ·· لا تتجول بهذا المعطف ·

ـ لماذا ؟

ـ على كتفك ، يظهر واضحا أثر النجوم المنزوعة ·· لون القماش متفاوت ·

فلم أقل شيئا ، وتابع هو :

ـ اذا لم تكن تملك الاوراق المناسبة ، فدعني أقدمها لك ؟

ـ اية أوراق ؟

ـ المتعلقة بالاجازة ·

ـ لست بحاجة اليها ·· عندي اوراقي الخاصة ·

ـ حسنا ، ولكن اذا احتجت لأي وثائق فبامكاني تأمينها لك بالشكل الذي ترغب به ·

ـ وكم تكلف مثل هذه الوثائق ؟

ـ حسب نوعها · على ان السعر معقول جدا ·

ـ ليس بي حاجة لمثلها الآن ·

فهز كتفيه ، وعندما حييته وأنا أهم بالخروج همس في اذني ·

ـ لا تنس أني صديقك ·

ـ طبعا ·   ـ سأراك ثانية ، اليس كذلك ؟

ـ هذا يتوقف على نوع الظروف ·

ما أن ابتعدت عن دكان الخمور ، حتى عطفت وسرت في اتجاه معاكس لموقع المحطة حيث يكثر رجال البوليس ، وعند رؤية أول عربة خيل ، أشرت الى سائقها بالوقوف ، وقفزت فورا ، مخبرا الرجل ان يتجه بي الى المستشفى الاميركي ، وهناك طرقت فورا باب غرفة الحاجب ، الذي استقبلني دهشا ، ثم اقبل معانقا بحرارة ، تتبعه زوجته :

ـ لقد عدت سالما ·· هل تناولت فطورك ؟

ـ نعم . ـ كيف أنت ايها الليوتنان ؟ ! . كيف ركبتك ؟ سالتني الزوجة .

ـ حسنة ..

ـ الا تتناول الفطور معنا ؟

ـ لا .. شكرا .. اخبرني هل الانسة باركلي في المستشفى الآن ؟

ـ الانسة باركلي ؟ ! ..

ـ فتاته ، أجابت الزوجة مربتة على ظهري والابتسامة مـلء عينيها ، بينما قال زوجها متذكرا :

ـ ها .. لقد رحلت .

واحسست ان قلبي راح يخفق خفقانا متتابعا وسالته دون وعي :

ـ امتاكد أنت ؟ الفتاة الانجليزية الطويلة ؟

ـ متاكد .. ذهبت الى أسترسا .

ـ متى ؟

ـ منذ يومين .. ومعها الانجليزية الاخرى .

ـ حسنا، اذا أرجوك أن تنفذ لي هذه الرغبة المهمة : لا تخبر أحدا انك رأيتني هنا .. فهمت ؟ .. هذا امر هام جدا .. ومددت يدي الى جيبي :

ـ لن أخبر أحد .. لا .. لا أريد نقودا .

ـ ماذا يمكن ان نفعل من اجلك ايها السنيور الليوتنان ؟ .. اسالنـي اية خدمة ؟ ! قالت لي الزوجة .

ـ فقط ان لا تذكراني امام احد .

ـ سنكون كالخرسان : أجاب الحاجب ـ اخبرني اي شيء يمكـن ان نقوم به من اجلك ؟

ـ ساودعكما الان .. على ان ازوركما قريبا .

وقفا امام الباب ينظران الي ، بينما اسرعت انا الى العربة ، طالبا من السائق ان يهرع بي نحو مسكن سيمونس ، احد الامريكيين الذين اعرفهم ، وكان يتعلم فن الغناء في احد معاهد ميلان الشهيـرة ، ويعيش في ضـاحية قريبة ، عند بوابة ماكنينا . وعندما قرعت عليه باب الغرفـة ، كان ما يزال

نائما في سريره :

ـ الظاهر انك افقت باكرا جدا يا هنري ؟ !

ـ جئت في اول قطار ٠

ـ ما هذا التقهقر ؟! الم تكن في الجبهة ؟٠٠ هـل تريد سيجارة ٠٠ في ٠٠ العلبة ٠٠ على تلك الطاولة ٠

كانت الغرفة واسعة ، ذات سرير واحد ، مثبت في احدى الزوايـــا ، بينما صفت في الجبهة المقابلة طاولة صغيرة وكرسيان وجهاز بيانو ثم خزانة ملابس صغيرة ٠

ادنيت الكرسي وجلست قبالته ، بينما اتكأ هو على وسادتـه ، وراح يدخن :

ـ اني على عجل يا سيم ٠

ـ وكذلك انا ٠٠ انني دائما على عجل ٠٠ الا تريد سيجارة ؟

ـ لا ، كيف العمل للذهاب الى سوسيرا ؟

ـ بالنسبة لك ؟ ! لن يسمحوا ابدا بمغادرتك البلاد ٠

ـ أعرف ذلك ، ولكن السويسريين ؟ ماذا يكون موقفهم ؟

ـ سيلقون القبض عليك ٠

ـ أعرف ، ولكن ماذا يتبع ذلك ؟!

ـ لا شيء ٠٠ المسألة بسيطة جدا ٠٠ وباستطاعتك الذهاب انى شئت ٠٠ ولست بحاجة الا لاخبار البوليس عن مكان وجودك ٠٠ ما القضية ؟ هل أنت هارب من وجه البوليس الحربي ؟!

ـ حتى الآن ٠٠ لايمكنني تحديد شيء البتة ٠

ـ ليس من الضروري ان تخبرني اذا رأيت ذلك في غير صالحـك ٠٠ ولكن الامر ملذ سماعه ، كن مطمئنا فلن يقع لك شيء هنا ٠٠ هل وصلتـك اخباري ؟! كنت مفاجاة عظمى في بايسيزا ٠

ـ آسف لم يصلني شيء ٠

ـ ها ٠٠ وقد ساءت صحتي كثيرا ٠٠ ومع ذلك فقد أجدت في الغنـاء

حتى ادهشت جميع الحاضرين ·· وساعيد الكرة قريبا ولكن في لبريكو ·

ـ كم ارغب في أن أكون حاضرا ·

ـ انك لطيف جدا ·· لست في مازق حرج ؟· أليس كذلك ؟

ـ لا أدري بالضبط ·

ـ لا تخبرني اذا كنت تفضل كتمان الامر ·

·· ما الذي حدث وجعلك تبتعد عن جبهة القتال الدامية ؟!

ـ حسب اعتقادي ·· اني ما زلت في قلب المعركة ·

ـ أيها الفتى الطيب ·· أعرفك دائما ذا عقل راجح ·· هل باستطاعتي مساعدتك في أي وجه ؟

ـ انك مشغول جدا ·

ـ حسنا ، لا تخبرني شيئا ·· لا تخبرني أي شيء يا عزيزي هنري ·· ومع ذلك ساكون سعيدا جدا اذا ما استطعت تقديم خدمة لك ·

ـ جسمك قريب من جسمي ، هل تخرج وتشتري لي ثوبا مدنيا ·· فملابسي جميعها في روما ·

ـ كنت تعيش فيها ·· أليس كـــذلك ؟ انها مدينـــة قذرة ·· كيف استطعت الحياة بها ؟!

ـ فكرت أن ادرس فن البناء ·

ولكنها ليست المدينة المطلوبة ·· اسمع ·· لا تشتر ثيابا جديدة ·· فأنا اعطيك كل ما تحتاجه منها ، عندي ملابس كثيرة وساديز لك الامـــر بحيث أجعلك تظهر بها كما ينبغي ·· هيا ·· هناك في تلك الخزانة ·· انتق الثوب الذي يروق لك · فعندي الكثير ولست بحاجة لدفع لير واحد !

ـ افضل الشراء يا اسيم ·

ـ يا صديقي العزيز ، اقولها لك بصراحة ·· اني أفضـــل منحك كـــل ثيابي على ان أنهض الآن وأخرج لشراء بذلة جديدة ·· هل تحمـــل جـــواز سفر ؟ لن تستطيع السفر بدونه ·

ـ ما زلت احتفظ بجوازي ·

ـ اذن البس وانطلق صوب بلدة هلفتيا ·

ـ ليس ذلك سهلا ، ينبغي أولا الذهاب الى استرسا ٠

ـ حسنا ٠٠ حسنا ٠٠ وما عليك بعدئذ الا ان تعبر البحيرة في أحد الزوارق ٠٠ رحلة ممتعة ٠٠ لو لم أكن مرتبطا بحفلة غناء ٠٠ لرافقتك ٠

ـ بامكانك الاستعانة بجهاز تسجيل الاصوات ٠

ـ يا صديقي العزيز : سأستعين به فيما بعد ٠٠ مع اني في الحقيقة أستطيع ذلك الآن ٠٠ ثق أني أبدع في الغناء تماما ٠٠ اسمع ٠٠

ولوى عنقه مرددا لحنا من قصيدة « أفريقيا » ولم يتم مقطعها الاول حتى احمرت أوداجه وبرزت عروق رقبته :

ـ كيف ترى ؟ أستطيع الاستعانة بجهاز التسجيل ٠٠ سواء طربوا أم لم يطربوا ٠

وفجاة تذكرت ان عربة الخيل ما زالت في الخارج تنتظرني :

ـ سأخرج لآمر العربة بالانصراف ٠

ـ حسنا ٠٠ ولكن عد لتناول الفطور معا ٠

قالها وقفز من السرير ، ثم وقف منتصبا وتنفس طويلا وشرع في تمرينات رياضية ٠٠ بينما استأذنت أنا وخرجت لأنقد السائق أجره ٠

• • •

شعرت ، وأنا في الثياب المدنية ، أني كالانسان الشاذ ٠٠ لم آلف منظر شخصي للوهلة الاولى وأحسست ان طابعا غريبا يتملكني ٠٠٠ لقد قضيت في الثوب العسكري زمنا طويلا نسيت معه تلك الصورة الساذجة الطبيعية التي كانت تضفيها على شخصي الثياب المدنية ٠٠ على أني سرعان ما نسيت كل ما يتعلق بهذا الامر ، شاغلا فكري في كيفية الوصول الى استرسا ٠

ومن ميلان ، اشتريت تذكرة سفر اليها ٠ وركبت أول قطار يقصدها، وكان يجلس في العربة التي دخلتها ، ثلاثة طيارون ، لم يابهوا بي ابدا ، بل انهم تجنبوا النظر الي ، غير حافلين برجل في عمري ، يرتدي الملابس المدنية ، ولكني لم أشعر بأني أهنت ، مع ان الحادث لو وقع مثيله في الايام الماضية ، لثرت وطلبتهم جميعا للمبارزة ٠

وعند بلوغ القطار محطة كالارات ، غادره الطيارون ثلاثتهم ، فسررت لبقائي وحيدا ، وكنت قد ابتعت بعض الجرائد الصباحية ، فأخرجتها محاولا تمضية الوقت ٠٠ ولكني لم أقرأ شيئا ٠٠ كنت نافرا من قراءة أي شيء عن الحرب ٠٠ وأنا في طريقي لنسيان كل ما يمت لها بصلة ٠٠ لقد عقدت سلما منفردا ، سلما خاصا ، وليستمر الاخرون في الحرب ما شاؤوا ٠ وبالفعل وضعت الجرائد جانبا دون ان اقرأ حتى عناوينها الكبيرة ، واسندت رأسي الى جدار العربة ، شاعرا بضيق شديد من الانفراد والصمت المستمر ، ولم أحس بانفراج الضيق الا حينما توقفت العربة ، وعلمت ان المكان هو استرسا ٠

لم اجد في باحة المحطة حمالا واحدا ٠٠ لقد انقضى الصيف منذ زمن ، ولم يعد احد يحفل بقدوم القطار أو رحيله ، ولذلك حملت المحفظة الصغيرة،

الخاصة بسيمون ، والتي لم يكن في داخلها شيء ذو قيمة أو وزن ، ووقفت عند باب المحطة أترقب مرور سيارة أو عربة خيل ، على ان انتظاري طال دون جدوى ، فاقتربت من رجل كان يقف داخل القاعة الفسيحة ، وسألته عن الفندق الذي يمكنني النزول فيه ، في هذا الفصل من السنة ، فأخبرني ان فندق بورروميس الفخم يعمل طوال العام ، وكذلك عدد من الفنادق الاخرى . شكرت الرجل وانطلقت في الشارع العام ، تحت المطر ، قاصدا فندق بورروميس ، والمحفظة في يدي ، وعند نهاية الشارع ، لمحت عربة تسير متباطئة ، فأشرت الى سائقها الذي انعطف نحوي على الفور ، ونزل من مقعده مادا يده لتناول الحقيبة .. ان وصولي الى الفندق في عربة ، افضل منه ماشيا على قدمي ، والمحفظة في يدي والمطر يبلل رأسي وثيابي.

اسرع الحاجب تحت مظلته ، وحمل الحقيبة ، وسرت انا بجانبه ، بعد ان رحب بي ترحيبا حارا . ودون عناء يذكر ، اخترت غرفة واسعة ، حسنة الانارة ، تطل على البحيرة ، التي كانت سماؤها ساعتئذ ، ملبدة بالغيوم الرمادية القاتمة . ورغم ذلك فهي تبدو رائعة جميلة.

كانت الغرفة التي انتقيتها تحوي سريرين اذ اني اخبرت مدير الفندق اني بانتظار قدوم زوجتي ، وبعد ان ارتحت قليلا ، قمت أتأمل القاعات الواسعة الفخمة ، واتنقل بين غرفه المترفة التأثيث ، ثم اتجهت صوب (البار) وهناك وجدت اني أعرف الرجل المسؤول عنه ، فالتهمت قطعا من البطاطا المحمرة ، وقليلا من اللوز المملح ثم شربت كأس نبيذ وهممت بالانصراف ولكن الرجل سألني :

– ماذا تعمل هنا ؟

– أقضي اجازة النقاهة .

– لا يوجد الا القليل من النزلاء .. ولست ادري لماذا يبقون الفندق مفتوحا .

– ألم تذهب للصيد في البحيرة ؟

– بلى ، اصطدت كثيرا من السمك ، ففي هذا الوقت من العام يمكن الصيد بسهولة .

– هل وصلتك علب السجاير التي ارسلتها لك ؟

– نعم ، ألم تصلك البطاقة ؟

فضحكت ، كان يريد سجاير امريكية ، ولكن اهلي كانوا قد توقفوا عن ارسالها ، او ربما قد تكون منعت ، فبعثت له بسجاير فرنسية بدلا منها:

ـ أخبرني الم تر فتاتين انجليزيتين في البلدة هنا ؟٠٠ قدمتا منذ يومين ٠

ـ لم تنزلا عندنا ٠

ـ هما ممرضتان ٠

ـ ها ، لقد لمحت ممرضتين ٠٠ تمهل ٠٠ دقيقة واحدة ٠٠ انتظر دقيقة ٠ سأتذكر أين رأيتهما ٠٠

ـ احداهما زوجتي ٠٠ وقد حضرت لرؤيتها٠

ـ والاخرى زوجتي انا ٠٠ وكنت انتظرها ٠

ـ لست اداعبك ٠

ـ اذا اصفح عني ٠٠ انها هفوة بريئة ٠٠ لم افهم قصدك الحقيقي ٠٠

قالها واستأذن بالغياب هنيهة ، بينما رحت أنا التهم حبات اللوز المملح ، وانظر الى نفسي في المرآة المواجهة ، وقد راق لي منظري مرتديا الملابس المدنية ، وقبعة سيمون الانيقة ٠ وبعد قليل ، عاد والبشر باد في وجهه :

ـ انهما في الفندق الصغير قرب المحطة ٠

ـ ماذا تقول في بعض (السندويش) ؟

ـ ساطلب جلب ما تريده منها ، فنحن هنا لا نملك شيئا البتة ٠٠ اذ لا يوجد نزلاء كما اخبرتك ٠

ـ مطلقا ؟

ـ قليل جدا ٠

لم يمض ما يقارب خمس عشرة دقيقة حتى اقبل الحاجب وبيده قطع السندويش ، فالتهمتها جميعا ، مرفقا اياها بجرعات من الوسكي النقية المبردة ، التي لم اكن قد تذوقت مثيلها من قبل حتى انها اشعرتني بعودتي الى الحياة المدنية، بعد ان كنت قد مللت مضغ الخبز الاسود والقهوة الرديئة، والسكر القذر ، وفيما أنا اتلذذ بمضغ الخبز النظيف ، مستوعبا جمال منظري فوق الكرسي المرتفع قبالة المرآة اللامعة ، وكل ما حولي براق متسق راح الرجل يمطرني اسئلة متعددة : اجبته عليها دون انتباه تام :

ـ لا نتكلم عن الحرب فهي بعيدة عنا ٠

والواقع انها كانت بعيدة ، ولربما لم يكن هنالك حرب بالنسبة لهذه البقاع ٠ فهي لم تكن قد اكتوت بنيرانها، وكذلك اهلها ٠٠ كانوا بعيدين عنها ٠٠ وها انا ٠٠ أليست بعيدة عني الان ؟٠٠ ألا تعتبر منتهية بالنسبة

لي ٠٠ ؟ ولم لا ؟ ٠٠ اني أشعر بالقناعة الكافية التي تخلصت منها !! بانها حقا لن تتبعني ٠٠ الى هنا ٠٠ اني أحس ذات المخاوف ، التي يشعر بها التلميذ الهارب من مدرسته الداخلية ، دون اذن من معلمه ٠

* * *

عندما دخلت قاعة الفندق الصغير ، المجاور لمحطة السكة ، كانت كاترين وفيركوسن تتناولان وجبة غدائهما ، ومنذ وطئت قدماي مدخل القاعة ، وقع نظري على رأس كاترين ، ذي الشعر الجذاب ، وقد جلست ووجهها في اتجاه مضاد لناحية المدخل ، فلم يظهر منها الا شعرها ، وأعلى وجنتيها ، وعنقها البضة الجميلة ، ورأيت فيركوسن تتكلم مشيرة بيديها ، ولكنها توقفت حالما شاهدتني وانتصبت واقفة :

ـ يا الهي !

ـ مرحبا ٠

ـ ماذا ؟! انت هنري !؟

هتفت كاترين ، مسرعة نحوي وقد شع وجهها نورا ، وفاض السرور في عينيها ، ومدت يدها نحوي ، كأنها تحاول الوثوق مما ترى ، عن طريق اللمس ، فاقتربت منها وضممتها الى صدري ، وقبلتها قبلة طويلة حارة ، احمر لها وجهها ، ثم جلسنا الى الطاولة ٠

ـ انك رجل عجيب ، ماذا تعمل هنا ؟٠ » قالت فيركوسن » ما الذي أتى بك الينا ؟! أتناولت غداءك ؟

ـ لا ٠٠

فاخبرت الفتاة التي كانت تقدم لها الطعام ان تحضر صحنا ثالثا من اجلي ، وعاودت اكلها ، بينما راحت كاترين تنظر الي طيلة الوقت ، وملء عينيها سعادة غامرة ٠

ـ ماذا تفعل بهذه الملابس المدنية ، سالتني فيركوسن ٠

ـ انني عضو في مجلس الشيوخ ٠

ـ انك عضو في احدى العصابات ٠

ـ امرحي يا فيركي ٠٠ امرحي ولو قليلا ٠

ـ لن امرح عندما اراك ، فانا أعرف المازق الذي أوقعت هذه الفتاة فيه ٠٠ انك لست انسانا يبعث على المرح والهناء ٠

فتطلعت كاترين في وجهي مبتسمة ، ولمست قدمي تحت الطاولة ، ثم

التفتت الى فيركوسن :

ـ لم يوقعني أحد في مازق يا فيركي ·· وأنا وحدي مسؤولة عما يقع لي ·

ـ على كل حال ، لا استطيع تحمل رؤيته ·· انه لم يفعل الا ايذاءك وتدمير مستقبلك بحيله الايطالية الخداعة ·· الامريكيون اسوأ خلقا من الايطاليين ··

ـ والاسكتلنديون أناس مثاليو الاخلاق ، أردفت كاترين ·

ـ لا أعني ذلك ·· اقصد خداعه الايطالي ·

ـ هل أنا خداع يا فيركي ؟

ـ نعم أنت خداع ·· بل أنت اكثر من خداع انت كالثعبان ·· ثعبان ببذلة ايطالية وشال حول عنقك ·

ـ ولكني لا ارتدي بذلة الان ؟

ـ ذلك مثال اخر من اساليب خداعك ·· طوال الصيف وانت تستمتع بوقت لذيذ موصلا هذه الصبية الى الدمار ، موقعا اياها بفضيحة الحمل ·· والان أتيت لتتدبر أسلوب الفرار ·

نظرت الى كاترين وابتسمت ، وبادلتني هي الابتسامة ثم قالت ، مخاطبة فيركوسن :

ـ كلانا سيتدبر أمر فراره من وجه الاخر ·

ـ لانكما من طينة واحدة ·· كم أنا خجلة بك يا كاترين ! كاترين ! يا كاترين باركلي ·

ليس عندك حياء ولا شرف ·· خداعة مثله ·

ـ لا يافيركي ، اجابت كاترين مربتة على يدها ·· لاتتهميني هكذا ·· انت تعرفين اننا نحب بعضنا حبا صادقا ·

ـ ابعدي يدك ، صاحت وقد احمر وجهها وزاد تجهما ·· « لو كنت تملكين ذرة من حياء لما وصلت الى هذه النتيجة ، كم شهرا مضى عليك وانت حامل ، وما زلت تعتبرين القضية مرحا وهزلا ·· وملء وجهك الان سرور وابتسامات لان خليلك الوغد قد عاد اليك ·· ليس عندك ذرة من احساس ولا حياء ولا شرف ··

وطفقت تبكي · فاقتربت كاترين منها وعانقتها ، جاعلة ذراعها حول عنقها ، ثم وقفت تريد مواساتها بصورة اقوى ، فتأملت جسدها ·· لم يكن هناك تغير يذكر في قوامها ··

ـ اجلسي ·· فانا لا احفل بك ·· تنهدت فيركوسن ·· اني اعتبرها جريمة نكراء ·

ـ يكفي يا فيركي ··· يكفي · انظري اين نحن ، ستحرجي موقفنا ، لا تبك يا عزيزتي ، ارجوك يا فيركي العاقلة ·

ـ انا لا ابكي · انا لا ابكي الا بسبب الرذيلة الشنيعة التي وقعت في حماتها ·

ورفعت راسها ونظرت الي : ـ اني اكرهك ·· لن تستطع تخفيف كراهيتي لك ، انت الايطالي الامريكي الخداع القذر ·

كانت عيناها وانفها قد احمرا كثيرا من جراء انفعالها الشديد اما كاترين فتطلعت في وجهي وحاولت ان تبتسم تريد منع ثورتي :

ـ لا تبتسمي له وذراعك حول عنقي !

ـ انك تخطئين يا فيركي · فكري فيما تقولين ·

ـ اعرف اني مخطئة ·· ينبغي ان لا تؤاخذاني كلاكما · اني منفعلة جدا · لست على حق فيما اقول · اعرف ذلك ، وارجو لكما السعادة ·

ـ نحن سعيدان يا فيركي الطيبة ، اجابت كاترين ·

ولكنها بدلا من ان تملك نفسها شرعت في البكاء ثانية : ـ انا لا اريد لكما سعادة من هذا النوع · السعادة التي تنال بالطريقة تلك ·· لما لا تتزوجان ؟ ليس عندك زوجة · اليس كذلك ؟ !

وضحكت كاترين ·

ـ لامجال للضحك الان ·· فالعديد منهم يملكون اكثر من زوجة واحدة ·

ـ سوف نتزوج يا فيركي اذا كان هذا يسرك ·

ـ ليس من اجلي ·· ولكن ينبغي ان تتزوجا ·

ـ كنا مشغولين كثيرا كما تعرفين ·

ـ نعم اعرف ·· مشغولين بانجاب الاطفال ··

وصمتت فجاة محدقة بي ، فظننت انها ستنفجر باكية للمرة الثالثة ، ولكنها استمرت في عملية التاديب اللاذعة : ـ لا ريب انك ستذهبين معه هذه الليلة ·

ـ وانا ·· هل تتركيني وحدي ؟

ـ اتخافين البقاء منفردة ؟

ـ نعم اخاف ذلك ·

ـ اذا لن اتركك ..

ـ لا ، استمري في ضلالك بصحبته .. اذهبي واياه فورا .. الان .. انهضا . اني احس بالم شديد من جراء رؤيتكما معا .. انتما الوغدان .

ـ الافضل ان ننهي غداءنا يا فيركي الطيبة ..

ـ لا انصرفا . اقول لكما انصرفا .. هيا .

ـ فيركي تعقلي ..

ـ لا اريد رؤيتكما .. هيا اخرجا !

ولم استطع الاحتمال اكثر ، وشعرت انه من الضروري وضع حد لهذه الحملة المستمرة ، فقلت لكاترين :

ـ دعينا نذهب .

ـ هل رأيت ؟ انت تريد الذهاب من صميم قلبك ، قبل ان نتم غداءنا .. عار عليك ان تصطحبها وتدعاني وحدي . آه ! لقد كانت امنيتي العزيزة، ان اقصد هذا المكان الهادىء البديع ، اروح عن نفسي .. ولكن ، انظـــر ما حدث . آه ..

واغرقت في البكاء للمرة الرابعة ، ثم نظرت الى كاترين ، وغصـــت بمرارة :

ـ لن نتركك . وسأظل معك حتى النهاية اذا كنت تريدين ذلك .

ـ « لا . ابدا . لا تؤاخذني فانا منفعلة كثيرا » .

. . .

ذلك المساء ، عدت الى الفندق الفخم ، وبرفقتي كاترين ، وفي غرفتنـــا الواسعة المطلة على البحيرة ، والمطر يتساقط ضاربا زجاج النافذة بحباته ، والضوء الدافيء ، والسرور المرح يملأ الغرفة ، والسرير المريح باغطيتـــه النظيفة الصوفية ، وشعور العائد الى بيته تطفى علـى قلبينا ، بعيدا عـــن الانفراد بعيدا عن التشرد في ظلام الليل ، بعيدا عن تيار النهر يغالبنـــي واغالبه .. في تلك الليلة ، في غرفتنا الواسعة ، وكـــل احاسيس الحيـــاة السعيدة تنفعل في نفسينا ، نمنا بعد ان تعب جسدانا، وكلما استيقظ احدنا، استيقظ الاخر معه ، كاننا عزمنا ان لا نبقى وحيدين ابدا وان نحارب الفراق معا .

وفي الصباح عندما افقت ، تذكرت اين اكون .

كانت كاترين لا تزال نائمة واشعة الشمس تملأ الغرفة مـــن خلال

النافذة ، والمطر قد انقطع صوته • والسكون الشامل يعم كل شيء ،فنهضت الى النافذة ، ماذا رأيت من خلالها ، وهناك ، على الارض السحيقة ، بدت لناظري اشجار الحدائق ، منتشرة في كل مكان ، عارية من اوراقها ، وهي مع ذلك رائعة جميلة ، تتخللها ممرات الحصباء المتلالئة ، توصل جميعها الى حائط البحيرة الحجري ، ذي الارتفاع القليل ، يقابله من الجانب الاخر ، جبال شاهقة قد ابيضت رؤوسها وقتم لون سفوحها فظهرت هي الاخرى ، رائعة جميلة •

بقيت عند النافذة اسرح الطرف مطمئنا هانئا ، الى ان حانت مني التفاتة للخلف ، فاذا بكاترين مستيقظة تنظر الي :

ـ كيف انت يا حبيبي ؟ اليس هو نهار بديع ؟

ـ كيف انت ؟ هل تشعرين بشيء ؟

ـ اني على ما يرام ، لقد نعمنا بليلة ممتعة •

ـ هل ترغبين في تناول الفطور ؟

ـ نعم •

وكنت ايضا احس بالجوع ، فتدبرت الامر ، كي ناكل ونحن في سريرنا، وبينما نحن نلتهم الطعام بشهية زائدة واشعة الشمس تتلألأ على الصينية النحاسية فوق ركبتي ، سالتني كاترين :

ـ الا تريد صحيفة الصباح ؟ كنت دائما تطلبها وانت في المستشفى ؟ •

ـ لا اريدها الان •

ـ هل الحالة سيئة لهذه الدرجة ، بحيث انك لا تريد القراءة عنها •

ـ نعم •• لا اريد معرفة شيء عنها •

ـ ليتني كنت معك ، لعرفت ماذا جرى !

ـ سوف اخبرك كل شيء اذا قدر لي فهم شيء مما جرى من الوقائع العجيبة •

ـ ولكن الن يقبضوا عليك اذا الفوك قد نزعت ثيابك العسكرية ؟

ـ من المحتمل ايضا ان يقتلوني •

ـ اذا ينبغي ان نغادر ايطاليا فورا • لن ابقى هنا •

ـ هذا ما افكر به •

ـ ينبغي ان نرحل يا حبيبي •• يجب ان لا نركن للظروف • اخبرني كيف استطعت الوصول من مستري الى ميلان ؟ !

ـ بالقطار • كنت في بدلتي العسكرية آنئذ •

ـ الم يكن يهددك اي خطر ذلك الحين ؟
ـ قليلا ·· اني احمل تصريحا قديما بحرية التنقل · وقبل خروجي من مستشفى عالجت تاريخه المسجل ·
ـ يا عزيزي : انك معرض للاعتقال في اية لحظة هنا · وانا لا استطيع احتمال ذلك اذا ما وقع ·· فكر ماذا سيحل بنا اذا قادوك الى السجن ·
ـ دعينا من التفكير بهذه القضية ، فانا مرهق الدماغ بها ·
ـ وماذا ستعمل اذا ما جاءوا لالقاء القبض عليك ·
ـ اطلق النار عليهم ·
ـ اترى كم انت سخيف ؟ ! لن ادعك تخرج من الفندق حتى تغادره نهائيا ·
ـ والى اين ستغادره ؟
ـ ارجوك ·· لا تشرع باغاظتي ·· تصرف تصرفا جديا ·· وانا مستعدة لمرافقتك حيثما تريد ·
ـ سويسرا تقع في الجهة المقابلة ، عبر البحيرة ·
هل تذهب اليها ·
ـ هذا احسن الحلول ·· كما انها فرصة رائعة بالنسبة لنا ·
كانت الغيوم تتجمع خارجا في السماء ، وجو البحيرة يظلم شيئا فشيئا ·
ـ ارجو ان لا نضطر دائما ان نعيش كمجرمين ·
ـ ما هذا التفكير يا عزيزي ؟! لماذا تتكلم هكذا ؟· انت لم تعش تلك الحياة طويلا ولن نحياها بعد اليوم مطلقا ·· وسوف ننعم بوقت جميل في القريب العاجل ·
ـ اني اشعر كالمجرم تماما ·· لقد فررت من سلك الجيش ·
ـ ترو فيما تقول ·· ان عملك لا يعتبر فرارا من الجيش ، لانه جيش ايطالي · فانفجرت ضاحكا مقهقها ، حتى استلقيت على ظهري :
ـ انك فتاة رائعة لذيذة · دعينا نرجع الى النوم ·· لا تشعرين كمجرمة ·· اليس كذلك ؟
فلم تجبني ، بل قامت الى سريري واضطجعت بجانبي ، وبعد فترة قصيرة ، اقتربت من اذني وسالتني هامسة :
ـ الان ·· لا تشعر بانك مجرم ·· اليس كذلك ؟
ـ لا ! يزول عني ذاك الشعور وانا معك ·

ـ انك طفل احمق ·· ولكني ساعتني بك ·· اليس جميلا يا حبيبي ان لا يكون عندي ، في مثل هذا الوقت ، تمريض صباحي ، فلا اضطـــر لمغــادرتك ؟!

ـ جميل جدا ·

ـ انت لا تقدر كم عظيمة هي زوجتك ؟ ولكن لا بأس ·· سأعرف كيف اهيىء لك مكانا لا يستطيعون معه العثور عليك ·· وعندها ستنعم بوقـــت ممتـــع ·

ـ اذا لنذهب اليه فورا ·

ـ سنذهب يا عزيزي ·· انا مستعدة للذهاب اينما شئت ·· في اي وقت تريده !

ـ دعينا من التفكير الان ·

ـ حسنا ·

قصدت كاترين فندق المحطة الصغير ، الذي تقيم فيه فيركوسن بينما جلست انا في البار اقرأ الصحف · لم يكـــن الجيش قد اوقف تقهقره في تكليمانتو ، بل استمر منسحبا الى بيافا ، البلدة المحاطة بالمستنقعـــات ، وبعض التلال ، وكنت قد مررت بها ذات يوم في طريقي الى كوتينيا ·

ودهشت كثيرا كيف يستطيع جيش بعدده وعدته ان ينخفض في تلك الفيافي الموحلة ، وبينما انا ساهم في حيرتي ، وصل المسؤول عن البـــار ، صديقي ، فاقترحت عليه الخروج بنزهة في البحيرة ، لصيد السمـــك ، فوافق قائلا ان بامكانه مرافقتي مدة ساعة فقط ، يعود بعدها الى عمله · ثم لبس معطفه وسار بجانبي قاصدين الشاطىء ، وهناك احضر زورقه الصغير ، فخطونا اليه وبدات انا بالتجديف ، بينما جلس هو في المقدمة مدليا الخيط المفتول ، ذي الصنارة الثقيلة ·

ابحرنا محاذين الضفة ، وعلى بعد مسافة قصيرة ، بدت لنا استرسا باروع مظاهرها بلدة وادعة ساكنة · ثم بلغنا مكانا من الشاطىء تزدحم فيه القوارب ، وحولها رجال يصلحون الشباك فسألني الرجل :

ـ الا ترغب في احتساء كاس ؟

ـ طبعا ·

ارسيت الزورق ، وقفزنا منه الى اليابسة نحو مقهى صغير يقـــوم قرب الشاطىء ، جلسنا الى احدى طاولاته الخشبية العارية طالبين كوبي وسكي ·

ـ هل تعبت من التجديف ؟

ـ لا ··

ـ ساجذف في العودة ···

ـ احب ان اجذف انا ايضا ·

ـ لعلك ان امسكت بالخيط ينقلب الحظ فنرجع ولو بقليل ·

ـ حسنا ·

- اخبرني ، كيف تسير امور القتال ؟
- سيئة ..
- لن اذهب .. لست مضطرا ان احارب .. فانا مسن جدا كالكونت كريفـي .
- لربما اجبروك على الذهاب قريبا .
- السنة القادمة ، سيدعون مواليد العام الذي ولدت فيه ، ولكني لن البـي .
- ماذا ستفعل ؟
- اغادر البلاد .. اني عازم على عدم الاشتراك في الحرب .. يكفيني تلك المغامرة التي حاربت فيها عند ابسينا وانت لماذا اشتركت في الحرب ؟
- لا ادري .. كنت مجنونا .
- هل ترغب في كأس اخر .
- ولم لا ؟

وفي طريق عودتنـــا ، ادليت الخيط في الماء البارد ، وقـام هـو بالتجذيف .

- ينبغي ان اسرع .. حتى اكون امام البار في الحادية عشرة تماما .
- حسنا .

وكنا قريبين من الضفـة تمامـا ، قبالة الفنـدق ، وعندما لامسنـا الرصيف ، ربط زورقه الى احدى الحلقات الحديدية ، وقفـز الى اليابسة . اتبعه انا :

- سأبقيه هنا ، وفي اي وقت تحس برغبتك في الصيد ، فقال تعـال لاعطيك مفتاحه .
- اشكرك جدا .

واتجهت الى غرفتي ، لم تكن كاترين قد رجعت بعد ، فاستلقيت على السرير ، بملابسي ، محاولا الابتعاد عن التفكير ، الا ان كاترين سرعان مـا وصلت واراحتني من عناء النضال ضد فكري القلق .

- فيرگوسن تنتظر في القاعة السفلى ، لقد دعوتها للغداء .. انـي اعرف انك لن تتضايق ..

- طبعا لم يكن عندك ما تعمله فكلما تملكه هو انا..وقد ذهبت بعيدا..
- صحيح .

ـ اني آسفة يا عزيزي ، فانا اعرف كم هي قاسية مؤلمة ، ان يفقد الانسان كل شيء ، فجاة وفي وقت واحد ·

ـ لقد تعودت ايامي ان تكون حافلة بالكثير ·· والان عندما لا تكونين برفقتي ·· احس بفراغ كبير ·· اني لا املك شيئا في هذه الدنيا ·

ـ ولكني سابقى معك · غبت فقط مدة ساعتين ، الم يكن هناك ما يمكن ان تعمله ·· ابدا ؟

ـ ذهبت للصيد برفقة رجل البار ·

ـ الم تسر وتروح عن نفسك ؟

ـ بلى ·

ـ اسمع ، لا تفكر بي عندما لا اكون برفقتك ·

ـ هذا ما كنت افعله وانا في الجبهة ·· ولكن كان هناك الكثير مما يشغلني ·

ـ والان ·· هل ستحاول ان تكون مهذبا ، وتتصرف بلطف مع فيركوسن ·

ـ اني دائما لطيف معها ·· الا اذا شتمتني ·

ـ حسنا ، كن رفيقا بها · فكر الى اية درجة يبلغ حرمانها بينما ننعم نحن بكل شيء ·

ـ لا اعتقد انها ترغب فيما نحن فيه ·

ـ انت لا تفهم طبيعة العذارى ··

ـ اذا ساكون لطيفا معها ·· لطيفا جدا ·

ـ لن تمكث طويلا على كل حال ·· ساعمل للتخلص منها ·

ـ ومن ثم نعود الى هنا ·· اليس كذلك ؟

ـ طبعا ، والا ماذا كنت تظننا سنفعل ؟

· · ·

كانت الانسة فيركوسن ، تجلس في قاعة الفندق الفسيحة ، وقد بدا عليها التأثر الشديد بروعة المكان وفخامته ، جلسنا الى جانبها ، وبينما نحن منهمكين في الاكل ، دخل القاعة الكونت كريفي ، وبرفقته ابنة اخيه ، التي تشبه الى حد كبير ، جدتي ، وبعد ان فرغنا من تناول الطعام نهضنا عن المائدة ، وقد فاض وجه فيركوسن فرحا وسرورا ، اما كاترين فلم يكن من الممكن ازدياد فرحها ·· اذ كانت سعيدة الى درجة بالغة · ودعنا فيركوسن التي قالت انها ترغب في اغفاءة قصيرة بعد الغداء ، وصعدنا الى غرفتنا ··

وفي ساعة متأخرة من ذلك المساء ، سمعت قرعا على الباب : ـ من الطارق ؟
ـ الكونت كريفي يرغب في معرفة ما اذا كنت تقبل دعوته للعب البليياردو .

نظرت الى ساعتي ، وكانت تحت الوسادة . وقبل ان اتأملها بادرتني كاترين :

ـ هل من الضروري ذهابك ؟

كانت الساعة تشير الى الرابعة والنصف .

ـ اخبر الكونت اني ساكون في غرفة البليياردو في تمام الساعة الخامسة .

وعند الساعة الخامسة الا ربعا قبلت كاترين ناهضا من السرير ، واتجهت الى غرفة الحمام لارتداء ملابسي .

ـ هل ستغيب طويلا ؟

فالتفت نحوها ، كان منظرها مستلقية فوق السرير ، جذابا فاتنا ، ورأتني انظر اليها :

ـ هل تناولني المشط .

فناولتها اياه ، ورحت اتأملها وهي تمشط شعرها ، تهدله كله جانبا ، ثم تضمه بيدها خصلة كبيرة واحدة ، وترفعه عن عنقها ، والضوء الخافت من اعلى السرير ، ينعكس عليه فيحيله لألاء رائعا ، ويضفي على عنقها وكتفيها العاريين منظرا ساحرا . لم اتمالك نفسي ورجعت ادراجي صوبها ، وامسكت بيدها ، والمشط ما يزال بين اصابعها ، ثم القيت برأسها على الوسادة وانحنيت فوقها اقبل عنقها ووجنتيها وعينيها واعلى كتفيها شاعرا اني اكاد اغمى من شدة هيامي بها :

ـ لا اريد ان اذهب ! لن اذهب .

ـ وانا لا اريد ان تذهب .

ـ اذا لن اذهب .

ـ بلى ، اذهب ولكن لا تغيب طويلا .

هيا ، لترجع عاجلا .

في غرفة البليياردو ، وجدت الكونت كريفي ينتظرني ، كان يبدو مرحا رغم سنه التي تتجاوز المائة عام ، وبعد عبارات اللقاء القصيرة ، بدأنا اللعب، واستطاع منذ الجولة الاولى ان يغلبني ، ثم جلسنا نتجاذب اطراف الحديث، وسألني عما اقرأ . فاخبرته اني اقتصر على قراءة الصحف وان النتاج

الادبي والفكري قد تضاءل ايام الحرب ·

ـ اذا انت لم تقرأ المؤلف الجديد : « السيد بربلنغ يرى خلالها » ·

ـ لا ، لم ير !

ـ ماذا ؟

ـ لم ير خلالها ، فقد قرأت الكتاب وانا في المستشفى ·

ـ قرأته ؟

ـ نعم ، ولكن لم اخرج منه بشيء ·

ـ كنت اظنه يعكس روح الطبقة الانجليزية الوسطى !

ـ انا لا افهم شيئا عن الروح ·

ـ ايها المسكين ·· كلانا لا يفهم بمسائل الروح اذا ·· هـل انت واقعي متطرف ؟

ـ في الليـــل ·

فابتسم ابتسامة عريضة :

ـ كنت اتوقع ان اصبح تقيا كلما تقدمت في السن ، ولكن لم يحـدث شيء من ذلك ، الامر الذي يؤلمني كثيرا ·

ـ الظاهـــر انك ترغب في الحياة بعد الموت ؟ سالتـه · وفي الحـال احسست ان لفظة الموت لم تكن مناسبة ، على انه كما تبينت ، لم يلتفـت لوقعها واجابني :

ان ذلك يتوقف على نوع الحياة ، فالحياة ممتعة جدا ·· جميلـة ·· مؤنسة ·· اني ارغب ان احياها حتى النهاية ، ثم ابتسم مردفا ، وان كنت قد اشرفت على نهايتها ·· واذا قـــدر لك ان تعيش العمر الذي عشته ، فسترى امورا غريبة كثيرة ·

ـ ولكن مظهرك لا يدل على تقدمك في السن ·

ـ جسدي هو المسن ، حتى اني اخاف ان ينكسر اصبعي كما ينكسر اصبع الطبشور ·· على ان روحي ليست اكبر سنا من المعتاد ·· كما انهـا ليست اكثر حكمة وتعقلا ·

ـ ومع ذلك فانت حكيم ·

ـ لا ، تلك هي الاكذوبة الكبرى : « حكمة الشيوخ » ·· ان الشيوخ لا يزدادون حكمة بل خوفا وحذرا ·

ـ ولربما كانت تلك هي الحكمة ·

ـ الا انها حكمة غير مستحبة ابدا ·

ـ ما هو اعز شيء لديك ؟٠

ـ انسان احبه ٠

ـ وانا كذلك ٠

ـ هل الحياة عزيزة عليك ؟

ـ نعم ٠٠

ـ وكذلك انا فهي كل ما املكه ٠

ـ كيف تنظر الى هذه الحرب ؟

ـ انها حماقة مطلقة ٠

ـ من سيكون الرابح في اعتقادك ؟

ـ ايطاليا ٠

ـ لمــاذا ؟

ـ لانها امة فتية ٠

ـ وهل الامم الفتية تربح الحرب دائما ؟

ـ نعم ، تظل كذلك فترة شبابها ٠

ـ وماذا يحدث بعدئذ ؟

ـ تصبح امة مسنة ٠

ـ قلت انك لست حكيما ٠٠ وها انت ٠

ـ هذه ليست حكمة يا بني ، بل تهكما واستهزاء ٠

ـ ولكنها تظهر حكمة بالنسبة لي ٠

ـ حسنا ، ارجو لك ان تعيش طويــلا ، وعندها آمل ان تصبــح رجلا صالحا ٠

ـ طالما رجوت ان اصبح تقيا ٠٠ ولكنني لم استطع الا في الليــل ٠٠ حيث تنتابني هاتيك الاحاسيس ٠

ـ انت واقع في حب اذا ٠٠ مهما يكن لا تنس ان الحب مظهــر من مظاهر الدين الاصلية ٠

ـ هل تعتقد ذلك ؟

ـ طبعــا ٠

ونهض مادا يده لوداعي ، فحييته وانصرف ٠

استيقظت تلك الليلة على هدير العاصفة الماطرة ، وكانت حبات المطر الكبيرة تصدم مصاريع النوافذ الخشبية ، ثم سمعت قرعا على البـــاب ، فنهضت بخفة ، ومشيت على اطراف اناملي ، لئلا تستيقظ كاترين ، وعندما فتحت الباب ، رأيت رجل البار ، يقف على عتبته ، وقبعته المبلـلة بيـــده ومعطفه السميك يقطر ماء ٠

ـ هل باستطاعتي التحدث اليك قليلا ايها الليوتنان ٠

ـ ما القضية ؟

ـ انها مسالة هامة جدا ٠

فتطلعت حولي ، كانت الغرفة مظلمة ، وصوت المطر ما يزال قويا ٠

ـ ادخل ، وقدته الى الداخل ، موصدا بابه علينا ، ثم اشعلت الضوء٠

ـ ماذا في الامر يا اميليو ؟ هل انت في مأزق ؟

ـ لا ، انت !

ـ انـا ٠

ـ سوف يلقون القبض عليك ٠

ـ مـاذا ؟

ـ جئت لاخبرك ، فقد سمعتهم يتحدثون عنك في المقهى ، قريبـــــا من الفنـدق ٠

ـ فهمـت ٠

ظل واقفا مكانه لا يبدي حراكا ، وقبعته المبللة في يده :

ـ لماذا سيلقون القبض علي ؟

ـ لامر يتعلق بالحرب ٠

ـ هل عرفت ماهيته ؟

ـ لا ، ولكن عرفت انهم كانوا قد رأوك هنا سابقا ، بملابس ضابط حربي ، بينما انت الان ترتدي الثياب المدنية ٠٠ بعد هذا التقهقر المريع ، راحوا يلقون القبض على كل انسان ٠

فكرت هنيهة ثم سألته :

ـ ومتى سينفذون خطتهم ؟
ـ صباحا ، لا اعرف بالضبط ٠
ـ ما الذي ترتئيه !
فوضع قبعته على المغسلة ٠
ـ اذا لم يكن هناك ما تخشى عليه ، فالسجن ليس امرا هاما ، رغم انه من المشين في كل زمان ، ان يساق المرء للسجن ، ولا سيما في هذه الايام ٠
ـ لا اريد ان اسجن ٠
ـ اذا عليك بالذهاب الى سويسرا ٠
ـ كيف ؟
ـ في زورقي ٠
ـ والعاصفــــة ؟
ـ انتهت ٠٠ الرحلة قاسية ، ولكنك ستكون في مأمن تام ٠
ـ ومتى ينبغي الاقلاع ؟
ـ حالا ، فلربما جاؤوك باكرا جدا ٠
ـ وحقائبنا ؟!
ـ احزمها جيدا ٠٠ ولتستعد زوجتك ٠
ـ واين ستنتظرنا ؟
ـ هنا ٠٠ فانا لا اريد ان يلمحني احد في القاعة ٠
فاغلقت باب الحمام عليه ، واسرعت الى سرير كاترين اريد ايقاظها ، ولكنها كانت قد سبقتني الى ذلك :
ـ ماذا في الامر يا عزيزي ؟
ـ لا شيء ، هل ترغبين في ارتداء ملابسك الان والسفر الى سويسرا على زورق ؟ ـ هل ترغب انت ؟
ـ لا ، افضل البقاء في السرير ٠
ـ ولكن ما القضية ؟!
ـ اخبرني رجل البار انهم سيلقون القبض علي صباحا ٠
ـ امجنون هو ؟!
ـ لا ٠
ـ اذا ارجوك ان تسرع وترتدي ملابسك كي تغادر فورا ٠
ونهضت من السرير ، والنعاس ملء عينيها ٠
ـ هل رجل البار ذاك الذي في الحمام ؟
ـ نعــم ٠

ـ اذن لن اغسل ٠٠ ارجوك ٠ انظر هنالك في الجهة المقابلة وسالبس في دقيقة واحدة ٠

على اني لم اغير من وقفتي ، وتأملت ظهرها الابيض ، وهي تنزع قميص نومها ، ثم وجهت نظري بعيدا ٠٠ لانها تريد ذلك ، كان بطنها قد بدأ في التضخم من جراء الحمل ، ورغم هذا فقد ازداد جسدها جمالا واتساقا ٠

لم اكن املك الكثير لحزمه داخل الحقيبة ولذلك ، فما ان وضعت اغراضي القليلة ، حتى قلت لكاترين :

ـ عندي متسع كاف اذا كنت تريدين وضع شيء في حقيبتي ٠

ـ كل اغراضي مهيئة في حقيبتي ٠٠ ولكن ماذا يفعل رجل البار داخل الحمـــام ؟

ـ صه ٠٠ ينتظرنا لحمل الحقائب الى الزورق ٠

ـ انه انسان طيب جدا ٠

ـ وهو من اصدقائي القدامى ٠٠ لقد ارسلت له علب سجاير ذات يوم ٠

قلت ذلك ونظرت عبر النافذة المفتوحة ، فلم اتمكن من رؤية البحيرة ، وكل ما رأيته هو الظلمة الدامسة والسكون الشامل ، الا ان الريح قد خف عصفها فعلا ، وانقطع نزول الامطار ٠

ـ ها ، انني مستعدة يا عزيزي ٠ ـ حسنا ٠

ودخلت غرفة الحمام : ـ اليك بالحقيبتين يا اميليو ٠

فتناولهما مسرعا بينما تبعته كاترين الى الباب : ـ انت انسان طيب جدا ، سنشكر لك معروفك هذا ؟

ـ ليس ما يدعو للشكر يا سيدة ٠٠ انني سعيد بسنوح الفرصـــة لخدمتكما ٠٠ خصوصا انه لن يلحق بي اي ضرر ٠ اسمع والتفت نحوي :

ـ سأحمل هاتين الى الزورق مباشرة ، من باب الخدم الخلفي ، بينما تخرجان انتما من الباب الرئيسي ٠٠ تماما كما لو انكما ذاهبان في نزهة قصيرة ٠

ـ والواقع انها ليلة فاتنة ، تصلح للنزهة ، قالت كاترين ٠

ـ لا ، انها سيئة للغاية ٠ ـ ولكني سعيدة لاني املك مظلة ٠

نزلنا الى القاعة ، على السلم ذي السجاد العريض ، وعند اسفله كان يجلس الحاجب ، الذي نظر الينا دهشا ٠

ـ لن تبعدا يا سيدي ٠٠ اليس كذلك ؟

ـ لا ٠ فقط نريد مشاهدة العاصفة وهي تسكن ٠

ـ اليس معكما مظلة يا سيدي ؟

ـ لا ٠ هذا المعطف يمنع تسرب الماء ، فرمقه مرتابا ـ سأجلب اليك

مظلة ، انتظرني هنيهة يا سيدي ، وبالفعل ، عاد بعد قليل يحمل واحدة كبيرة وعندما ناولني اياها نقدته ١٠ لير فاخذها شاكرا وفتح لنا الباب ، فخرجنا كلانا تحت المظلة الكبيرة بينما صاح هو :

ـ لا تمكثوا طويلا في العاصفة ٠

ـ فقط بضع دقائق ٠٠ نعود بعدها سريعا ٠

عبرنا الطريق الرئيسية الى ضفة البحيرة ، باتجاه المرساة ، حيث يربط الرجل زورقه ، وعندما لمحنا قفز من بين الاشجار :

ـ حقيبتاكما في الزورق ٠

ـ كم تريد من اجله ؟

ـ كم تحمل من النقود ؟

ـ ليس كثيرا ٠

ـ اذا ارسل لي ثمنه فيما بعد ٠٠ ـ كم ؟

ـ اذا استطعتما الوصول بسلامة ، ارسل لي خمسة الاف فرنك ذلك لن يؤثر عليك اذا ما نجوت ٠ ـ حسنا ٠

ـ اليكما ببعض السندويش هذه ٠٠ وناولني رزمة ، « انها كل ما وجدته في البار » ، وهاتين القارورتين ، من احسن انواع الخمر فاخذتهما من تحت ابطه ووضعتهما داخل الحقيبة : هذه استطيع دفع ثمنها لك ٠

ـ لا بأس ، اعطني ٥٠ لير ، فدفعتها له واردف هو :

ـ احداهما وسكي من النوع الجيد ٠٠ لا تخشى منها على زوجتك ٠٠ فمن المستحسن ان تجرع قليلا منها وانتما في عرض الماء ٠

ساعدت كاترين على الانتقال من اليابسة الى الزورق ، فجلست على مؤخرته ، لافة عباءتها حول جسدها باحكام ٠

ـ تعرف كيف تتجه ؟ ـ شمالا ٠

ـ وتعرف المسافة ؟

ـ بعد بلدة لوينو ٠

ـ ستتجاوز لوينو وكانرو وكانوبيو وترانزانو ، ولن تبلـــغ ارض سويسرا حتى تصل الى برساكو بعد ان تتجاوز رأس تامارا ٠

ـ كم الساعة الان ؟ سألت كاترين ٠

ـ انها الحادية عشرة فقط ٠ اجبتها ٠

ـ اذا استمررتما في التجذيف ، فستصلان برساكو حوالي السابعـة صباحـــا ٠

- أبعيدة هي لهذه الدرجة ؟!
- خمسة وثلاثون كيلومترا .
- وكيف نستطيع توجيه الزورق خلال هذا المطر ؟ لا بد لنا من بوصلة .
- سر باتجاه اسولا بيلا ثم انعطف مع الريح التي توصلك الى بالانزا، وعندما تظهر الاضواء ، اتجه صوب الشاطىء ، وجذف محاذيا له .
- واذا ما تغير اتجاه الريح ؟!
- لا ، هذه الريح تستمر في وجهتها هذه ، ثلاثة ايام اخر . انا واثق من ذلك .
- دعني انقدك الان جزءا من ثمن الزورق .
- لا افضل انتظار الفرصة ، حتى اذا ما نجحت الرحلة ، تدفع لي قدر ما تستطيع .
- حسنا .
- فانا لا اعتقد انك ستغرق .
- رائع .
- رافق الريح شمالا .
- كما تقول .
وخطوت الى الزورق .
- هل تركت اجرة الفندق ؟
- نعم ، داخل مغلف في غرفتي .
- حسنا .. حظا سعيدا ايها الليوتنان .
- اشكرك كثيرا .
- لن تشكرني اذا ما غرقت .
- ماذا يقول ؟ هتفت كاترين .
- يقول حظا سعيدا .
- حظا سعيدا .. فشكرا كثيرا ، صاحت تودعه .
- هل انت على استعداد للتحرك ؟
- نعم .
فانحنيت منزلا طرفي المجذاف في الماء ، ثم ادرت وجهي ولوحت للرجل بيدي ، مودعا اضواء الفندق الكبير ، والغرفة النظيفة الواسعة ، ثم جلست وتابعت التجذيف حتى بعدت الاضواء على ناظري ، وكنا نجري بسرعة واتزان تساعدنا الريح المؤاتية ، الى اقصى حدود المساعدة .

كانت ليلة مظلمة جدا والمطر غزيرا متواصلا ، وانا اجذف باستمرار انحني ثم انهض ثم ادفع ، وكنت اعرف ان راحتي سينسلخ جلدهما ، واحاول تأخير ذلك اطول مدة ممكنة .

كان الزورق خفيفا يندفع مسرعا ، فأملت ان نصل بانزا عاجلا ، ولكننا لم نرها ابدا ، اذ تجاوزناها ، والظلمة الحالكة تلفها جميعها ، وعندما شاهدنا الاضواء البعيدة ، عرفنا انها انترا وانقضت فترة طويلة اخرى ، لم نلمح خلالها ضوءا ولا اثرا . وكنا نسير بعيدين عن الشاطىء ، الى ان فاجأتنا قمة صخرية داخلة في الماء ، ترتطم امواج البحيرة بسفحها كسيفة هزيلة . وغيرت اتجاه القارب حتى غابت عن انظارنا .

– نحن الان في وسط البحيرة ، قلت لكاترين .

– الن نرى بالنزا ؟ – لقد اخطأنا موقعها .

– استطيع ان آخذ المجذاف عنك لفترة قصيرة .

– لا ، انني مرتاح الان .

– يا لفيركوسن البائسة ، ستأتي الى الفندق في الصباح فلا تجدنا .

– لست متألما كثيرا من اجلها ، كلهفتي لدخول المياه السويسرية قبل ضوء النهار حتى لا يرانا ضباط الجمارك .

– هل نحتاج لوقت طويل حتى نبلغها ؟

– انها حوالي الثلاثين كيلومترا من هنا .

ظللت اجذف طوال الليل ، حتى لم اعد احتمل آلام يدي ووضعت المجذاف جانبا ، بعد ان كدنا نرتطم بصخور الشاطىء ، بحيث استطعنا تمييز صفوف الاشجار والطرقات .

ثم اقتربنا من نقطة على الشاطىء تكثر فيها الاضواء ، فاعتقدت انها لا بد ان تكون بلدة لوينو ، واذا كان الامر كذلك فهذا يعني اننا قطعنا مسافة لا بأس بها ، وهكذا وضعت المجذافين واستلقيت على ظهري ، انشد الراحة . لقد كنت مرهقا جدا .

ـ ساعيد نشر المظلة الكبيرة ، فبأمكاننا الابحار بواسطتها ٠
ـ هل تستطيعين توجيه دفة القارب ؟
ـ اعتقد ذلك ٠
ـ ضعي المجذاف تحت ابطك ، ووجهي الدفة ، ودعيني احمل المظلة عنك ثم بينت لها كيف تستعمل المجذاف ، آخذا المظلة من يدها ، وما ان نشرتها حتى اندفع الزورق الى الامام بسرعة ظاهرة ٠

دفعنا اماما ، الا ان المظلة لم تقو بعد دقائق ، على مقاومة الريح فانحنت قضبانها المعدنية الى اعلى ، وانقلب وضع قماشها السميك فحاولت جاهدا ان اصحح وضعها ولكن دون جدوى ٠ نهضت الى كاترين لآخذ المجذاف عنها ، فوجدتها تكاد تغشى من الضحك ، ثم امسكت بيدي وهي مستمرة في ضحكها ٠

ـ ما القضية ؟
سالتها وانا اتناول المجذاف منها :
ـ منظرك جميل جدا وانت تغالب المظلة المقلوبة ٠
ـ اظن ان ذلك صحيحا ٠
ـ لا تتضايق يا عزيزي فالحقيقة انها صورة مضحكة واغرقت في الضحك ٠
ـ ارتح قليلا ، واجرع بعض الخمر ٠٠ وقد قطعنا مسافة طيبة ٠
ـ ينبغي الابتعاد بالزورق عن مرمى الأمواج ٠
ـ حسنا ، ساجلب لك قارورة الويسكي ٠

استانفت العمل الشاق ، بينما عالجت هي فتح الحقيبة ، مخرجة قارورة الويسكي ، وناولتني اياها فجرعت جرعة طويلة ٠ وسرى المشروب في امعائي ، فشعرت بالدفء يغمر كل جسدي واحسست بعدها بالنشاط يعاودني مجددا ٠

ـ هل تشعرين بالبرد يا كات ؟
ـ لا ، وانما اخشى التيبس نتيجة الجلوس وعدم الحركة ٠
ـ الا تريدين اكل شيء ؟
ـ الان ، لا ، ساوفر الطعام حتى نجوع ٠
ـ حسنا ٠

ظهر القمر ثانيا بعد ان حجبته الغيوم ، وخشيت ان يتمكن حرس الشواطيء من اكتشاف قاربنا ، فابتعدت عن الضفة ، باذلا جهدا اكبر في

التجذيف ، مدركا اننا قطعنا شوطا كبيرا ·
ـ كيف انت يا كات ؟
ـ على ما يرام · لا تقلق من اجلي · اين نحن الان ؟
ـ اظن انه ليس امامنا اكثر من ثمانية اميال ·
ـ انها مسافة طويلة ·· ستتعب من التجذيف يا حبيبي المسكين · الم تخر قواك ؟ ـ لا ، كل ما هنالك ان يدي تؤلمانني ·
واستمررنا في الاتجاه شمالا ، وبدت لنا على الضفة اليمنى فتحة في الجبل ، اعتقدت ان كانوبيو تقع فيها ، فانعطفت الى الداخل ، واثقا ان حرس الشواطىء يكثرون في جوار الحدود على اني احسست بتعب شديد ، ورغم ان المسافة المتبقية لدخول المنطقة السويسرية لم تكن تتعدى الاميال الخمسة ، الا اني كنت احس انها ما زالت طويلة ، ومرهقة جدا ·
ـ دعني اجذف قليلا ·
ـ ليس من الضروري ان تتعبي نفسك ·
ـ بلى · ان ذلك يجنبني الاستمرار فيهذه الجلسة المضنية ·
ـ لا اعتقد ان التجذيف يمكن ان يفيدك ·
ـ خطأ · التجذيف المعتدل مفيد جدا للحامل ·
ـ حسنا ، جذفي ولكن باعتدال ريثما ارتاح قليلا ·
وشرعت تجذف ، الا ان طول المجذاف كان يضايقها ولكنها استمرت دون التفوه بكلمة ·
فتحت الحقيبة واكلت قطعتين من السندويش ثم جرعت قليلا من الويسكي :
ـ اخبريني عندما تشعرين بالتعب ·
واردفت بعد قليل :
ـ انتبهي لئلا يلطمك المجذاف في بطنك ·
ـ « اذا ما تأثير ذلك » ، قالت وهي تجذف : فالحياة يمكن ان تصبح اقل تعقيدا بالنسبة الي ·
شربت جرعة من الويسكي : ـ كيف تحسين !
ـ على ما يرام · ـ اخبريني عند التعب · ـ حسنا ·
وشربت جرعة ثالثة ، ثم نهضت وتناولت المجذاف من يدها ·
ـ لماذا ؟ اني اجذف كما ينبغي ·
ـ ينبغي ان ترجعي الى مكانك · فلقد اخذت قسطي من الراحة ·

هدأت الريح قبيل الفجر ، وادركت انه من الضروري بذل كل قواي ، لئلا تفضحنا انوار الصبح ، ودون ان اعرف النقطة التي بلغناها ، عبأت كل جهدي واندفعت اجذف كالمحموم وما ان انبلج النهار حتى الفينا القارب يسير قريبا جدا من الشاطىء ، بحيث انا نكاد نلمس شفافه الصخرية .

ـ ما هذا ؟ همست كاترين .

اوقفت التجذيف واصخت السمع .

كان هناك صوت زورق بخاري يمخر البحيرة ، فادنيت القارب من صخور الشاطىء ، وانقطعت عن كل حركة ، بينما هدير الزورق البخاري يقترب منا ، ثم لمحناه يسير باتجاه معاكس ويتجاوزنا ، وعلى مقدمته ، جلس اربعة من حرس الحدود ، ظهر النعاس على عيونهم جميعا ، فانتظرت حتى غاب عن الانظار وعدت الى وسط الماء . عارفا بقرب نهاية الرحلة .

وبقينا ثلاثة ارباع الساعة ، لا نسمع صوتا ، ولا نرى شيئا معينا ، الى ان ارتفع ثانية هدير زورق بخاري اخر ، فلذنا بالصمت مجددا حتى تلاشى الصوت .

ـ اعتقد اننا دخلنا المنطقة السويسرية يا كاترين .

ـ اذا كنا حقا دخلناها ، فلنرس لنتناول فطورا دسما .. فهم يملكون خبزا من النوع الجيد الابيض وزبدة وفواكه .

كان ضوء النهار قد عم ، وظهرت لنا مباني قرية رابضة على الشاطىء ، اكد طابعها الخارجي اعتقادي في كوننا ضمن الحدود السويسرية وبينما نحن نتامل طريق القرية الرئيسي ، وصفي الاشجار القائمين على جانبيها ، لمحت جنديا يخرج من احد المقاهي ، ويضع على رأسه قبعة كتلك التي يضعها الجندي الالماني فاوعزت الى كاترين ، ان تلوح له بيدها ولما فعلت ، بادلها التحية مبتسما .

ـ لا بد اننا تخطينا الحدود بمسافة كبيرة .

ـ ينبغي ان نتأكد يا عزيزي ، فنحن لا نريدهم ان يقدموا على ارجاعنا عند الحدود . ـ الحدود خلفنا بمسافة كبيرة ، واظن ان هذه ، مركز رجال الجمارك .. اني واثق تماما .. انها برساكو .

ـ اذن يوجد ايطاليون فيها ، فرجال الجمارك يجتمعون عادة مع زملائهم من البلد المجاور ، في نقطة واحدة ، ليس في زمن الحرب .. ولا اظنهم يسمحون للايطاليين باجتياز حدودهم .

كانت بلدة جميلة المظهر ، وعلى مدى خليجها الصغير ، انتشرت قوارب

الصيد امامها ، الشباك مفروشة فوق الصخور .

– هل نرسو لنتناول فطورنا ؟ لا بأس .

ودنوت من رصيف الخليج ، ممسكا باحدى الحلقات الحديدية ، رابطا الزورق اليها ، ثم قفزت الى اليابسة ، وساعدت كاترين على الانتقال اليها .

– هلمي يا كات ، فان احساسا هائلا يجتاحني .

– وماذا عن الحقيبتين ؟ – دعيهما في الزورق . – اي بلاد جذابة ؟

– حقا .. اليست رائعة ؟ – لنتناول فطورنا اولا .

– اليست بلادا رائعة ؟ اني اتحسس حتى الارض التي لم تطاها قدماي .

– ان قدمي متيبستان .. ولا استطيع التحسس بهما يا عزيزي ، هل انت واثق اننا في سويسرا ؟ . بعيدا عن تلك البلاد الدامية .

– نعم . واثق . لم اكن واثقا بشيء في حياتي كما انا الان .

– انظر الى البيوت .. كم هي جميلة .. وهذا اليس ميدانا رائعا ؟! انظر . ان على جانبه مكان يمكننا تناول الفطور داخله .

– انظري . اليس المنظر جميلا . ليس عندهم مطر كهذا في ايطاليا .. مطر منعش .. يبعث السرور في النفس .

– هل نحن يا عزيزي في سويسرا ..
ولكن هل تحققت تماما ؟

دخلنا المقهى الصغير ، في جانب الميـــدان ، وجلسنا على طاولة خشبية نظيفة ، وامارات التأثر والانفعال بادية على وجهينا .. واقتربت منا امـرأة جميلة تلبس « صدارة » بيضاء نظيفة ، وسالتنا عما نشتهي ؟

– قشدة وقهوة وفاكهة مجففة ، طلبت كاترين .

– آسفة ، ليس عندنا قشدة في زمن الحرب .

– خبز اذا .

– بامكاني اعداد بعض الفطائر الشهية لكما .

– حسنا ، واريد بيضا مقليا كذلك .

– وكم بيضة تبغي ايها السيد ؟

– ثلاث .

– خذ اربعا يا عزيزي . – اربعا .

وانصرفت المرأة ، فقبلت كاترين ، قابضا على يدها باحكام ثم رحنـــا ننظر في عيني بعضنا ، وفيما حولنا .

– عزيزي .. عزيزي .. اليس كل شيء رائعا ؟

– كل شيء فاخر عظيم .

– لم اتأثر لعدم وجود قشدة ، رغم اني حلمت بها طول الليل . ومع ذلك لم اتأثر ابدا .

– اظن انهم سيلقون القبض علينا سريعا .

– لا بأس يا عزيزي ، لنتناول الفطور اولا .. ولن يهمك بعدئذ ان يلقى القبض عليك ، بالاضافة الى انهم لا يستطيعون عمل شيء ضدنا .. فنحن : امريكي وانجليزية ، في موقف لا غبار عليه .

– تحملين جوازا اليس كذلك ؟

– طبعا ، ولكن دعنا من هذه القضية الان . لئلا يعكر صفو هنائنا .

ومرت في هذه الاثناء ، على ارض المقهى ، قطة ذات شعر ناعم اسود ، واتجهت نحوي ، فانحنيت ، ورحت اداعب شعرها بانامل ، وكان منظري ذاك اطرب كاترين كثيرا ، فنظرت في عيني ، ووجهها يطفح بشرا وجمالا .

– ها قد حضرت القهوة .

. . .

كان الحياة لها علي ثارات ، فلم نكد ننتهي من الفطور ونخرج في جولة بين شوارع القرية النظيفة ، متجهين ناحية الخليج لجلب حقيبتنا ، حتى استقبلنا عند الزورق ، جندي يحمل بندقية ، كان بانتظارنا :

– هل هو زورقكما ؟ – نعم . – من اين قادمان .

– عبر البحيرة . – اذا اني مضطر لاطلب اليكما مرافقتي .

– والحقائب ؟ بامكانك حملها .

وحملت الحقيبتين ، وسارت كاترين بجانبي والجندي ، يتبعنا ، مشيرا بين الفينة والاخرى ، الى الطريق التي ينبغي ان نسلكها ، حتى بلغنا بناية الجمارك العتيقة ، وهناك استجوبنا اللفتنانت ، كان نحيف البنية .

– جنسيتكما ؟ – امريكي وانجليزية . – جوازا سفركما ؟

فقدمناهما له ، وبعد ان دقق النظر بهما طويلا ، سأل :

– لماذا جئتما الى سويسرا عن هذه الطريق ، في زورق ؟

– انني رياضي ، والتجذيف هوايتي المفضلة استغل كل فرصة لممارستها .

– ولكن لماذا قصدتما هذه الناحية بالذات ؟ – لرياضة الشتاء .

– ليس هذا هو المكان المقصود .

ـ وماذا كنتما تفعلان في ايطاليا ؟
ـ كنت ادرس الفن المعماري ، بينما ابنة عمي كانت تتابع دروسا في الرسم .
ـ ولماذا غادرتماها اذا ؟ ـ عندما تكون الحرب مستمرة ، لا يسع المرء ان يتابع دراسته كما يجب . ـ ارجوكما الانتظار قليلا .
وسار بالجوازين خارجا ، بينما التفتت كاترين نحوي :
ـ انت رائع جدا يا عزيزي ، استمر في هذه الخطة ، جئنا من اجل رياضة الشتاء . ـ هل تعرفين شيئا عن فن الرسم ؟
ـ اعرف الفنان روبنس . ـ ، سمين ، وضخم الجثة .
ـ وتبتيان . ـ ذو الشعر الكثيف ، وماذا عن مانتكنا ؟
ـ لا تصعب اسئلتك ، ها اعرف انه معقد جدا . ـ نعم ، معقد جدا .
ـ هل ترى ، اني اقوم بدوري كزوجة ناجحة ، سوف اكون قادرة على التحدث في موضوع الفن مع اصدقائك . ـ صه ، ها هو .
ودخل اللفتنانت النحيف يحمل الجوازين بيده :
ـ سأكتبه لك على بطاقة خاصة قدمها لي في الحال .
ـ سيرافقكما الجندي الى لوكارنو حاملا جوازيكما .. اني آسف لهذه الاجراءات ، ولكنها ظروف الحرب .
ـ على كل حال ستمنحان تاشيرة الدخول وتصريحا بالاقامة .
ثم ناول الجوازين لجندي ، كان يقف في الغرفة المجاورة ، بينما حملت انا الحقيبتين ، وخرجنا نبحث عن عربة .
ثم خاطب الجندي ببعض الكلمات الالمانية ، فوضع هذا بندقيته وراء ظهره ، وتناول الحقيبتين من يدي .
ـ بلاد رائعة ، قلت لكاترين ثم التفت الى اللفتنانت .
ـ اشكرك كثيرا .
ـ على الرحب والسعة .
جلس الجندي الى جانب السائق ، واتجهت العربة بنا الى لوكارنو ، وهناك سارت الامور حسنا ، فقام اثنان من الضباط باستجوابنا ، وكانا مهذبين جدا وقد يكون ذلك عائدا لكوننا نحمل الجوازين ونقودا .
ولكن الامر جرى كما تسير الامور عادة في قاعات المحاكم حيث لا يحتاج المرء الى حجج المنطق وسلاح الحق ، وهكذا حصلنا على سمة الدخول واذن بالاقامة كي يتاح لنا صرف نقودنا ، رغم انهم اشترطوا علينا اخبار

دوائر الامن في كل مكان نتوجه اليه ٠

ـ وهل نستطيع الذهاب حيثما نريد ؟

ـ نعـم ٠

ـ اين تريدين الذهاب يا كاترين ؟

ـ الى مونتكس ٠

ـ مكان رائع جدا ٠

ـ وهنا ، في لوكارنو مجال واسع جذاب في كل ايام السنة ٠

ـ نريد المكان الذي نستطيع به ممارسة الرياضة الشتوية ٠

ـ لن تستطيعا هذا الامر في مونتكس ٠

ـ ارجوك ، قاطعه الضابط : انا قادم من مونتكس وهناك رياضـة شتويـة ٠

ـ انا لم انكرها ٠

والتفت الضابط الاخر الي وسألني :

ـ هل التزلج غايتك من رياضة الشتاء ؟ هنا في لوكارنو ستجـدان المناخ صحيا ، والضواحي جميلة فتانة ، ستحبانها للغاية ٠

ـ لقد عبرت السيدة عن رغبتها في الذهاب الى مونتكس ٠

ـ وما هو التزلج ؟ سألتها :

ـ هل رأيت ؟ هتف الضابط الثاني : انه لم يسمع بهذا النوع مـن الرياضـة !

كان سؤالي تاييدا لموقفه ، فبدا السرور عليه ، بينما اجاب الاول على سؤالـي :

ـ التزلج هو الانزلاق الجماعي ٠

ـ ارجو السماح لي ٠

كرر الثاني : اريد ايضاح الحقيقة مرة ثانية : ان التزلج غير الانزلاق الجماعي ، فلقد ابتدع هذا في كندا ، حيث استعملوا له الالواح الخشبيـة للمرة الاولى ، اما التزلج فهو الانزلاق الفردي ٠

ـ وهل نستطيع ممارسة الانزلاق الجماعي ؟

وجهت سؤالي بصفة عامة ٠

ـ ولم لا ؟ تستطيع ذلك ، اجابني الاول ٠٠ فادوات الانزلاق الكندية الفاخرة كثيرة في مونتكس ؛ وبامكانك شراءها من محلات اخس اخوان ٠

فاشاح الضابط الثاني بوجهه ..

ـ الانزلاق الجماعي .. انه يحتاج الى حلبة خاصة .. فكيف ستمارسانه في شوارع مونتكس .. اين تقيمان الان ؟

ـ لست ادري .. قادمان رأسا من برساكو في تلك العربة انظر انها تنتظرنا هنالك . ـ لن تخطئنا في الذهاب الى مونتكس .

ردد الضابط الاول : فالمناخ ممتع جميل . وامكنة الرياضة قريبة جدا من غرف السكن . ـ اذا كنتما ترغبان في رياضة حقيقية .

صاح الثاني : فليس عليكما الا الذهاب الى الجادين او سورين . ولا يسعني الا ان احتج على نصيحتك لهما بالتوجه الى مونتكس .. من اجل رياضة شتوية .. مونتكس ؟! فابرقت عينا الاول غضبا ، واجاب : في افانتس، شمال مونتكس ، يمكن ممارسة جميع انواع الرياضة الشتوية .

وهنا رأيت من واجبي ان اضع حدا لمناظرتهما .

ـ ايها السيدان . اشكركما كثيرا على نصائحكما . واظن انه لا بد لنا من الانصراف . فكما تريان ، ان ابنة عمي تعبة جدا . واعدكما اننا سوف نحاول الذهاب الى مونتكس فيما بعد .

ـ اهنئك ، اجاب الضابط الاول ، مادا يده لوداعي .

ـ اعتقد انك ستندم اذا غادرت لوكارنو اردف الثاني : .. على كل حال ، يجب ان تخبر دائرة الامن عند وصولك الى مونتكس .

ـ لن يضايقك احد مطلقا .. في مونتكس .. كن مطمئنا .. وجميع الاهلين سيرحبون بكما وينزلونكما اهلا .

ـ اكرر شكري لكما .. واقدر كل ما ابديتماه من نصح ثمين لنا .

ـ وداعا ، قالت كاترين . وداعا .

وشيعانا منحنيين حتى الباب الا ان ضابط لوكارنو اختصر تحيته وعاد ادراجه الى الداخل ، بينما اسرعنا نحن الى العربة والضابط الثاني يلوح لنا بيده .

ـ يا الهي ، صاحت كاترين ، الم يكن بوسعنا الانصراف من قبل .

امرت السائق ان يتجه بنا الى احد الفنادق الذي سمعت اسمه من ضابط لوكارنو ، وعندما بلغناه حملت الحقيبتين ، وامسكت بيد كاترين التي ، همست في اذني : نسيت الجندي .

وكان هذا ما زال جالسا بجوار السائق ، فنقدته ١٠ لير فدسها بجيبه وانصرف شاكرا . ـ كيف خطر لك ان تسمي مونتكس ؟

- هل كنت حقا تريدين الذهاب اليها ٠ - انه الاسم الاول الـــذي تذكرتــه ٠

- ٠٠ ليس مكانا رديئا على كل حال ، ونستطيع ايجاد مأوى مناسب في احدى ضواحيه ٠ - هل انت نعسة ؟ - اني نائمة منذ الان ٠

- لا بأس ٠ فبوسعنا النوم ملء جفوننا يا كاترين المسكينة بعد هــذه الرحلة المضنية ٠٠

- ومع ذلك فهي ممتعة خصوصـــا عندما انقلبت المظلة في يــدك ٠٠

- ها ها ها ٠ هل انت واثقة انك في سويسرا ؟

- لا ٠٠ اخشى ان استيقظ لاجد المسالة حلما في حلـم ٠ - وانـــا كذلــك ٠٠

- لا ! انها حقيقة ٠٠ اليس حقيقة يا عزيزي ٠ هل انا في فندق المحطة بميلان ٠٠ اودعك ؟! - ارجو ان لا يكون الامر كذلك ٠

- لماذا تتكلم هكذا ؟٠٠ انك تخيفني ٠٠ هل هذا ما نحن به ؟ تكلم ٠

- اشعر بصداع عنيف ٠ لست اعرف السبب ٠ - دعني اتحسس يديــك ٠

فمددتهما نحوها ٠ كانتا محترقتين يشع وهج الحمى منهما ٠

- ايتها اليدان المسكينتان ٠

- لا تلمسيهما ٠٠ اني لا اعرف اين نحن ٠ الى اين ذاهبان ٠٠

- ستنام جيدا ٠ ولن تشعر بشيء غدا صباحا ٠

- اني اشعر بدوار ٠ ربما اكون جائعا ٠

- انت فقط مرهق جدا ٠ وسوف ترتاح بعد النوم ٠

- بدأت اشعر بتحسن ٠ نحن حقيقة في سويسرا ٠ اليس كذلك ؟

- نعم ، حقيقة ٠ واغمضت عيني ٠



سقط الثلج متأخرا ذاك الخريف ، وكنا نعيش في بيت خشبي صغير ، تكتنفه اشجار الصنوبر ، على سفح الجبل الذي تقع عليه بلدة مونتكس . وكانت صاحبة البيت ، السيدة كوتنكن ، تدخل غرفتنا كل صباح ، لتغلق النوافذ ، وتشعل النار في المدفئة الكبيرة ، وفيما نحن نستمع الى هدير النار تلتهم اغصان الصنوبر الجافة ، وحرارة الهواء ، من حولنا ترتفع شيئا فشيئا ، كانت السيدة كوتنكن تعد وجبة فطورنا وتجلبها الينا لنتناولها ونحن جالسين في سريرينا ، نتأمل عبر زجاج النافذة الكبيرة ، سطح البحيرة الازرق اللألاء ، وسفوح الجبال الشاهقة المقابلة .

امسيات هادئة جميلة ، تنبض بالحياة والعافية وايام حلوة رائعة ، قضيناها على شواطىء البحيرة في سويسرا ، نأكل وننام ونمشي بين طرقات الجبل ، ونجلس على الشرفة نسرح الطرف فيما حولنا من جمال ، وكم من مرة حملتنا قدمانا دون قصد منا ، الى مونتكس ، والى غيرها من القرى الصغيرة المنتشرة هنا وهناك ، على سفح الجبل او في بطن الوادي .

ولم نكن نعرف احدا في تلك الانحاء ، فكنا نقطع الوقت بالتجوال على شطآن الماء ، نمتع النظر بروعة الحمائم السابحة والاشجار الباسقة ، والمباني الانيقة الفخمة ، والناس من حولنا يحيوننا باسمين مسرورين .

وذات يوم ارادت كاترين ، وكنا في مونتكس ، ان تزين شعرها ، فرافقتها الى صالون التجميل ، وقصدت مقهى صغيرا في نهاية الشارع المحاذي للبحيرة ، اريد ان اروي غليلي من خمور مونيخ الذائعة الصيت .

وهناك ، لمحت ، فوق احدى المناضد ، كومة من الجرائد والمجلات مكدسة فوق بعضها ، فتناولتها جميعا ، ورحت اقلب صفحاتها ، كانت نفسي قد تاقت الى اخبار الحرب ، في هذا المكان البعيد البعيد ، الذي شهد اهله المأساة ، ولكن دون ان يدفعوا ثمنها الباهظ من الدماء .

ظللت جالسا اقرأ الصحف ، مسندا ظهري الى الجدار . آملا مرور

كاترين من امام المقهى · الا انها ، رغم انقضاء فترة ليست بالقصيرة ، لـم يظهر لها اثر ·· فنهضت من مكاني ، وخرجت الى الشارع ، قاصدا صالون التجميل ، وهناك الفيتها ما تزال مودعة رأسها بين يدي المرأة السمينـة ، صاحبة الدكان ، التي انهمكت في تصفيف الشعر الذهبي البراق ، فلم اتردد ودخلت ، جالسا على كرسي صغير في الزاوية ، ووجه كاترين يبدو لناظري منعكسا في كل المرايا ، وصوتها المتهدج يحدثني ، وعينا المرأة تبتسم الي ، واخيرا سرحت المرأة الشعر نهائيا وقامت كاترين الى المرآة الجانبية تبدل من تصفيف خصلاتها ، وتغير من وضع الدبابيس ، ثم التفتت نحوي :

ـ اني آسفة لاني اضعت عليك كل هذا الوقت فابتسمت السيدة صاحبة المحل في وجهي :

ـ ولكنك كنت مسرورا · اليس كذلك ؟ ـ نعم ·

وخرجنا الى الشارع ، نواجه لذعات الريح الباردة :

ـ يا عزيزي · اني احبك كثيرا ·· السنا ننعم بوقت جميـل دعنا ندخـل احد المقاهي ونحتسي جعة بدلا من الشاي ، فهي مفيدة جدا لكاترين الصغيرة ·

ـ كاترين الصغيرة ·· يا لها من شيطانة ·

ـ لا ·· انها طيبة جدا ·· لم تضايقني كثيرا · قال الطبيب ان الجعة تفيدها وتمنع تضخم جسدها ، الامر الذي يسهل عملية الولادة ·

ـ اذا حالت دون نمو جسدها وكان المولود صبيا ، فسيشب ويظـل قزمـا ·

ـ لكن لا بد لنا من الزواج اذا ما رزقنا طفلا · ـ لنتزوج الان ·

ـ الان ، ليس عندنا متسع من الوقت · ـ متى سنتزوج اذا ؟

ـ بعد ان الد ، حيث نقيم حفلة عرس رائعة ، تجعل كل من يحضرهـا يفتتن بالعروسين ويغبطهما حظهما ·

ـ لا باس ، على ان لا تكوني متألمة نفسيا ·

ـ ولماذا ؟ اسمع يا عزيزي ·· مرة واحدة احسست اثناءهـا بالالـم يحز في نفسي ، كان ذلك في ميلان ·· ليلة وداعـك في فندق المحطة · ان تصورت شخصي كالعاهرة ، ولكن ذلـك التصور لم يدم اكثر من سبـع دقائق ·· لم احس بعدهـا بشيء غير طبيعي والان ·· الا اقوم بواجبـي كزوجة ناجحة ؟

ـ بلى انك زوجة فاتنة ·

- اذا لماذا تتمسك بالامور الشكلية يا عزيزي ، سأتزوجك حالما آلد .
- كما تريدين .
- هل تعتقد انه من المفيد ان اشرب قارورة جعة اخرى ؟. لان الطبيب اخبرني ان اعلى الوركين متقاربين جدا ، ومن الافضل العمل على عدم انماء جسم الطفل ، .. - وماذا قال ايضا ؟ سالتها وانا احس بالضيق
- لا شيء .. فقط اعجب بضغط دمي قائلا اني املك درجة ممتازة من الحرارة الدموية .
- الواقع انه انسان مهذب . - سندعوه الى حفلة الولادة .
- وهل سالته اذا كان من المفيد لك ان تتزوجي ؟
- لا ، اخبرته اني متزوجة منذ اربع سنين وكما تعرف .. ان القانون الامريكي يعتبر الطفل شرعيا رغم ولادته قبل تسجيل عقد الزواج .
- اين اكتشفت هذا ؟ - في مجلة التقويم الاميركية .
- انك فتاة ماهرة !
- كم سأكون سعيدة عندما اكتسب الجنسية الاميركية ! ونسافر معا الى امريكا ، الن نسافر يا عزيزي ؟. فانا اريد رؤية شلالات نياغارا .
- انك فاتنة . - وشيء آخر اريد رؤيته .. ولكني لا اذكره الان.
- ناطحات السحاب ؟ - لا - بناية وول ورث الضخمة . - لا .
- الفندق العظيم ؟ - لا .. على اني اريد ان اراه هو ايضا .
- اي شيء اذا ؟.. البوابة الذهبية ؟.. نعم .
- هذا .. ما ارغب رؤيته .. اين تقع البوابة الذهبية ؟
- في سان فرنسيسكو . - لنذهب اليها اذا . فانا اريد رؤية سان فرنسيسكو على كل حال . - حسنا سنذهب .

قبيل عيد الميلاد بأيام ثلاثة ، سقط الثلج في ضواحي مونتكس للمرة الاولى ، فخرجنا انا وكاترين ، في جولة على الاقدام ، نتمتع برؤية البساط الابيض الناصع ، قد كسا كل شيء حتى اغصان الشجر ، على اننا لم نتمكن من اطالة جولتنا ، اذ كانت احذيتنا تغرز في طبقة الثلج العليا ، كما ان ريحا قارص البرودة ، عصف في وجهينا ، فعدنا ادراجنا الى الغرفة ، وجلسنا في الفراش ، نستمع الى هدير النار ، تزأر في الموقد الكبير :

- اخبرني الحقيقة الا ترغب في الخروج ومشاركة الرجال الاخرين رياضتهم الشتوية ؟ - لا ، وما الذي دفعك الى هذا السؤال ؟

- يخيل الي احيانا انك تحن الى الاجتماع بزملائك من الرجال

والتحدث اليهم .

ـ وهل تحنين انت للخروج وللتحدث مع الاخرين ؟

ـ لا ، وانك كذلك .

ـ ولكن وضعك يختلف ، فانا امرأة حامل لا استطيع شيئا .. واني اعرف انك ستعتبرني الان فتاة ثرثارة حمقاء .. ومع ذلك فانا احس احيانا انه من حقك ان تخرج وتجتمع بسواي لئلا يصيبك الملل .

ـ اسمعي ، هل تريدينني ان اذهب بعيدا .

ـ اريد ان تبقى بجانبي .

ـ وهذا ما سافعله دوما .

ـ تعال الي يا عزيزي . فانا أريد ان اتحسس وجنتيك السمراوتين .
واجرت راحتيها فوق وجهي : لماذا لا تنمي لحيتك يا حبيبي ؟

ـ هل ترغبين في ذلك ؟

ـ لربما تكون جميلة . اني افضل رؤيتك بلحية .

ـ سأبدأ منذ الان بتنميتها . انها فكرة حسنة ، تمنحني عملا اتلهى به .

ـ اذا انت برم من فراغ ايامك ؟

ـ ابدا ، ان هذه الحياة التي اعيشها محببة الى نفسي كثيرا ، انهـــا ساحرة . اليس كذلك ؟

ـ بلى ، ولكني خشيت ان اكون عبئا عليك ، في ايام الحمل هذه .

ـ آه يا كات . كم تجهلين مقدار هيامي بك يا عزيزة !

ـ وانا بهذه الحالة ؟ ـ نعم ، هذه الحالة بالذات .

ـ ظننت انك تعشق الحياة الحافلة ، الملأى بالحركة والمفاجات .

ـ مطلقا ، وانما يعود بي الفكر احيانا الى اشهر مضت . الى ايـــام الجبهة والناس الذين عشت واياهم . على اني احاول دائمـــا ان لا اطيـــل التفكير بهم .

ـ وبأيهم تفكر ؟ ـ برينالدي وبالكاهن وبكثير غيرهما .

ـ الا اني سرعان ما انتاساهم جميعا فانا لا استطيع التفكير بكل مـــا يتعلق بالحرب . ـ وبماذا تفكر الان ؟

ـ لا افكر بشيء . ـ بلى ، اخبرني .

ـ برينالدي ، اذا كان حقا مصابا بالسفلس . ـ اهذا كل شيء ؟

ـ نعم . ـ وهل كان مصابا حقا ؟ ـ لست ادري .

ـ اني مسرورة لكونك لست مصابا .. هل اصابك يوما ما مـــرض

كهـــذا ؟

ـ مرة واحدة بالفرحة ٠

ـ يكفي ٠ لا اريد السماع عنها ٠٠ هل تألمت كثيرا يا عزيزي ٠

ـ كثيرا جدا ٠

ـ آه ، ليتني اصبت بها ايضا ٠ لكنت شاركتك الملك ٠

ـ انها فكرة رائعة ٠ انظري الى الثلج ٠

ـ افضل النظر اليك يا حبيبي ٠ لماذا لا تدع شعرك يطول ٠ حتى تغدو شبيها لي ؟ آه كم انا متيمة بك ، حتى لاود ان اكونك ٠

ـ انت انا ٠٠ ونحن كلانا شخص واحد ٠

ـ اعرف ذلك ٠ فما من ليلة الا وكنا جسدا واحدا ٠

ـ آه ما اروع الليل يا كات ٠

ـ انا لا اريدك ان تدعني وتذهب الى اي مكان ، وانما سألتك تلك الاسئلة عرضا ٠ على كل حال اذهب اذا كان يحلو ٠ على ان لا تتأخـــر ، فانا كالميتة عندما لا تكون بجانبي ٠

ـ لن ادعك بعد اليوم ، فحياتي متعلقة بك ٠

ـ والان ، هل تريدينني ان استمر في تنمية لحيتي ام اقلع عن تلـــك الفكـرة ؟

ـ استمر في تنميتها ٠ فستغدو مثيرة ٠

ـ هل تريدين ان نلعب الشطرنج ؟

ـ افضل اللعب فوق السرير ٠

ـ دعينا نلعب الشطرنج ٠

ـ وبعدها فوق السرير ٠

ـ نعـم ٠

ـ حسنا ٠

ما ان انتصف شهر كانون الثاني حتى استمرت ايام الشتاء باردة لاذعة والثلوج متساقطة مستمرة ـ وتحولت الارض الى بقاع من المناظر الجميلة الساحرة ـ فكنت اخرج برفقة كاترين ، نسير فوق الطرقات المكسوة ثلجا ، وذات يوم قادتنا خطانا الى غابة كثيفة من الصنوبر ، في اولها مقهى ريفي صغير يلجأ اليه الصيادون بعد نهارهم الشاق ، يروحون عن انفسهم ، على اني وكاترين ، لا نستطيع احتمال ضجيج المقهى ، ولا تحمل رائحة الدخان القوية ، التي ينفثها الصيادون ، فقمنا لتونا قاصدين العودة ، وفي الطريق ، بادرتني كاترين :

ـ ارايت كيف انك لم تطق الجلوس مع الناس ؟

.. انت لا ترغب في رؤية احد . اليس كذلك ؟ ـ نعم .

ـ كيف نحن من جهة الدراهم ؟ ـ نملك الكثير .

ـ الن يحاول أهلك استدعاءك بعد أن علموا بوجودك في سويسرا ؟

ـ ربما .. سوف اكتب لهم قريبا . ـ الم تكتب حتى الان ؟

ـ لا ، فقط من اجل ارسال النقود .

ـ احمد الله اني لست من اهلك . الا تكفر بهم ؟

ـ طبعا ، ولكني على خلاف معهم .

ـ اعتقد اني ساحبهم . ولربما كثيرا ..

ـ دعينا من الحديث عنهم . لئلا يعذبني الحنين .. وتابعنا المشي .

ـ لحيتك قطعة فنية فاتنة . اني احبها كثيرا . وكما تعرف يا عزيزي . سوف اقص شعري بعد الولادة ، وعندها ابدو جذابة رشيقة القوام . واظهر في عينيك فتاة جديدة يعجبك سحرها فتهيم بي مجددا .

ـ يا للجحيم . اني هائم بك الان هياما لا مزيد عليه .. ماذا تريدين ان تفعلي بي ؟ اتدمرينني ؟!

ـ نعم اريد ان ادمرك . ـ لا بأس ، هذا ما أتوق اليه .

. . .

وهكذا مضت الايام ، حياة هادئة عشناها في ناحية مونتكس ، نجاوز الثلوج والغابات ونتامل جمال الطبيعة الساحرة الى ان انقضى شهر شباط ، وارتأت كاترين الرحيل الى لوزان لتكون قريبين من مستشفى التوليد . فانتقلنا اليها ونزلنا في احد فنادقها الكبيرة ، وكان ذلك في بداية آذار من عام ١٩١٨ ، في اليوم الذي بدأ فيه الالمان هجومهم الكبير على الجبهة الفرنسية .

اقمنا في الفندق اسابيع ثلاثة التحقت خلالها بناد رياضي للهواة ، كنت امارس فيه لعبتي الجمباز والملاكمة ، في الوقت الذي كانت كاترين تقضيه بالتنقل بين محال الثياب ، تبتاع ملابس الوليد ، وهي في اشد ما تكون من المرح والسرور .

وفي ايام الصحو المشرقة ، كنا نخرج للتجوال بين الحدائق الغناء ، المحيطة بلوزان مستطين عربة خيل ، فنمضي بضع ساعات في احضان الطبيعة الحالمة ، ونتناول غداءنا في العراء ، ثم نعود مع غروب الشمس الى غرفتنا في الفندق .

وفي أواخر ليلة من ليالي اذار ، استيقظت على صرير السرير الذي تنام عليه كاترين ، يفرقع بين الفينة والاخرى ، فرفعت راسي وسالتها :

- الحسين بشيء يا كات العزيزة ؟ - الما متقطعا .

- اذا ما استمر ، فينبغي الذهاب الى المستشفى .

قلتها وأرحت راسي فوق الوسادة ، والظاهر اني كنت شديد الحاجة الى النوم ، فما ان استقر راسي على الوسادة حتى اغمضت عيني لاستيقظ بعد وقت قصير ، وكاترين تخاطبني :

- ارجوك ان تتصل بالطبيب يا عزيزي ، فالارجح انه المخاض .

وكان المخاض حقا ، اذ ان الطبيب امرنا بالاسراع الى المستشفى ، وفي الحال اتصلت بمراب السيارات العمومية ، الا ان احدا لم يجبني ، رغم اني اعدت الكرة اربع مرات ، وفي المرة الخامسة اجابني صوت ، ادركت من نبراته ان صاحبه قد افاق من سباته العميق قبيل لحظات ، ووعدني الرجل ان يرسل لي سيارة خلال عشر دقائق .

وبينما كاترين منهمكة في اعداد محفظتها خرجت لاقرع جرس المصعد ، ولما لم يجبني احد نزلت في الطابق السفلي ، وارتفعت بالمصعد وحدي ، ثم حملت اليه حقيبة كاترين ، وساعدتها على الدخول وهبطنا معا .

فتح لنا الحارس الليلي ، باب الفندق الخارجي ، فوقفنا على رصيف الشارع ، ننتظر قدوم السيارة .

كانت السماء صافية . والسكون يعم كل شيء وكاترين يبدو عليهـــا القلق والاضطراب . فنظرت اليها مبتسما ، وامسكت بيدها .

ـ اني مسرور لذلك . فبعد قليل ينتهي كل شيء .

ـ انك لفتاة شجاعة طيبة . ـ انا لست خائفة . ارجو ان تصل السيارة .

ولكنها لم تصل . وانتظرنا فترة اخرى ، واخيرا تأبطت ذراع كاترين ، والحقيبة في يدي ، ومشينا معا باتجاه المستشفى وقبيل نهايـة الشارع ، لمحت ضوء سيارة قادمة من بعيد ، فاشرت الى سائقها ، الذي توقف واخذ الحقيبة من يدي . بينما ساعدت كاترين على الجلوس بجانبي داخلها .

ـ الى المستشفى الاهلي .

وهناك قابلتنا امرأة ، من وراء منضدتها ، راحت تسأل كاترين اسئلـة شتى : ـ اسمك ؟ ـ كاترين هنري .

ـ عمرك ؟ . فاجابتها . ـ عنوانك فاجابتها .

ـ اقاربك ؟ مكان ولادتك ؟ واخيرا . ـ ديانتك ؟ ـ لا دين لي .

فوضعت خطا افقيا في المكان المخصص للجواب ـ اتبعاني .

وارتفع بنا المصعد الى الطابق الرابع .

ـ هنا .. انزعي ثيابك واضطجعي في السرير مرتدية هذا .

واشارت الى ثوب ابيض فضفاض . خرجت الى الرواق وجلست على احد المقاعد الخشبية المنتشرة فيه ، وبعد قليـل خرجت الممرضـة دون ان تغلق باب الغرفة : ـ احس بالالم يزداد حدة يا عزيزي ..

وكانت الممرضة قد عادت ، فسألتها : ـ اين الطبيب ؟

ـ انه نائم في الطابق السفلي وسأوقظه عند الحاجة .

.. وامسكت بمعصم كاترين ، وفي يدها الاخرى ساعة صغيرة ، راحت تنظر اليها بين الفينة والاخرى ؟

ـ ينبغي القيام ببعض الاجراءات . هل تتفضل بالخروج ؟

عدت الى المقعد الخشبي بالذات ، انظر الى الارض ، واصلي من اجـــل كاترين .

ولم تمض دقائق معدودات ، حتى اطلت المرأة مـن الباب متلفتة يسارا ويمينا وعندما رأتني ، اشارت بيدها : ـ بامكانك الدخول .

دخلت متجها الى سرير كاترين مباشرة : ـ مرحبا يا عزيزي .

ـ كيف تحسين بالالم الان . ـ احس به متتابعا .

وتغطت وجهها صارة على اسنانها ، ثم ابتسمت : ـ واحدة كبيرة ..

الا تريدين عمل الشيء ذاته ايتها الممرضة ؟

ـ اذا كان ذلك يفيدك .

ـ ارجوك يا عزيزي .. اخـرج قليـلا .. اذهب وكل شيئا .. فلربما استمر هذا الحال وقتا طويلا ، كما تقول الممرضة .

ـ الولادة تتعثر في اغلب الاحيان . اجابت الاخيرة .

ـ اكرر رجائي لك بالخروج يا عزيزي ، اذهب وتناول ما يقيم اودك .. فانا اشعر بتحسن . ـ سانتظر قليلا .

وانتظرت ، كان الالم يغمرها دفعـــة ثم يتلاشى ، فتقطب وجهها وتعض على اسنانها ، وكلما برح بها المخاض تتظاهر بسهولة تحمله ، الا ان حدة الدفع اضمحلت اخيرا ، وبان اليأس على وجه كاترين وشحبت وجنتاها ، ثم نظرت الي وابتسمت كانها تريد التخفيف عني .

ـ يمكنك الخروج يا عزيزي .. ان وجـــودك يجعلني مرهفـــة الحس كثيرا .. لا تجزع .. ساكون زوجة صالحة وانجب هذا الطفل دون عذاب .. ارجوك ان لا تقلق من اجلي .. اذهب وتناول شيئا تأكله ، وبعدها ترجع الي ..

ـ كما تريد يا كات ، وداعا .

ـ وداعا ولا تنس أن تتناول نصيبي من الفطور أيضا .

كان ضوء الفجر الزاحف يطرد امامه جيوش الظلام ، ومشيت في الطريق الخالي من المارة ، اقصد المقهى الصغير الذي في نهايته . وهنـــاك احتسيت فنجانا من القهوة ، واكلت بعض قطع الخبز ، قدمها لي خادم عجوز :

ـ ماذا تعمل في هذا الوقت الباكر من النهار ؟

ـ زوجتي في المستشفى تعاني الام المخاض . ـ كذا ، حظ سعيدا اذا .

لم استطع صبـرا ، نقدتـــه الثمن وخرجت ، اسرع طرفي في الشارع الساكن وفيما حولي من الاشياء ، كانت صناديق القمامة خـــارج ابواب المنازل ، تنتظر جامعيها ، ورايت كلبا يشرئب بعنقه امام احدها . فاقتربت منه ، واجريت راحتي فوق ظهره .

ـ ماذا تريد ؟ مدنيا فم الصندوق تحت عينيه .

ـ لا يوجد شيء ايها الكلب . وتابعت طريقي ، الى المستشفى ، وعندما قرعت باب غرفة كاترين ، لم اسمع جوابا .

ففتحته ودخلت ، فلم اجد احدا في الداخـــل ، اللهم الا حقيبة كاترين ، موضوعة على الكرسي الخشبي . اغلقت الباب وخرجت الى الرواق ، وفي

نهايته التقيت باحدى الممرضات : ـ اين مدام هنري ؟
ـ لا ادري ، سيدة نقلت الى غرفة التوليد قبل دقائق .
ـ اين غرفة التوليد هذه ؟ ـ سأريك اياها .
كان باب الغرفة مفتوحـــا ، واستطعت ان ارى كاترين ، ممددة عـــلى السرير ، وفوقها الغطاء الابيض ، وقد وقفت الممرضة الى جانبها بينما وقف في الجانب المقابل ، رجل عرفت من هيئته انه الطبيب ،على مقربة منه جهاز اسطواني الشكل ، وفي يده كمامة متصلة بانبوب من المطاط .
ـ ساعطيك مريولا كي يمكنك الدخول . همست الممرضـــة في اذني .
ـ شكرا .

ارتديت الثوب على عجل وقرعت الباب ودخلت ، وما ان لمحتني كاترين حتى ارتفع منها صوت متهدج ضعيف : ـ مرحبا يا عزيزي .. لم اقطـــع شوطا كبيرا بعد .. ـ انت السيد هنري ؟ سألني الطبيب .
ـ نعم .. كيف كل شيء ؟
ـ كل شيء يسير بمجراه الطبيعي ، وقد احضرناها الى هذه الغرفة ، كي يمكن تنشيقها الغاز المخفف للالم والمساعد على التنفس .
ـ ها .. الغاز اعطني الغاز ..
صاحت كاترين بصوت مجهد يكاد يخنقه الضعف .
فوضع الطبيب الكمامة فوق وجهها ، وحرك صماما في اسفل الجهـــاز ، ورأيت كاترين تتنفس عميقا وسريعا ثم تدفع الكمامة بعيدا ، فيعيد الطبيب الصمام الى موضعه . ـ ليست كبيرة ..
قالتها بصوت خافت غريب .. ثم سمعتها تئن انينا عميقـــا ، محاولـــة اخماد صوتها ، متطلعة الي والبسمة الكبيرة في عينيها .
ـ لقد كانت دفعة كبيرة كبيرة .. الا يؤلمك المنظر يا عزيزي .. اذهب وتناول فطورا ثانيا . ـ لا يا كات .. سابقى معك .
انتصف النهار ، وكنا قد اتينا الى المستشفى في الثالثة صباحـــا ، وها هي كاترين ما تزال في غرفة التوليد ، لم يسعفها الدفع بعد ، وتلاشت قواها ، واستبد اليأس في نظراتها ، وبدت فوق المحفة منهوكة خائرة ، رغم محاولتها الاحتفاظ بهدوئها ومرحها :
ـ لم اعد اصلـــح لشيء يا عزيزي .. اني آسفة جـــدا .. ليس باستطاعتي البذل اكثر .. ظننت اني سأخلص بسهولـــة .. ها .. ها . الغاز .. اعطني الغاز ، ومدت يدهـــا الى الكمامة ، ووضعتها فوق وجهها ،

بينما حرك الطبيب الصمام وراح يراقب حركات ٠ وانقضت المحاولـة دون جدوى ٠

ـ الا تريد تناول غداءك ايها الطبيب ؟ خاطبته متسائلا ٠

ـ سأكل طعاما خفيفا ٠

ـ ينبغي لك ان تتناول غداءك ايها الطبيب ٠

صاحت كاترين : اني اسفة لتأخري حتى الان ٠٠ ولكن سوف ابذل جهدا اكبر ٠٠ الا يستطيع زوجي ان يمدني بالغاز ، نيابة عنك ؟

فالتفت نحوي :

ـ اذا كنت تريد ٠٠ ادر الصمام حتى رقم ٢ ٠ ـ فهمت ٠

ـ ٠٠ هـا ٠٠ الان ٠٠ اعطني الغـــاز ٠٠ وامسكت بالكمامة ٠ فادرت الصمام حتى الرقم الثاني ، ثم اعدته لموضعه الاول ، بعد ان ابعدت الكمامة عن وجهها :

ـ هل انت الذي امدني بالغاز يا عزيزي ؟٠

٠٠ وربتت على معصمي : انت انسان طيب عظيم ٠

وانقضت ساعة بكاملها والطبيب لم يرجع بعـــد ، وكاترين تسير مـن سيء الى اسوأ ، وقد كسا وجهها شحوب غريب ، وظهر الانهـاك في كـــل قسماته :

ـ اتظن ساعيش لارى هذا الطفل !

ـ طبعا يا كات العزيزة ٠٠ سوف تنعمين برؤيته يا حبيبتي ٠٠

ـ اني ابذل كل جهدي ٠٠ ولكنها تاتي وتتلاشى دون جـــدوى ٠ ها ، هذه واحدة ٠٠ الغاز ٠٠ الغاز ٠

وفي تمام الساعة الثالثة مساء ، غادرت غرفة التوليد ، قاصـــدا المقهى الصغير لتناول غـداني ، الا اني لـم استطع الجلـوس ، فاشتريت قطعتي سندويش وعدت الى المستشفى ، وانا فريسة خواطـر متناقضة تزدحم في نفسي ٠ وما ان وطئت عتبة غرفة التوليـــد حتى هتف الطبيب مخاطبـــا كاترين :

ـ ها ، لقد عاد زوجك ٠

ـ اه يا عزيزي ، لقد ارجعني الطبيب الى حالـــة الوعي بعد ان اصابتني نوبة حادة ، انه طبيب ماهر مدهش ، ها الغاز اعطني الغاز ٠

وقبضت على الكمامة ، متنفسة تنفسا عميقا متقطعـــا ٠ محدثـة صوتا غريبا ، جعل الطبيب يسرع في اعادة الصمام الى موضعه ٠

ـ كبيرة جدا ، قالت بصوت لم اسمع مثيله منها قبلا : سوف لن اموت يا عزيزي . ـ لقد اجتزت مرحلة الخطر . الست سعيدا ؟

ـ لا تعرضي نفسك للحمل مرة ثانية .

ـ بلى . اريد ان احمل ثانية . وسوف لا اموت . ها . هذه واحدة . الغاز . اعطني الغاز . فأمدها الطبيب به ، ثم التفت الي :

ـ ارجوك مغادرة الغرفة ريثما اجري فحصا عاما . خرجت حائرا اين اذهب ثم قصدت غرفة كاترين الاولى ، حيث ستنام بعد الولادة ، واخرجت الصحيفة من جيبي ، ونشرتها اريد القراءة ، ولكني لم البث بعد ان انرت المصباح الكهربائي ، ان طويت الجريدة واعدتها الى جيبي ، مطفئا الضوء ، واضعا رأسي بين ذراعي . فلم يكن بوسعي فهم أيسر الاشياء .

ان الولادة الاولى تتعثر غالبا . هكذا قالت الممرضة ، وهذا ما يقوله الكثيرون ، انها فقط تعاني ازمة عنيفة عارضة ، وغدا بعد ان يطل ابنها على النور ، ستهنا ، وتتذكر هذه الساعات دون ان تبالي بما عانت وتحملت ، بل ستقول انها لم تتالم ابدا ولم تعاني مطلقا ، وان كل ما يدمر اعصابنا الان ، لم يكن الا وهما ، وخيالا عارضا . نعم ، هكذا ستقول ، ولكن ماذا لو قضت ؟ لا ، لا يمكن ان تموت ، لن يحدث ذلك ، اني واثق ان ذلك لن يحدث . لا ، لا تكن واهما ، انها فقط ازمة عنيفة عابرة : الولادة الاولى ، وسينتهي كل شيء ، ولكن آه ماذا لو قضت ؟ لا ، لن تقضي ، وكيف يمكن ان تقضي ؟ اي سبب سيجعلها تقضي ؟ كل ما في الامر ان طفلا سيولد ، سيطل على الحياة ، سيخلق الفرحة والسرور ، انه ثمرة ليال حافلة ممتعة عشناها في ميلان . وهو يعذبك الان ، ويضفي على نفسك الكآبة والخوف ، ولكنه سيأتي ، وسيعيش ويحيا ، وستتطلع اليه ، وتحرص عليه وتحبه وتهيم به ، ولكن ماذا ، لو توفيت ؟

وفتح باب الغرفة ، وانتصب الطبيب أمامي ساهما مطرقا .

ـ ماذا تعني ؟ ـ تماما كما اخبرتك .

واوضح لي نتيجة الفحص العام . ـ وبماذا تنصح ؟

ـ يوجد طريقتان ، اما استعمال آلة السحب ، التي يمكن ان تحدث تمزيقا ، بالاضافة الى انها خطرة وقد تؤذي الطفل ، او اجراء عملية شق البطن .

ـ وما خطر شق البطن ؟ ماذا لو قضت اثناءها ؟

ـ انها اقل خطرا من استعمال الالة .

ـ هل ستجريها بنفسك ؟
ـ نعم احتاج فقط لمدة ساعة كي اقوم بالاستعدادات اللازمة .
ـ وهل تحبذ انت هذا الحل ؟
ـ طبعا ، لو كانت زوجتي لما فعلت غير ذلك .
ـ وما هي النتائج اللاحقة ؟ ـ لا شيء ، اثر الجرح فقط .
ـ واذا ما انتظرنا فترة اخرى ؟
ـ ينبغي القيام بعمل سريع ، فالسيدة هنري تفقد قواها شيئا فشيئا، وكلما اسرعنا في العملية كلما كان ذلك اضمن نجاحا .
ـ اذن باشر فورا .
ـ سأصدر تعليماتي حالا .

على محفة طويلة عريضة ، في غرفة الجراحة تمددت كاترين شاحبة اللون ، خائرة القوى ، وما ان لمحتني ، حتى مدت يدها نحوي ، فاقتربت منها منحنيا فوق جسدها . ـ هل وافقته على اجرائها ؟ ـ نعم .
ـ اليس ذلك افضل بكثير ، فبعد ساعتين ينتهي كل شيء ويولد كاترين الصغير آه اكاد ان اهلك يا عزيزي ، اكاد أن اتمزق اربا اربا ، ها ، الغاز ـ اعطني الغاز ، انه لا يصلني . ـ تنفسي عميقا .
ـ لا يصلني ، لا يصلني ، آه ، لا ..
ـ حضري أنبوبا آخر أيتها الممرضة .
ـ انه أنبوب جديد أحضرته قبل دقائق .
ـ « آه يا عزيزي ، انني حمقاء ، ولكنه لا يصلني » وشرعت تبكي .
ـ آه . كم تمنيت أن ألد هذا الطفل دون ازعاج ، ولكني أكاد أموت ، آه ، الغاز ، الغاز ، انه لا يصلني ، انه لا يصلني يا عزيزي ، ليتني أموت ، ليت هذا الالم ينقطع . ها، هي آه ، آه ، آه .

وغصت وانقطع شهيقها داخل الكمامة ثم علا صوتها الخافت : الغاز، الغاز .

ـ آه ، لا تؤاخذني يا عزيزي ، أرجوك أن لا تبكي ، تبكي، اكاد انفجر، أنت يا حبيبي المسكين ، اني أحبك كثيرا وسأعود زوجة طيبة لك ، آه .
ساحاول ان ابدأ منذ الان ، الا يستطيعون معالجتي بطريقة ما ، آه لو يستطيعون تخفيف هذا الالم ، قليلا ، قليلا . ـ اعطني الانبوب من فضلك .

وانتزعت الجهاز من يد الممرضة ، وحركت الصمام حتى الرقم الرابع .

ـ هذا عظيم يا حبيبي ٠٠ آه ، انك رحيم بي دائما ٠٠ انـك تعطف علي ٠

فصمتت مغمضة عينيها ثم رأيتها تتنهد طويلا ٠

ـ وانت كوني شجاعة ، فانا لا استطيع عمل هذا مرة ثانيـة ، لئـلا يؤذيك الغاز ٠

ـ ساكون شجاعة اكثر يا عزيزي ٠٠ آه أكاد أنفجر، لقد قتلني الالم !

ـ كل الامهات تعاني الالم ذاته ٠

ـ ولكنه شديد جدا ، مرعب ٠٠ ـ بعد ساعة سينتهي كل شيء ٠

ـ نعم ، اؤكد لك انك لن تصابي بأذى ابدا ٠

ـ لاني لا اريد ان اموت وادعك وحيدا ٠ آه ، ولكنني ٠٠ احس ان كل شيء قد انتهى ٠٠ أشعر بقرب للنهاية ٠

ـ ما هذا يا كات العزيزة ، كل انسان يشعر كذلك ٠

ـ اني أحيانا اشعر كأني أموت ، ولكن ، ماذا لو مت ؟

ـ لن ادعك تموتين ٠

ـ ها ، الغاز اعطني الغاز ٠ لا ! لن اموت ، لن ادع نفسي تموت ٠

ـ كات ، لن تموتي ٠ ـ وسوف تبقين معي ٠

ـ سابقى معك الى الابد ٠

ـ انك انسان نبيل يا عزيزي ، ها ، الغاز ، أكثر ، أكثر ٠

فحركت الصمام الى الرقم الثالث ، ثم الى الرابع ، وتمنيت ان لو يصل الطبيب لاني كنت اخشى مغبة هذه المغامرة الخطرة ٠

على ان الطبيب لم يحضر الا بعد ساعة كاملة ٠ وكانت كاتريـن في حالة من الاعياء مخيفة ٠

جلست في الغرفة المجاورة انتظر نتيجة المحاولة الاخيرة ، وكان الظلام قد بدأ يسدل ستاره على المدينة ، وبعد فترة ليست بالقصيرة ، فتح بـاب الغرفة وخرج منها طبيب آخر ، يحمل رزمة في يده ، وتتبعه ممرضة ٠

اسرع الاثنان عبر الرواق الى غرفة جانبية فلحقت بهما ، وهنـــاك وجدتهما يقومان ببعض الاجراءات للوليد ، وعندما لمحني الطبيب حمل الطفل بيده ليريني اياه ، ثم حمله من اسفل قدميه وراح يلطمه على اعلى فخذيه ، فسألته :

ـ أليس هو كما ينبغي ؟ ـ مدهش ٠٠ يزن اكثر من خمسة كيلو غرامات ٠

فلم اشعر بالعطف نحوه كانه غريبا عني ، وكان الممرضة لاحظت ذلك في فابتدرتني :

ـ الست فخورا به ؟ فلم أجبها ٠

وعادت هي الى عملها مع الطبيب غسلاه ثم لفاه ، واستطعت ان اتأمل يده الصغيرة ، وعينيه الواسعتين ووجهه الاسمر ، ولكني لم اسمعه يصيح، ولم أره يتحرك ٠

وبعد لحظات شرع الطبيب في لطمه على وجهه ويديه ، ثم وضعه جانبا ، ورفع رأسه والكابة ملء محياه ، بينما سألتني الممرضة :

ـ ما بك ٠ الست فخورا بابنك ؟

ـ الا ترى ما اجمله ؟ ـ لقد كاد يودي بحياة امه ٠

ـ ولكنها ليست غلطة هذا البريء الحلو ٠٠ الم تكن تحلم بالصبي !

ـ لا ٠

حمدت الله كثيرا لانني لم ارهم يقصون لحم كاترين ٠ لقد كان ذلك امرا لا استطيع احتمال رؤيته حتى من بعيد ، من الغرفة المجاورة ، التي وقفت فيها ، اتأمل الطبيب يخيط الجرح العميق الطويل الذي احدثه في جسم كاترين العزيزة ٠ وقبل ان يتم اغلاق الجرح ٠ تراجعت نحو الرواق مضطربا ٠ ورحت اذرع الممر جيئة وذهابا ٠ احاول طرد المنظر الدامي من مخيلتي ، ولم ينقذني من سعير العاطفة الدامعة في قلبي ، الا رؤية الطبيب يغادر الغرفة ، فهرعت اليه متنفسا الصعداء ٠ ـ كيف هي ؟ ـ على ما يرام ٠ هل راقبت العملية ٠

ـ رأيتك تخيط الجرح ٠

اجبته وكان يبدو عليه الاعياء الشديد ٠

ـ اني مدين لك بالكثير ايها الطبيب ٠

ـ عفوا ، ارجو لكما كل خير ٠

ولم نكد نتم حديثنا حتى رأيتهم يخرجون المحفة ويتجهون بها سريعا الى المصعد ، ثم الى غرفة كاترين الاولى ، فهرولت خلفهم ووقفت الى جانب السرير الذي اضجعوها فوقه ٠

ـ مرحبا يا عزيزي ، قالتها بصوت ضعيف متهدج ٠

ـ مرحبا يا حبيبتي ٠

ـ أي جنس هذا الشقي الصغير ؟

ـ صه ٠ لا تتكلمي ٠ اجابتها الممرضة ٠ بينما قلت أنا :

ـ صبي ، انه طويل عريض اسمر اللون ٠

ـ هل هو في حالة حسنة ؟
ـ نعم ، رائع جدا ؟
ورأيت الممرضة تنظر الي وامارات الدهشة تعم كل وجهها ٠
ـ هل انت مسرور يا عزيزي ؟
ـ نعم ، ولكن لا تتكلمي الان ٠
ـ آه يا عزيزي ٠ لقد كنت نبيلا جدا طيلة حياتك معي ، اني أحس بالالم يشتد ، آه ، انه يكاد يصرعني ٠ من يشبه الصبي ؟
ـ لا تتكلمي ٠٠ صاحت الممرضة ثم التفتت نحوي !
ـ أرجوك أن تغادر الغرفة الان ٠
ـ كما تريدين ٠
ـ اذهب وكل بعض الشيء يا عزيزي ٠
وانحنيت فقبلتها ، كان وجهها اصفر كوجه الموتى ، وصوتها خافتا متهدجا يكاد يخنقه الاعياء ، وفيما انا أهم بالخروج ، همست في اذن الممرضة ٠
ـ هل يمكن ان اسالك أمرا ؟٠٠
فتبعتني الى الخارج ، الى عتبة الباب ٠
ـ أحدث شيء للصبي ؟
ـ الم تعلم ؟ ـ لا ٠
ـ لم يكن حيا كما ظنوه للوهلة الاولى ٠
ـ أكان ميتا ؟!
ـ لم يتمكنوا من جعله يتنفس ٠
ـ اذن فهو ٠٠ ميت ٠٠ ميت ٠
ـ نعم ، انها فاجعة محزنة ٠٠ لقد كان صبيا فاخرا ، قوي البنية ٠
ـ الافضل ان تعودي الى جانب السيدة هنري ٠
جلست على الكرسي ، انظر من خلال النافذة المقابلة ، لم يكن امامي الا الظلام ٠٠ الظلام الدامس ، واشباح الليل الرهيبة تتراقص في عيني وفي رأسي : لقد مات الوليد ، هكذا كانت النتيجة ، لم يكتب له ان يعيش ابدا، لقد كنت احسه يتحرك دائما ، في جوف أمه المسكينة ، كاترين ٠ ولكنه في الاسبوع المنصرم توقف عن الحركة تماما ، لربما كان مختنقا طيلة هذه المدة٠٠ آه ٠٠ ايها الحمل البريء لو انني اختنق مثلك ، لا ٠٠ لا اريد فليس من الحكمةان تتلاحق الوفيات،ان كاترين ستموت ستموت الان،وهذا ما سببته انت،

وانت ايضا . لقد قضيت دون ان تعرف السبب الذي من اجله لم تر النور ، ولم تتنشق اريج الحياة ٠٠ الحياة الجميلة الحلوة يا ولدي ، انني جالس هنا ، في الظلام ، انتظر مصير أمك ٠٠ أمك الانسانة المخلصة الطيبة ، لقد تركتنا يا بني وحيدين كما سنبقى ٠٠اني انتظر مصيرها كي تنهض وترافقني٠

ومضت لحظات ٠٠ واجتاحني قلق مدمر ٠٠ ما زالت كاترين في الداخل لا تأتي حراكا لماذا لا تفتح الباب ؟٠٠ سأنهض واتفقد الامر بنفسي ٠

وفتحت الباب ، ولكن الممرضة اسرعت ومنعتني من الدخول ٠

ـ وكيف هي ؟

ـ على ما يرام ٠٠ من الافضل ان تذهب وتتناول عشاءك ٠

وتحت الامطار الغزيرة ، قصدت الملهى الصغير للمرة الثالثة ، وكما في المرتين الاولتين ، لم أحس برغبة ، ولو ضئيلة ٠٠ في الطعام ، ولكني ارتأيت ان لا أعود سريعا الى المستشفى ، محاولا ابعاد تفكيري عن كل ما يمت اليه بصلة ، على اني بعد دقائق قليلة ٠٠ لم ادر الا وقدماي تسيران الى حيث كانت كاترين ٠ وفي رواق الطابق العلوي ، التقيت بالممرضة مسرعة ، وكأنها تركض باتجاهي٠

ـ لقد اتصلت بالمقهى الصغير هاتفيا ، وأحسست ان قلبي قد غار بعيدا ٠

ـ ما القضية ؟

ـ السيدة هنري تعاني نزيفا حادا ٠

ـ هل بامكاني الدخول ؟

ـ ليس الان ٠٠ فالطبيب برفقتها ٠

ـ وهل هي في حالة خطرة ؟ ـ جدا ٠

ودخلت الغرفة ، مغلقة الباب وراءها بينما تسمرت انا في الارض لا أدري عملا ٠٠ شاعرا أن كل جارحة في كياني تضطرم نارا ٠ وشل تفكيري، وتأكدت انها ميتة لا محالة ، ورحت أصلي من أجلها كالمحموم ، لا تدعها تموت ، يا الهي ، لا تدعها تموت ٠ اني أعدك ان أفعل كل شيء من اجلك ٠٠ اذا لم تدعها تموت ٠٠ ارجوك ، ارجوك ، ارجوك ٠٠ ارحم شبابها ، يا الهي الحبيب ٠٠ لا تدعها تموت ٠٠ اني اقدم كل شيء تطلبه ، على أن لا تدعها تموت ٠ ارجوك يا الهي ، أرجوك أن لا تدعها تموت ، أرجوك ، أرجوك ، أرجوك ٠ لقد أخذت الطفل المسكين ، دون أن تراه حتى ميتا ٠ فاحفظها هي من الموت ، يا الهي العزيز ، أرجوك أن لا تدعها تموت ، ألا يكفي ذلك ؟٠

الا يكفي كل هذا ؟ يا الهي الكبير ، لا تدعها تمـوت ، أرجـوك يـــا الهي ، ارجوك ، أرجوك ، أرجوك .

وفتح الباب ، وأشارت الممرضة الي بالدخول ، فتبعتها الى الغرفـة، دون أن تشعر كاترين بدخولي ، كان الطبيب يقف الى جانبها ، ومـا أن لمحتني حتى عضت شفتها وأغمضت عينيها ، تريد أن تخفي الدموع :

ـ يا حبيبي المسكين ، قالت بصوت اقرب الى الهمس ، ووجهها اشد ما يكون من الشحوب .

ـ لا تخافي يا كات العزيزة . انت في حالة حسنة. ارجوك ان لا تبكي.

ـ اني مائتة يا فرد ، وغصت . كم امقت ان اموت يا فرد المسكين ، فامسكت بيدها .

ـ لا تلمسني يا فرد .

وتطلعت في وجهي تريد الابتسام ، ولكن قشعريرة حادة هزتها هزا :

ـ سوف تلمسني كثيرا .

ـ لا يا كات العزيزة ، سوف تتحسنين قريبا ، اني اؤكد لك ذلك .

ـ اردت أن أكتب لك رسالة ، قبل أن تصل ، ولكني لم استطع .

ـ هل ترغبين في احضار كاهن لرؤيتك .

ـ لا ، فقط انت يا .. وغصت ، لست خائفة من الموت ولكني امقت ان افارقك يا فرد ، الحبيب ، يا ..

ـ ينبغي أن لا تتكلمي . قاطعها الطبيب .

ـ كما تشاء .

ـ هل تريدين أن أفعل أي شيء يا كات ؟. هل تريدين ان اجلب لك أي شيء ؟

فابتسمت ابتسامة كسيرة :

ـ لا . واردفت بعد غصة : اننا لن ..

ولكن الطبيب قاطعها صائحا :

ـ ينبغي أن لا تكثري من الكلام . السيد هنري يجب أن يخرج الان. انت لن تموتي ، لا تكوني فريسة الوهم .

ـ حسنا . سآتي وأزورك يا فرد . تذكرني يا ..

وغصت من جديد ، بعد أن نطقت الكلمة الاخيرة ، بصعوبة عظمـى، بينما اقترب مني الطبيب هامسا :

ـ أرجوك أن تخرج .

وانتظرت خارجا . يظهر انهم لم يستطيعوا ايقاف النزيف ، او لربما اصيبت بنزيف اخر ، وهذا ما قالته الممرضة ، وهي تجفف دمعها ، خارجة من الغرفة :

ـ هل انتهى كل شيء .   ـ تكلمي .. ارجوك .

ـ انها فاقدة وعيها تماما ، ان الطبيب ينتظرك .

ظللت الى جانب كاترين ، وهي غائبة عن كل ما حولها ، الى ان لفظت روحها ، روحها النقية الطاهرة .

وفي الرواق خارج الغرفة سألت الطبيب :

ـ هل هناك ما يمكن أن أقدمه لك ؟

ـ لا .. لا شيء أبدا ، اذا كنت فقط تسمح لي بايصالك الى الفندق .

ـ لا ، اشكرك ، أريد البقاء هنا فترة أخرى .

ـ اعرف انه لا يوجد ما يقال .

ـ فانا لا استطيع أن أخبرك .

ـ أرجوك ، لا اريد السماع عنها .

ـ افضل ان أحملك معي الى الفندق .

ـ لا . شكرا .

وخطا نحو المصعد ، بينما اتجهت أنا الى الداخل .

ـ ليس من حقك الدخول ايها السيد .

خاطبتني احدى الممرضات .

ـ بلى من حقي .   ـ لا ، ليس من حقك .

ـ بامكانكن جميعا ان تخرجن .

ولكن بعد أن غادرن الغرفة واغلقت الباب . مطفئا الانوار لم استطع البقاء . كان عملي تحية وداعية الى تمثال من اللحم .

فخرجت من الغرفة مغادرا المستشفى والمطر ينسكب فوقي مدرارا .

ـ انتهى ـ